http://www.shamela.ws
تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

الكتاب : تفسير الشعراوي

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)

(مِنْ بُطُونِ أُمهَاتِكُم) المراد الأرحام؛ لأنها في البطون ، والمظروف في مظروف يعتبر مظروفاً ، كما لو قلت : في جيبي كذا من النقود أو في حافظتي كذا من النقود . . العبارتان معناهما واحد .

وأمهاتكم : جمع أم ، والقياس يقتضي أن نقول في جمع أُم : أُمَّات ولكنه قال : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ } [النحل : 78] .

بزيادة الهاء .

وساعةَ يكون الجنين في بطن أمه تكون حياته حياة تبعية ، فكل أجهزته تابعة لأمه . . فإذا شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية مستقلة . . وعند الولادة نرى أطباء التوليد يقولون : الجنين في الوضع الطبيعي أو في غير الوضع الطبيعي . . فما معنى الوضع الطبيعي للجنين عند الولادة؟

الوضع الطبيعي أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل ، هذا هو الوضع الطبيعي؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يُخرجه خَلْقاً آخر : { ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ } [المؤمنون : 14] .

كأنه كان خلقاً لكنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقاً آخر مُسْتقلاً بذاته . . فتكون الرأس إلى أسفل ، وهي أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس .

ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية ، فإذا ما تعسَّر خروج باقي جسمه فتكون له فرصة التنفس وهذا من لُطْف الله سبحانه؛ لأن الجنين في هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقي جسمه .

أما إذا حدث العكس فكان الرأس إلى أعلى ، ونزل الجنين بقدميْه ، فبمجرد نزول الرِّجْليْن ينفصل عن أمه ، ويحتاج إلى حياة ذاتية ويحتاج إلى تنفس ، فإذا ما تعسَّرت الولادة حدث اختناق ، ربما يؤدي إلى موت الجنين .

العلم أَخْذ قضية من قضايا الكون مجزوم بها وعليها دليل؛ وقوله تعالى :

{ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً . . . } [النحل : 78] .

ذلك لأن وسائل العلم والإدراك لم تعمل بَعْد ، فإذا أراد الله له أنْ يعلم يخلق له وسائل العلم ، وهي الحواس الخمس : السمع والبصر والشَّم واللمس والتذوّق ، هذه هي الحواس الظاهرة التي بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف ، وبها يُدرِك ما حوله .

وإنْ كان العلم الحديث قد أظهر لنا بعض الحواسّ الأخرى ، ففي علم وظائف الأعضاء يقولون : إنك إذا حملتَ قطعتين من الحديد مثلاً فبأيّ حاسة تُميّز بينهما من حيث الثقل؟

هذه لا تُعرف باللمس أو السمع أو البصر أو التذوّق أو الشّم . . إذن : هناك حاسة جديدة تُميّز الثقَل هي حاسة العضَل .

وكذلك تُوجَد حاسة البَيْن ، التي تتمكن بها من معرفة سُمْك القماش مثلا وأنت في محل الأقمشة ، حيث تفركُ القماش بين أصابعك ، وتستطيع أن تُميّز بين الرقيق والسَّميك .

فالطفل المولود إذن لا يعلم شيئاً ، فهذا أمر طبيعي لأن وسائل العلم والإدراك لديه لم تُؤدِّ مهمتها بَعْد .

وقوله تعالى :

{ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة .

. . } [النحل : 78] .

وقد بيَّن لنا علماء وظائف الأعضاء أن هذا الترتيب القرآني للأعضاء هو الترتيب الطبيعي ، فالطفل بعد الولادة يسمع أولاً ، ثم بعد حوالي عشرة أيام يُبصر . . وتستطيع تجربة ذلك ، فترى الطفل يفزع من الصوت العالي بعد أيام من ولادته ، ولكن إذا وضعت أصبعك أمام عينيه لا يطرف؛ لأنه لم يَرَ بعد .

ومن السمع والبصر وهما السادة على جميع الحواس تتكون المعلومات التي في الأفئدة ، هذا الترتيب القرآني الوجودي ، وهو الترتيب الطبيعي الذي وافق العلمَ الحديث .

ونلاحظ في الآية إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة :

{ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة . . . } [النحل : 78] .

فلماذا لم يأْتِ السمع جَمْعاً؟

المتحدث هنا هو الحق سبحانه؛ لذلك تأتي الألفاظ دقيقة معجزة . . ولننظر لماذا السمع هنا مفرد؟

فَرْق بين السمع وغيره من الحواس ، فحين يوجد صوت في هذا المكان يسمعه الجميع ، فليس في الأذن ما يمنع السمع ، وليس عليها قفل نقفله إذا أردنا ألاَّ نسمع ، فكأن السمع واحد عند الجميع ، أما المرئي فمختلف؛ لأننا لا ننظر جميعاً إلى شيء واحد . . بل المرائي عندنا مختلفة فهذا ينظر للسقف ، وهذا ينظر للأعمدة . . إلى آخره .

إذن : المرائي لدينا مختلفة . . كما أن للعين قفلاً طبيعياً يمكن إسْداله على العين فلا ترى ، فكأن الأبصار لدينا مختلفة متعددة .

وكذلك الحال في الأفئدة ، جاءت جَمْعاً؛ لأنها متعددة مختلفة ، فواحد يَعِي ويُدرك ، وآخر لا يعي ولا يدرك ، وقد يعي واحد أكثر من الآخر .

إذن : إفراد السمع هنا آيةٌ من آيات الدقة في التعبير القرآني المعجز؛ لأن المتكلمَ هو ربّ العزة سبحانه .

ونلاحظ أيضاً تقديم السمع على باقي الحواس؛ لأنه أول الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أنْ يُولدَ إلى أنْ يفارق الحياة ، ولا يغيب عنه حتى لو كان نائماً؛ لأن بالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد قُلْنا في قصة أهل الكهف أنهم ما كان لهم أن يناموا في سُبات عميق ثلاثمائة وتسع سنين إلا إذا حجب الله عنهم هذه الحاسة ، فلا تزعجهم الأصوات . فقال تعالى : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11] .

أي : قُلْنا للأذن تعطّلي هذه المدة حتى لا تزعجهم أصوات الصحراء ، وتقلق مضاجعهم ، والله تعالى يريد لهم السُّبات والنوم العميق .

وفي قوله تعالى :

{ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع . . } [النحل : 78] .

هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج (الميلاد) أم هي موجودة قبله؟ . . يجب أنْ نُفرّق بين السمع وآلته ، فقبل الإخراج تتكون للجنين آلات البصر والسمع والتذوّق وغيرها . . لكنها آلات لا تعمل ، فالجنين في بطن أمه تابع لها ، وليست له حياة ذاتية ، فإذا ما نزل إلى الدنيا واستقلّ بحياته يجعل الله له هذه الآلات تعمل عملها .

إذن : فمعنى :

{ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع . . . } [النحل : 78] .

أي : جعل لكم الاستماع ، لا آلة السمع .

وقوله :

{ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78] .

تُوحي الآية بأن السمع والأبصار والأفئدة ستعطي لنا كثيراً من المعلومات الجديدة والإدراكات التي تنفعنا في حياتنا وفي مُقوّمات وجودنا ، وننفع بها غيرنا ، وهذه النعم تستحقّ منا الشكر . فكلما سمعتَ صَوْتاً أو حكمة تحمد الله أن جعل لك أُذناً تسمع ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعلَ لك عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشمُّ . .

وهكذا تستوجب النعم شُكْر المنعم سبحانه .

ولكي تقف على نِعَم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرِموا منها ، وتأمّل حالك وحالهم ، وما أنتَ فيه من نعم الحياة ولذّاتها ، وما هُمْ فيه من حِرْمَان .

ثم ينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى في قوله تعالى : { أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير . . . } .

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (79)

فالحق سبحانه ينقلنا هنا إلى صورة أخرى من صُوَر الكون . . بعد أن حدّثنا عن الإنسان وما حوله . . فالإنسان قبل أنْ يخلقه الله في هذا الوجود أعدَّ له مُقوّمات حياته ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء والمياه والهواء ، كل هذه أشياء وُجِدتْ قبل الإنسان ، لِتُهيئ له الوجود في هذا الكون .

والله سبحانه يريد منّا بعد أنْ كفلَ لنا استبقاء الحياة بالرزق ، واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ، يريد منّا إثراء عقائدنا بالنظر في ملكوت الله وما فيه من العجائب؛ لنستدل على أنه سبحانه هندسَ كَوْنه هندسة بديعة متداخلة ، وأحكمه إحكاماً لا تصادم فيه . { لاَ الشمس يَنبَغِي لَهَآ أَن تدْرِكَ القمر وَلاَ اليل سَابِقُ النهار وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : 40] .

فالنظر إلى كَوْن الله الفسيح ، كم فيه من كواكب ونجوم وأجرام . كم هو مليء بالحركة والسكون والاستدارة . ومع ذلك لم يحدث فيه تصادم ، ولم تحدث منه مضرة أبداً في يوم من الأيام . .

الكون كله يسير بنظام دقيق وتناسق عجيب؛ ولكي تتجلى لك هذه الحقيقة انظر إلى صَنْعة الإنسان ، كم فيها من تصادم وحوادث يروح ضحيتها الآلاف .

هذا مَثلٌ مُشَاهَد للجميع ، الطير في السماء . . ما الذي يُمسكها أنْ تقعَ على الأرض؟ وكأن الحق سبحانه يجب أنْ يُلفتنا إلى قضية اكبر : { إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ . . } [فاطر : 41] .

فعلينا أن نُصدِّق هذه القضية . . فنحن لا ندرك بأعيننا جرْم الأرض ، ولا جرْم الشمس والنجوم والكواكب . . نحن لا نقرر على معرفة كل مَا في الكون . . إذن : يجب علينا أن نُصدّق قوْل ربنا ولا نجادل فيه .

وإليكم هذا المثل الذي تشاهدونه كل يوم :

{ أَلَمْ يَرَوْاْ إلى الطير مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السمآء مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الله . . . } [النحل : 79] .

إياك أنْ تقول إنها رَفْرفة الأجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثبّت أجنحته في الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض ، فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى : { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطير فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ . . . } [الملك : 19] .

أي : أنها في حالة بَسْط الأجنحة ، وفي حالة قبْضِها تظل مُعلّقة لا تسقط .
وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور .
إذن : ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هي آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جَوِّ السماء . . فتراه حُراً طليقاً لا يجذبه شيء إلى الأرض ، ولا يجذبه شيء إلى السماء ، بل هو حُرٌّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع ، وينزل إنْ أراد النزول .
فهذه آية مُحسَّة لنستدلّ بها على قدرة الله غير المحسَّة إلا بإخبار الله عنها ، فإذا ما قال سبحانه :

{ إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ . . . } [فاطر : 41] .

آمنا وصَدّقنا .

وقوله تعالى :

{ فِي جَوِّ السمآء . . . } [النحل : 79] .

أي : في الهواء المحيط بالأرض ، والمتأمل في الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسي في ثبات الأشياء في الكون ، فالجبال والعمارات وغيرها . . ما الذي يمسكها أنْ تقع؟
إياك أن تظن أنه الأسمنت والحديد وهندسة البناء . . لا . . بل يمسكها الهواء الذي يحيط بها من كل جانب ، بدليل أنك لو فَرَّغتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فوراً نحو هذا الجانب؛ لأن للهواء ضغطاً ، فإذا ما فرَّغْتَ جانباً منها قَلَّ فيه الضغط فانهارتْ .
فالهواء إذن هو الضابط لهذه المسألة ، وبالهواء يتوازن الطير في السماء ، ويسير كما يهوى ، ويتحرك كما يحب .
ثم يقول تعالى :
{ إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النحل : 79] .
أي : أن الطير الذي يطير في السماء فيه آيات أي عجائب ، عجائب صَنْعة وعجائب خَلْق ، يجب أنْ تتفكَّرُوا فيها وتعتبروا بها .
ولكي نقف على هذه الآية في الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران . . إنه العربي عباس بن فرناس ، أول مَنْ حاول الطيران في الأندلس ، فعمل لنفسه جناحين ، وألقى بنفسه من مكان مرتفع . . فماذا حدث لأول طائر بشرى؟
طار مسافة قصيرة ، ثم هبط على مُؤخرته فكُسرت؛ لأنه نسي أن المسألة ليست مجرد الطيران ، فهناك الهبوط الذي نسي الاستعداد له ، وفاته أن يعمل له (زِمكّي) ، وهو الذيل الذي يحفظ التوازن عند الهبوط .
وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف؟ وكم فيها من أجهزة ومُعدِات قياس وانضباط؟

وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو مُوجّه يُوجّهها ، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير في السماء له جناحان ومقدمة وذيل ، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطلّ محركها . . أو اختلّ توازنها؟!

إذن : الطير في السماء آية تستحق النظر والتدبُّر؛ لنعلمَ منها قدرة الخالق سبحانه .

ويقول تعالى :

{ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } [النحل : 79] .

يؤمنون بوجود واجب الوجود ، يؤمنون بحكمته ودقَّة صنعه ، وأنها لا مثيلَ لها من صنعة البشر مهما بلغتْ من الدقة والإحكام .

ثم يقول الحق سبحانه : { والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن . . } .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (80)

قوله :

{ والله جَعَلَ لَكُمْ مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً . . . } [النحل : 80] .

كلمة سكن مأخوذة من السكون ، والسكون ضد الحركة ، فالبيت نُسمّيه سكناً؛ لأن الإنسان يلجأ إليه ليرتاح فيه من حركة الحياة خارج البيت ، إذن : في الخارج حركة ، وفي البيت سكن .

والسكن قد يكون مادياً كالبيت وهو سكن القالب ، وقد يكون معنوياً ، كما قال تعالى في حَقِّ الأزواج : { خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لتسكنوا إِلَيْهَا . . } [الروم : 21] .

فالزوجة سكَنٌ معنويٌّ لزوجها ، وهذا يُسمّونه سكن القلب .

فإنْ قال قائل :

{ مِّن بُيُوتِكُمْ . . . } [النحل : 80] .

يعني : نحن الذين صنعناها وأقمناها . فكيف جعلها الله لنا؟ .

نقول : وأنت كيف صنعتها؟ ومِمَ بنيْتها؟ صنعتَها من غابٍ أو خشب ، أو بنيْتها من طين أو طوب . . كل هذه المواد من مادةَ الأرض من عطاء الله لك ، وكذلك العقل الذي يُفكّر ويرسم ، والقوة التي تبني وتُشيّد كلها من الله .

إذن : { جَعَلَ لَكُمْ } إما أنْ يكون جَعْلاً مباشراً ، وإما أنْ يكون غير مباشر . . فالله سبحانه جعل لنا هذه المواد . . هذا جَعْل مباشر ، وأعاننا وقوّانا على البناء . . هذا جَعْلٌ غير مباشر .

لكن في أيّ الأماكن تُبنى البيوت؟

البيوت لا تُبنَى إلا في أماكن الاستقرار ، التي تتوفّر لها مُقوّمات الحياة . . فقبل أن نُنظّم مدينة سكنية نبحث أولاً عن مُقوّمات الاستقرار فيها من مأكل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه

وصرف . . إلى آخره .

فإن وجدت هذه المقوّمات فلا مانعَ من البناء هنا . . فإذا لم توجد المرافق في الصحراء ومناطق البدو ، هنا لا يناسبها البيوت والبناء الدائم ، بل يناسبها :

{ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ الأنعام بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ . . } [النحل : 80] . فنرى أهل البدو يتخذون من الجلود بُيُوتاً مثل الخيمة والفسطاط . . حيث نراهم كثيري التنقُّل يبتغون مواطن الكلأ والعشب ، ويرحلون طَلباً للمرعى والماء ، وهكذا حياتُهم دائمة التنقّل من مكان لآخر . . فيناسبهم بيت من جلد أو من صوف أو من وَبَر خفيف الحَمْل ، يضعونه أيْنما حَطُّوا رحالهم ، ويرفعونه أينما ساروا . . والظّعْن هو التنقُّل من مكان لآخر .

إذن : كلمة (سكن) تفيد الاستقرار ، وتُوفِّر كل مُقوِّمات الحياة؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لآدم : { اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة . . } [البقرة : 35] .

أي : المكان الذي فيه راحتكم ، وفي نعيمكم ، فحدّد له مكان إقامة وسكَن . .

ومكان الإقامة هذا قد يكون عَامّاً ، وقد يكون خاصاً ، مثل لو قُلْت : أسكن الإسكندرية . . هذا سكَنٌ عام ، فلو أردتَ السكن الحقيقي الخاص بك لَقُلْتَ : أسكن في شارع كذا ، وفي عمارة رقم كذا ، وفي شقة رقم كذا ، وربما كان لك حجرة خاصة من الشقة هذه .

إذن : هذا سكَنٌ خاص بك . . سكنُك الحقيقي الذي تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتيّ لا يشاركك فيه أحد؛ ولذلك نرى بعض سكان العمارات يشكُون من الإزعاج والضوضاء ، ويتمنوْنَ أن يعيشوا في بيوت مستقلة تُحقّق لهم الراحة الكافية التي لا يضايقهم فيها أحد .

إذن : حينما ننظر إلى السكون . . إلى السكن ، نحتاج المكان الضيق الذي يُحقّق لن الخصوصية التامة التي تصل إلى حجرة ، مجرد حجرة ، ولكنها تعني السكن الحقيقي الخاص بي ، وقد تصل الخصوصية أنْ نجعلَ لكل ولد من الأولاد سريراً خاصاً به في نفس الحجرة .

فإذا ما نظرنا إلى الحركة في الحياة وجدنا الإنسان على العكس يطلب السعة؛ لأن الحركة تقتضي السعة في المكان ، فمَنْ كان عنده مزرعة يطلب عزبة ، ومن كان عنده عزبة يتمنى ثانية وثالثة وهكذا لأن حركة الحياة تحتاج مجالاً واسعاً فسيحاً .

هذا عن النوع الأول ، وهو السكن المادي سكن القالب ، وهو من أعظم نِعَم الله على عباده . . أن يكون لهم سكَن يأوون إليه ، ويرتاحون فيه من عناء وحركة الحياة .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه أن يُعذِّب بني إسرائيل ، أشاع سكنهم في الأرض كلها ، وحرمهم من نعمة السكن الحقيقي الخاص ، فقال تعالى : { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض . . } [الإسراء : 104] .

فالأرض هي المكان العام الذي يسكن فيه كل الناس . . فليس لهم بلد تجمعهم ، بل بدَّدهم الله في الأرض ولم يجعل لهم وطناً ، كما قال في آية أخرى : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . . } [الأعراف : 168] .

حتى في البلاد التي يعيشون فيها تراهم معزولين عن الناس في أماكن خاصة بهم لا يذوبون في غيرهم ، وهكذا سكنوا الأرض ولم تحدد لهم بلد .

أما النوع الثاني من السكن ، وهو السكن المعنوي أو سكن القلب ، فهو سكن الزوج إلى زوجته الصالحة التي تُخفّف عنه عناء الحياة وهمومها ، تبتسم في وجهه إنْ كان مسروراً وتُهدِّيء من غضبه إنْ كان مُغْضَباً ، تحتويه بما لديها من حُب وحنان وإخلاص . . هذا هو السكن المعنوي ، سكن القلب .

وقوله :

{ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَاثاً وَمَتَاعاً إلى حِينٍ } [النحل : 80] .

الأصواف للغنم ، والأوبار للإبل ، والشعر للماعز . . فما الفرْق بين هذه الثلاث في الاستعمال؟

يستعمل الناس كلاً من الصوف والوبر؛ لأن الشُّعيرات فيها دقيقة جداً يمكن نَدْفها وغَزْلها والانتفاع بها في الفُرش والأبسطة والألحفة والملابس وغيرها مما يحتاجه الناس .

أما شعر الماعز فالشعيرات فيه ثخينة لا يمكن نَدْفها أو غَزْلها ، فلا يمكن الانتفاع به في هذه المنسوجات ، وقوله تعالى :

{ أَثَاثاً وَمَتَاعاً إلى حِينٍ } [النحل : 80] .

الأثاث : هو ما يوجد في البيت مما تتطلبه حركة الحياة كالأبسطة والمفارش والملابس والستائر .

والمتاع : هو ما يُستمتع ويُنتفع به . . والفرْق بينهما أن الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغير كثيراً ، أما المتاع فقد يتغير حسب الحاجة .

فأنت مثلاً قد تحتاج إلى تغيير التلفاز القديم لتأتي بآخر حديث ، مُلوّن مثلاً ، لكن قلّما تُغير الثلاجة أو الغسالة مثلاً .

وقوله : { إلى حِينٍ } [النحل : 80] .

لأن الإنسان قد يغتر حين يستوفي متطلبات حياته ، وقد تلهيه هذه النعم عن مطلوب المنعم سبحانه ، فينشغل بالنعمة التي هو فيها عن المنعم الذي أنعم عليه بها . . فتأتي هذه الآية مُحذّرة .

إياك أنْ تغترّ بالمتاع والأثاث؛ لأنها متاع إلى حين . . متاعٌ موقوت لا يدوم ، ومهما استوفيت حظّك منها في الدنيا فإنها صائرة إلى أمرين :

إما أن تفوتها بالموت ، وإما أنْ تفوتَك بالفقر والحاجة . . إذن : هي ذاهبة ذاهبة . . فتذكّروا دائماً قوله تعالى :

{ إلى حِينٍ . . . } [النحل : 80] . فمتاع النعمة موقوت ، لكن متاع المنعِم سبحانه خالد . ثم يقول الحق سبحانه : { والله جَعَلَ لَكُمْ . . . } .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (81)

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار ، ويجدون مُقوّمات الحياة ، وتكلم عن أهل الترحال والتنقُّل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم . ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً ، ولا حتى جلود الأنعام . . ماذا يفعل هؤلاء؟

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظِلّون به من وهج الشمس ، وجعل لهم من الكهوف والسراديب في الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه . وهكذا استوعبتْ الآيات جميع الحالات التي يمكن أن يكون عليها بشر ، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس ، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله .

أما مَنْ لا يملك بيتاً يأويه ، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتاً ، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حَرِّ الشمس ، وجعل له كهوف الجبال تُكِنّه وتأويه .

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرتْ الظل الذي يقينا حَرَّ الشمس ، ولم تذكر مثلاً البرد؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهي بلاد حارة ، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدِّفء .

وقوله :

{ ظِلاَلاً . . } [النحل : 81] .

الظلال جمع ظِل ، وهو الواقي من الشمس ومن إشعاعاتها ، وقد يُوصَف الظل بأنه ظِل ظليل . . أي : الظل نفسه مُظلل ، وهذا ما نراه في صناعة الخيام مَثلاً ، حيث يجعلونه لها سقفاً من طبقة واحدة تتلقّى حرارة الشمس ، وإنْ حجبت أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة ، وهنا يلجأون إلى جَعْل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس .

وهنا نقول : إن الظلّ نفسه مُظلّل ، وكذلك الحال في ظِل الأشجار حيث يظلّل الورق بعضه بعضاً ، فتشعر تحت ظِلّ الأشجار بجوٍّ لطيف بارد حيث يغطيك ظِلٌّ ظليل يحجب عنك ضوء الشمس ، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق .

لذلك فالشاعر يقول في وصف روضة :

وَقَانَا لَفْحَةَ الرمْضَاءِ وَادٍ ... سَقَاهُ مضاعف الغيْثِ العَمِيمِ

يَصُدُّ الشمسَ أَنَّى وَاجهتْنا ... فَيحجُبُها وَيأذنُ للنسِيمِ

وقوله : { أَكْنَاناً . . . } [النحل : 81] .

جمع كِنْ ، وهو الكهف أو المغارة في الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمي بها ، والكِنّ من الستر؛ لأنها تستر الناس ونحن نقول مثلاً للولد : انكنْ يعني : اسكُنْ وانستر .

ويقول تعالى :

{ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ . . . } [النحل : 81] .

السرابيل : هي ما يُلبس من الثياب أو الدروع :

{ تَقِيكُمُ الحر . . . } [النحل : 81] .

أي : تحميكم من الحر . . فقال هنا الحر أيضاً؛ لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية فقال : المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ، ففي الآية اكتفاءٌ بالحر عن البرد؛ لأن الشيء إذا جاء يأتي مقابله . . فليس بالضرورة ذِكر الحالتين ، فإحداهما تعني الأخرى .

هذا دفاع مشكور منهم ، ومعنى مقبول حول هذه الآية .

. لكن لو فَطنَّا إلى باقي الآيات التي تحدثتْ في هذا الموضوع لوجدناها : واحدة تتكلم عن الحر ، وهي هذه الآية ، وأخرى تتكلَّم عن البرد في قوله تعالى : { والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ . . . } [النحل : 5] .

أي : من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد ، وما نستدفئ به . . وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى .

والمتأمل في تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملبوسات لا يعطي للإنسان حرارة تُدفِئه ، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط ، فحرارة الإنسان ذاتية من داخله ، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان .

والأطباء يقولون : إن الجسم السليم حرارته 37 درجة لا تختلف إنْ عاش عند خط الاستواء أو عاش في بلاد الاسكيمو في القطب الشمالي ، فهذه هي الحرارة العامة للجسم .

في حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفتْ درجة حرارتها ، كُلٌّ حَسب ما يناسبه : فالكبد مثلاً درجة حرارته 40 درجة ، وتختلّ وظيفته إذا نقصت عن هذه الدرجة ، في حين أن درجة حرارة جَفْن العين مثلاً 9 درجة ، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبّة العين ، ويفقد الإنسان البصر . . فسبحان الله الذي حفظ حرارة هذه الأعضاء في الجسم لا يطغى أحدها على الآخر .

لذلك حينما سافرنا إلى أمريكا ، وفي إحدى مناطق البرودة الشديدة كانت أول نصائحهم لنا ألاَّ نمسك آذاننا بأيدينا . . لماذا؟ قالوا : لأن درجة حرارة اليد أقلّ من درجة حرارة الأذن ، ووَضْع اليد الباردة على الأذن قد تُسبِّب كثيراً من الأضرار .

إذن : كل ما نستخدمه من ملابس وأعطية تقينا برد الشتاء لا تعطينا حرارة ، بل تحفظ علينا حرارتنا الطبيعية فلا تتسرب ، وبذلك تتم التدفئة . . وتستطيع أنْ تضعَ يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً ، أما في الصباح فتجده دافئاً . . فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك ، وليس العكس .

وقوله :

{ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ . . . } [النحل : 81] .

البأس هنا : أي الحرب ، والسرابيل التي تقي من البأس هي الدروع التي يلبسها الجنود في الحرب لتقيهم الضربات .

ولكن هذه الآية في سياق الحديث عن بعض نِعَم الله علينا في الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال . . حياة دَعَة وسلام ونعمة ، فما الداعي لذكر الحرب هنا؟

ذلك لأن الحياة لها منطق سلامة للجميع ، فإن اختلّ منطق السلامة فعلى الناس أنْ يقفوا في وجه مَنْ يُخِلّ بسلامة المجتمع . . وأن يكون على استعداد لذلك في كل وقت ، لا بُدّ في وقت السِّلْم أنْ نَعُدَّ العُدّة للحرب؛ لذلك تحدث عن الحرب وعُدتها ، وهو يتحدث عن السكون والاستقرار والنعمة .

والحق سبحانه وتعالى حين يُنزِل الآيات البينات التي تحمل لنا منهج السماء يقول : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبينات وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكتاب والميزان لِيَقُومَ الناس بالقسط . . . } [الحديد : 25] .

هذا هو المنهج الذي يعتمد على الحجة والإقناع . . فإن لم يصلح هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر ، يقول تعالى :

{ وَأَنزَلْنَا الحديد فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ . . } [الحديد : 25] .

وقوله :

{ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ . . . } [النحل : 81] .

كأن من تمام نعمة الله أنْ نحفظها ممنْ يُفسدها علينا ، ونقف له بالمرصاد ونضرب على يده؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسدين في مجتمعنا فسوف يُفسِدون علينا هذه النِّعم ، وسنظل مُهددّين ، لا نشعر بلذة الحياة ومُتعِها .

إذن : لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع .

وقوله : { لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ . . } [النحل : 81] .

تُسلِمون : أي تُلْقون زمام الاستسلام إلى الله الذي أسلمتَ له ، وأنت لاَ تُلقي زمامك إلا لمنْ تثق فيه . . والإنسان قد يُلقي زمامه في أمر لا يجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر ، فإذا كنتَ في حاجات نفسك تُلقي زمامك لمن هو مثلك ، ويساويك في قِلّة المعلومات ، ويساويك في قِلّة

الحكمة ، ومع ذلك تُسلِم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت ، أفلا تُلقي زمامك وتُسلِم أمرك إلى ربك وخالقك ، وخالق كُلِّ هذه النعم من أجلك؟

إذن : جاء ذِكْر هذه النعم ، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى نُسلمَ عن يقين واقتناع ، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة في طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، إنْ أطعناه فلن نزيد في مُلْكِه سبحانه ، وإنْ عصيناه فلن ننقصَ من مُلْكه سبحانه .

إذن : تسليمنا الأمر والزمام لله من مصلحتنا نحن . . فالإنسان حينما يُسلِم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تَلْوي رَأْيه في المسألة ، إنما ربُّنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكْماً فليس له مصلحة فيه فلا يُلْوَى ، لا يكون إلاّ لصالحك .

وبعد أنْ عدّد هذه النعم في الذات والمحيطات وفي السكن وفي الانطباعات . قال : إياك بعد ذلك أن تُسلِمَ زمامك لغيري ، وإنْ أجريتُ عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة؛ لأنني لا أجري عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه .

لذلك نقول : لا عبادة كالتسليم؛ لأن التسليم لحُكْمِه تسليمٌ لحكيم ، تسليمٌ لغير منتفع . . وما دُمْتَ قد سلمْتَ زمامك لربك عز وجل يُجلِّي لك الحكمة فيما جرى لك من الأحداث لتعلمَ رضاك عن حُكْمه لحكمته ، فتقول : أنا رضيتُ بحكمك يا رب .

ولذلك نقول في الدعاء : أحمدك على كُلِّ قضائك ، وجميع قَدرِك حَمْد الرِّضا بحكمك لليقين بحكمتك .

أي : لك حكمة يارب فيما أجريتَ عليَّ من أحداث ، ولكني لا أراها .

والذي يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط؛ لأنه بذلك يُطيل على نفسه أمدَ القضاء؛ لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به ، فالله تعالى لا مُجبر له .

فإن أردت رَفْع القضاء فارْضَ به أولاً ، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضى من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضَجِراً .

فالذي يُسلم زَمامه إلى الله ويردّ كل حدث وقع أو بلاء نزل بهِ يردُّه إلى الله ، وإلى حكمة مُجريه ، الله تعالى يقول له : لقد فهمتَ عني ، ويرفع عنه البلاء .

وفي مقام التسليم لله دائماً نذكر قصة سيدنا إبراهيم حينما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل عليهما السلام . . وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبتلَى الرجل بذبح ولده الذي رُزِقه على كِبَر ، ويذبحه هو بيده .

إنه ابتلاء من مراتب مُتعدِّدة ، ومن نَواحٍ مختلفة ، وليْتَ الأمر بوحي ظاهر ، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأوَّل فيه ، ولكن رؤيا الأنبياء حق .

ونرى إبراهيم عليه السلام يقصُّ على ولده المسألة حِرْصاً عليه أنْ يتحوّل قلبه عن أبيه ساعةَ يأخذه ليذبحه ، وأيضاً لكي يشاركه ولده في الرضا بقدر الله ، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء . .

فقال له : { إني أرى فِي المنام أَنِّيَ أَذْبَحُكَ . . . } [الصافات : 102] .

فليس الغرض هنا أنْ يزعجه أو يُخيفه ، ولكن ليقول له : هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضاً ، ولا يتغير قلبه على أبيه .

ولذلك كان الولد حكيماً في الرد ، فقال : { قَالَ ياأبت افعل مَا تُؤمَرُ . . } [الصافات : 102] .

ما دام الأمر من الله فافعل ، وهكذا سلّم إسماعيلُ كما سلَّم إبراهيم ، فقال تعالى : { فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ } [الصافات : 103] .

أسلما : أي الأب والابن ، ورَضيا بقضاء الله ، جاء الفرج ورُفِع القضاء ، فقد فهم كل منهما الأمر عن الله ، فلم يرفع القضاء وفقط ، بل وفديناه بذبح عظيم ، ليس هذا وفقط ، بل ومنّنا عليه بولد آخر : { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ } [الصافات : 112] .

إذن : لعلكم تُسْلِمون زمامكم إلى الله ، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجِدكم فيه ، وأمدّكم بكل متطلبات الحياة ضماناً لبقاء حياتكم ، وضماناً لبقاء نوعكم ، ومتَّعكم هذه المتع .

فالذي أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جديرٌ أنْ تُسلِموا له زمام أمركم وتُسلموا له .

ثم يقول الحق سبحانه : { فَإِن تَوَلَّوْاْ . . . } .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (82)

أي : لا تحزن يا محمد إذا أعرض قومك ، فلست مأموراً إلا بالبلاغ ، ويخاطبه الحق سبحانه في آية أخرى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : 3] .

أي : مهلكها . وقال تعالى : { إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 4] .

لكن الدين لا يقوم على السيطرة على القالب ، وفَرْق بين السيطرة على القالب والسيطرة على القلب ، فيمكنك بمسدس في يدك أنْ تُرغمني على ما تريد ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبي على شيء لا يؤمن به ، والله يريد مِنّا القلوب لا القوالب ، ولو أراد مِنّا القوالب لجعلها راغمة خاضعة لا يشذّ منها واحد عن مراده سبحانه .

ولذلك حينما أرسل الله سليمان عليه السلام وجعله ملكاً رسولاً لم يقدر أحد أن يقف في وجهه ، أو يعارضه لما له من السلطان والقوة إلى جانب الرسالة . . أمّا الأمر في دعوته صلى الله عليه وسلم فقائم على البلاغ فقط دون إجبار .

وقوله : { البلاغ المبين } [النحل : 82] .

أي : البلاغ التام الكامل الذي يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها ، فقد جاء المنهج الإلهي شاملاً للحياة بداية بقول : لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق ، فلم يترك شيئاً إلا حدّثنا فيه ، فهذا بلاغ مبين محيط لمصالح الناس . . فلا يأتي الآن مَنْ يتمحّك ويقول : ربنا ترك كذا أو كذا . . فمنهج الله كامل ، فلو لم تأخذوه ديناً لوجب عليكم أن تأخذوه نظاماً .

ونرى الآن الأمم التي تُعادي الإسلام تتعرّض لمشاكل في حركة الحياة لا يجدون لها حَلاًّ في قوانينهم ، فيضطرون لحلول أخرى تتوافق تماماً أو قريباً من حَلّ القرآن ومنهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله . . } .

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (83)

وقد حكى القرآن عنهم في آيات أخرى : { وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله فأنى يُؤْفَكُونَ } [الزخرف : 87] .

وقال عنهم : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ . . . } [النمل : 14] .

ذلك لأنهم يعلمون تماماً أن الله خلقهم ، وأنه خلق السموات والأرض . . يعلمون كل نِعَم الله عليهم ، ومع ذلك يُنكرونها ويجحدونها . . لماذا؟

لأن الإيمان بالله والاعتراف بنعمه مسألة شاقة عليهم ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها . . ما أسهل أنْ يقولوا « لا إله إلا الله » لكنهم يعلمون أن : لا إله إلا الله لها مطلوبات ، فما دام لا إله إلا الله ، فلا يُشرِّع إلا الله ، ولا يأمر إلا الله ، ولا يَنْهى إلا الله ، ولا يُحِلُّ إلا الله ، ولا يُحرِّم إلا الله .

إذن : مطلوبات لا إله إلا الله جعلتهم في قالب من حديد ، منضبطين بمنهج يهدم سيادتهم ، ويمنع الطغيان والجبروت ، منهج يُسوِّي بين السادة والعبيد .

إذن : الدين الحق يُقيِّد حركتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، فتراهم يعرفون الله ولا يؤمنون به؛ لأنهم يعلمون مطلوبات لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإلا لو كانت مجرد كلمة لقالوها .

وقوله :

{ وَأَكْثَرُهُمُ الكافرون } [النحل : 83] .

بعض العلماء يقولون : أكثرهم يعني كلهم . . لا . . بل هذا أسلوب قرآني لصيانة الاحتمال وللاحتياط للقلة التي تفكر في الإسلام ويراودها أمر هذا الدين الجديد من هؤلاء الكفار ، لا بُدَّ أنْ نُراعي أمر هذه القلة ، ونترك لهم الباب مفتوحاً ، فالاحتمال هنا قائم . .

فلو قال القرآن : كلهم كافرون لتعارض ذلك مع هؤلاء الذين يفكرون في أنْ يُسلِموا . . وكذلك

مراعاة لهؤلاء الذين لم يبلُغوا حَدَّ التكليف من أبناء الكفار .

إذن : قوله { وَأَكْثَرُهُمُ } تعبير دقيق ، فيه ما نُسميّه صيانة الاحتمال .

ثم يقول تعالى : { وَيَوْمَ نَبْعَثُ . . } .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (84)

الحق تبارك وتعالى يُنبّهنا هنا إلى أن المسألة ليست ديناً ، وتنتهي القضية آمن مَنْ آمن ، وكفر مَنْ كفر . . إنما ينتظرنا بعث وحساب وثواب وعقاب . . مرجع إلى الله تعالى ووقوف بين يديه ، فإنْ لم تذكر الله بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للقائك به لاحقاً .

والشهيد : هو نبيُّ الأمة الذي يشهد عليهم بما بلّغهم من منهج الله .

وقال تعالى في آية أخرى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى الناس وَيَكُونَ الرسول عَلَيْكُمْ شَهِيداً . . . } [البقرة : 143] .

فكأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعطاها الله أمانة الشهادة على الخَلْق لأنها بلغتهم ، فكل مَنْ آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم مطلوب منه أن يُبلّغ ما بلَّغه الرسول ، ليكون شاهداً على مَنْ بلغه أنه بلَّغه :

{ ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ . . } [النحل : 84] .

فحينما يشهد عليهم الشهيد لا يُؤْذَن لهم في الاعتذار ، كما قال تعالى في آية أخرى : { وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ } [المرسلات : 36] .

أو حينما يقول أحدهم : { رَبِّ ارجعون * لعلي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ . . } [المؤمنون : 99-100] .

فلا يُجَاب لذلك؛ لأنه لو عاد إلى الدنيا لفعل كما كان يفعل من قبل ، فيقول تعالى : { وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ . . . } [الأنعام : 28] .

وقوله :

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ . . } [النحل : 84] .

يستعتبون : مادة استعتب من العتاب ، والعتاب مأخوذ من العَتْب ، وأصله الغضب والموجدة تجدها على شخص آخر صدر منه نحوك ما لم يكن مُتوقّعاً منه . . فتجد في نفسك موجدة وغضباً على مَنْ أساء إليك .

فإن استقرّ العَتْب الذي هو الغضب والموجدة في النفس ، فأنت إمّا أنْ تعتب على مَنْ أساء إليك وتُوضّح له ما أغضبك ، فربما كان له عُذْر ، أو أساء عن غير قصد منه ، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك . . فنقول : عتَب فلان على فلان فأعتبه ، أي : أزال عَتْبه .

والإنسان لا يُعاتب إلا عزيزاً عليه يحرص على علاقته به ، ويضعه موضعاً لا تتأتى منه الإساءة ، ومن حقه عليك أن تعاتبه ولا تدعْ هذه الإساءة تهدم ما بينكما .

إذن : معنى :

{ وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ } [النحل : 84] .

أي : لا يطلب أحد منهم أنْ يرجعوا عما أوجب العَتْب وهو كفرهم . . فلم يَعُد هناك وقت لعتاب؛ لأن الآخرة دار حساب ، وليست دار عمل أو توبة . . لم تَعُدْ دارَ تكليف .

ويقول الحق تبارك وتعالى : { وَإِذَا رَأى الذين ظَلَمُواْ . . . } .

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (85)

{ رَأى الذين ظَلَمُواْ العذاب . . . } [النحل : 85] .

كأن العذاب سيُنصب أمامهم ، فيرونه قبل أن يباشروه ، وهكذا يجمع الله عليهم ألواناً من العذاب؛ لأن إدراكات النفس تتأذى بالمشاهدة قبل أنْ تألم الأحاسيس بالعذاب؛ لذلك قال :

{ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ . . } [النحل : 85] .

وقوله : { وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ } [النحل : 85] .

أي : لا يُمْهَلُون ولا يُؤجّلون .

ويقول الحق سبحانه : { وَإِذَا رَأى الذين أَشْرَكُواْ . . . } .

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (86)

ذلك حينما يجمع الله المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس والجن والأصنام ، وكل مَنْ أشركوه مع الله وَجْهاً لوجه يوم القيامة ، وتكون بينهما هذه الواجهة . . حينما يرى المشركون شركاءهم الذين أضلّوهم وزيّنوا لهم المعصية ، وزيّنوا لهم الشرك والكفر بالله . . يقولون : هؤلاء هم سببُ ضلالنا وكُفْرنا . . كما قال تعالى عنهم في آية أخرى : { إِذْ تَبَرَّأَ الذين اتبعوا مِنَ الذين اتبعوا وَرَأَوُاْ العذاب وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب } [البقرة : 166] .

ويقول تعالى : { يَقُولُ الذين استضعفوا لِلَّذِينَ استكبروا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ } [سبأ : 31] .

وقوله :

{ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ القول . . . } [النحل : 86] .

أي : ردُّوا عليهم بالمثل ، وناقشوهم بالحجة ، كما قال تعالى في حَقِّ الشيطان . { وَمَا كَانَ لِيَ

عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . } [إبراهيم : 22] .

إذن : ردّوا عليهم القول : ما كان عليكم سلطان . نحن دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا قوة تُرغمكم على الفعل ، ولا حُجّة تُقنعكم بالكفر؛ ولذلك يتهمونهم بالكذب :

{ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ } [النحل : 86] .

أي : كاذبون في هذه الدعوى .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَلْقَوْاْ إلى الله . . . } .

وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (87)

السَّلَم : أي الاستسلام . . فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهْلة ، تعمل أو لا تعمل . إنما الآن { لِّمَنِ الملك اليوم } ؟ الأمر والملك لله ، وما داموا لم يُسلِّموا طواعية واختياراً ، فَلْيُسلّموا له قَهْراً ورَغْماً عن أنوفهم .

وهنا تتضح لنا مَيْزة من مَيْزات الإيمان ، فقد جعلني استسلم لله عز وجل مختاراً ، بدل أنْ استسلمَ قَهْراً يوم أنْ تتكشّف الحقيقة على أنه لا إله إلا الله ، وسوف يُواجهني سبحانه وتعالى في يوم لا اختيار لي فيه .

وقوله :

{ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [النحل : 87] .

كلمة : الضلال تردُ بمعانٍ متعددة ، منها : ضلَّ أي غاب عنهم شفعاؤهم ، فأخذوا يبحثون عنهم فلَم يجدوهم ، ومن هذا المعنى قوله تعالى : { أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأرض أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . . } [السجدة : 10] .

أي : يغيبوا في الأرض ، حيث تأكل الأرض ذرّاتهم ، وتُغيّبهم في بطنها . . وكذلك نقول : الضالة أي الدابة التي ضلَّتْ أي : غابتْ عن صاحبها .

ومن معاني الضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى : { أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى . . } [البقرة : 282] .

ومن معانيه : التردد ، كما في قوله تعالى : { وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى } [الضحى : 7] .

فلم يكُنْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم منهج ثم تركه وانصرف عنه وفارقه ، ثم هداه الله . . بل كان صلى الله عليه وسلم مُتحيّراً مُتردّداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقول الراجحة من أفعال تتنافى مع العقل السليم والفطرة النَّيرة ، فكانت حيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها .

فقوله :

{ وَضَلَّ عَنْهُم . . } [النحل : 87] .

أي : غاب عنهم :

{ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ } [النحل : 87] .

أي : يكذبون من ادعائهم آلهة وشفعاءَ من دون الله .

ثم يقول الحق سبحانه : { الذين كَفَرُواْ . . } .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (88)

هنا فرْق بين الكفر والصَّدِّ عن سبيل الله ، فالكفر ذنب ذاتيّ يتعلق بالإنسان نفسه ، لا يتعدّاه إلى غيره . . فَاكفُرْ كما شئت والعياذ بالله أنت حر!!

أما الصدُّ عن سبيل الله فذنبٌ مُتعدٍّ ، يتعدَّى الإنسان إلى غيره ، حيث يدعو غيره إلى الكفر ، ويحمله عليه ويُزيّنه له . . فالذنب هنا مضاعف ، ذنب لكفره في ذاته ، وذنب لصدّه غيره عن الإيمان ، لذلك يقول تعالى في آية أخرى : { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . . } [العنكبوت : 13] .

فإنْ قال قائل : كيف وقد قال تعالى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى . . } [الأنعام : 164] .

نقول : لا تعارضَ بين الآيتين ، فكل واحد سيحمل وزْره ، فالذي صَدَّ عن سبيل الله يحمل وِزْرَيْن ، أما مَنْ صدَّه عن سبيل الله فيحمل وِزْر كفره هو .

وقوله :

{ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب . . } [النحل : 88] .

العذاب الأول على كفرهم ، وزِدْناهم عذاباً على كفر غيرهم مِمَّنْ صدُّوهم عن سبيل الله .

ولذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة » .

فإياك أنْ تقعَ عليك عيْن المجتمع أو أُذنه وأنت في حال مخالفة لمنهج الله؛ لأن هذه المخالفة ستؤثر في الآخرين ، وستكون سبباً في مخالفة أخرى بل مخالفات ، وسوف تحمل أنتَ قِسْطاً من هذا . . فأنت مسكين تحمل سيئاتك وسيئات الآخرين .

وقوله :

{ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ } [النحل : 88] .

والإفساد : أنْ تعمدَ إلى شيء صالح أو قريب من الصلاح فتُفسده ، ولو تركتَه وشأنه لربما يهتدي إلى منهج الله . . إذن : أنت أفسدتَ الصالح ومنعت القابل للصلاح أن يُصلح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي . . . } .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89)

قوله :

{ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ . . } [النحل : 89] .

يعني من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعَاة والوعاظ والأئمة الذين بلّغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون أمام الله سبحانه على مَنْ قصّر في منهج الله .

وقد يكون معنى :

{ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ . . } [النحل : 89] .

أي : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24] .

وقوله : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا . . . } [فصلت : 21] .

والشهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شكَّ أن حجته قوية وبيّنته واضحة .

وقوله :

{ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً على هؤلاءآء } [النحل : 89] .

أي : شهيداً على أمتك كأنه صلى الله عليه وسلم شهيد على الشهداء .

{ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ . . } [النحل : 89] .

الكتاب : القرآن الكريم . . تبياناً : أي بياناً تاماً لكل ما يحتاجه الإنسان ، وكلمة (شيء) تُسمّى جنس الأجناس . أي : كل ما يُسمّى « شيء » فبيانُه في كتاب الله تعالى .

فإنْ قال قائل : إنْ كان الأمر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن يجتهدوا لِيُخرجوا لنا حُكْماً مُعيّناً؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً في الأصول ، وقد أعطى الحق تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حق التشريع ، فقال تعالى : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . } [الحشر : 7] .

إذن : فسُنة الرسول صلى الله عليه وسلم قَوْلاً أو فِعْلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ، وهي شارحة له ومُوضّحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين هذا في كتاب الله؟ نقول في قوله تعالى : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ . . . } [الحشر : 7] . « وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل رضي الله عنه قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكانياته في القضاء . فسأله : » بِمَ تقضي؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإنْ لم تجد؟ قال : فبُسنة رسول الله ، قال : فإنْ لم تجد؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو أي لا أُقصّر في الاجتهاد .

فقال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذي وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضي الله ورسوله » .
إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نصّ فيها ، لا في الكتاب ولا في السنة ، فقد أبيح لنا الاجتهادُ فيها .
ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده رحمه الله حُدِّث عنه وهو في باريس أن أحد المستشرقين قال له : أليس في آيات القرآن : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ . . } [الأنعام : 38] .
قال : بلى ، قال له : فهات لي من القرآن : كم رغيفاً يوجد في أردب القمح؟
فقال الشيخ : نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال . . فقال المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذي ما فرط في شيء ، فقال الشيخ : هذا القرآن هو الذي علَّمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر فقال :

{ فاسئلوا أَهْلَ الذكر إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ } [الأنبياء : 7] .
إذن : القرآن أعطاني الحجة ، وأعطاني ما أستند إليه حينما لا أجد نصاً في كتاب الله ، فالقرآن ذكر القواعد والأصول ، وأعطاني حَقَّ الاجتهاد فيما يعِنّ لي من الفروع ، وما يستجدّ من قضايا ، وإذا وُجِد في القرآن حكم عام وجب أن يُؤخذ في طيّه ما يُؤخذ منه من أحكام صدرت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله وكله .
فقال : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . } [الحشر : 7] .
وكذلك الإجماع من الأمة؛ لأن الله تعالى قال : { وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمنين نُوَلِّهِ مَا تولى . . } [النساء : 115] .
وكل اجتهاد يُرَدُّ إلى أهل الاجتهاد : { وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِي الأمر مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ . . } [النساء : 83] .
إذن : فكلّ ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الإجماع وعن الأئمة المجتهدين موجود في القرآن ، فهو إذن صادق .
ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فهي كثيرة ، فما الذي يتعرّض له القرآن؟ يتعرض القرآن للأحكام التكليفية المطلوبة من العبد الذي آمن بالله ، وهناك أمور كونية لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأنْ يعلمها ، فهو ينتفع بها سواء علمها أو جهلها ، فكوْنُ الأرض كُروية الشكل ، وكَوْنها تدور حول الشمس ، وغير هذه الأمور من الكونيات إنْ علمها فبها ونعمتْ ، وإنْ جهلها لا يمنعه جهله من الانتفاع بها .
فالأُميّ الذي يعيش في الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيئاً عن طبيعتها وكيفية عملها ، ومع ذلك ينتفع بها ، مجرد أن يضع أصبعه على زِرّ الكهرباء تُضيء له .
فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانةً واضحة ربما صَدَّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً

عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مقاصد القرآن حول الآيات الكونية؛ ولذلك سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأهِلّة ، كما حكى القرآن الكريم : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهلة . . } [البقرة : 189] .

والأهلة : جمع هلال ، وهو ما يظهر من القمر في بداية الشهر حيث يبدو مثل قلامة الظفر ، ثم يزداد تدريجياً إلى أنْ يصل إلى مرحلة البدر عند تمام استدارته ، ثم يتناقص تدريجياً أيضاً إلى أنْ يعودَ إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف رَدَّ عليهم القرآن؟ لم يُوضح لهم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الأرض إذا حالتْ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية؛ لذلك يقول لهم : اصرفوا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه في الأهلة :

{ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والحج . . } [البقرة : 189] .

فردّهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدي ، فاهتمّ ببيان الحكمة منها ، وفي نفس الوقت ترك هذه المسألة للزمن يشرحها لهم ، حيث سيجدون في القرآن ما يُعينهم على فَهْم هذا الموضوع .

إذن : قوله تعالى : { مِن شَيْءٍ . . } [الأنعام : 38] .

أي : من كل شيء تكليفيّ ، إنْ فعله المؤمن أثيب ، وإنْ لم يفعله يُعاقب ، أما الأمور الكونية فيعطيهم منها على قدر وَعْيهم لها ، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد .

لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله في القرآن الذي نزل فيه ، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء ، فالعقول تتفتّح على مَرِّ العصور وتتفتّق عن فكر جديد ، ولا يصح أنْ يظلَّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد ، لا بُدَّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتقاءات البشر في علومه الكونية . « والرسول صلى الله عليه وسلم حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، أي : يُلقّحونه . وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب ، حيث يأخذون من الذكر ويضعون في الأنثى ، فماذا قال لهم؟ قال : لو لم تفعلوا لأثمر ، ففي الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل ، فلما سئل صلى الله عليه وسلم قال : » أنتم أعلم بشئون دنياكم « .

فهذا أمر دنيوي خاضع للتجربة ووليد بَحْث معمليّ ، وليس من مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم توضيح هذه الأمور التي يتفق فيها الناس وتتفق فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التي تختلف فيها الأهواء فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً في العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات والاستنباطات التي تُسخر أسرار

الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف الناس حول مُعْطيات هذه الموجة المادية؟ هل نقول مثلاً : هذه كهرباء أمريكاني ، وهذه كهرباء روسي؟ هل نقول : هذه كيمياء إنجليزي ، وهذه كيمياء ألماني؟

فهذه مسألة وليدة المعمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، في حين نجدهم يختلفون في أشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية . . الخ ، فجاء الدين ليحسمَ ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك نرى كل معسكر يحاول أنْ يسرقَ ما توصَّل إليه المعسكر الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليتابعوا أحداث ما توصّل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً؟ لا . . بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكي لا تنتقل هذه المبادئ إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنيهم .

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح في حَقّ رسول الله أن يُشير على الناس بشيء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أنْ يُؤصّل قاعدة في نفوس المتكلمين في شئون الدين : إياكم أنْ تُقحِموا أنفسكم في الأمور المادية المعملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوي فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كُروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم في قضية لا دَخْل للدين فيها ، وقد حذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كُروية فعلاً؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غَلْقه .

وقوله تعالى :

{ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل : 89] .

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدىً) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضي أن يقول : وهادياً ، لكن لم يَصف القرآن بأنه هادٍ ، بل هُدىً ، وكأنه نفس الهدى؛ لأن هادياً ذاتٌ ثبت لها الهداية ، إنما هُدى : يعني هو جوهر الهدى ، كما نقول : فلان عادل . وفي المبالغة نقول : فلان عَدْل . كأن العَدْل مجسّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى : { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ } [يوسف : 76] .

فما معنى الهدى؟ هو الدلالة على الطريق الموصّل للغاية من أقرب الطرق .

{ وَرَحْمَةً } مرّة يُوصَف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه : { شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ } [الإسراء : 82] .

والشفاء : أن يُوجد داء يعالجه القرآن ، والرحمة : هي الوقاية التي تمنع وجود الداء ، وما دام القرآن كذلك فمَنْ عمل بمنهجه فقد بُشِّر بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد في نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ الله يَأْمُرُ . . . } .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)

للحق تبارك وتعالى في هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذي القُرْبى . وثلاثة نَواهٍ : عن الفحشاء والمنكر والبغي . ولما نزلت هذه الآية قال ابن مسعود : أجمعُ آيات القرآن للخير هذه الآية لأنها جمعتْ كل الفضائل التي يمكن أن تكون في القرآن الكريم .

« ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب له أن يُسلِم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحب عَرْض الإسلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشِيَماً تحسن في الإسلام .

وكأنه صلى الله عليه وسلم ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون في غير مسلم ، لذلك كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث في الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول صلى الله عليه وسلم في مجلس ، فرآه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون : ما حدث يا رسول الله؟ فقال : إن جبريل عليه السلام قد نزل عليَّ الساعة بقول الله تعالى :

{ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : 90] .

قال ابن مظعون رضي الله عنه : فاستقر حبُّ الإيمان في قلبي بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون في هذه الآية قال : يا معشر قريش آمِنُوا بالذي جاء به محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق » .

« ويُروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ، وكان معه أبو بكر وعلي ، قال علي : فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة ، فأقبل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان ابن ثعلبة فقال : إلى أي شيء تدعونا يا أخا قريش؟ فقال صلى الله عليه وسلم :

{ إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل والإحسان وَإِيتَآءِ ذِي القربى وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : 90] .

فقال مقرون : إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، أفِكتْ قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك » .

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبي جهل ، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له : إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا ، فأفكر الوليد بن المغيرة أي : فكَّر فيما سمع وقال : والله إن له لحلاوةً ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما هو بقول بشر .

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن ، فقالوا : حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر .

وهكذا دخلتْ هذه الآيةُ قلوبَ هؤلاء القوم ، واستقرتْ في أفئدتهم؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ ، دعَتْ لكل خير ، ونَهَتْ عن كل شر .

قوله : { إِنَّ الله يَأْمُرُ بالعدل . . } [النحل : 90] .

ما العدل؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمِّي الحاكم العادل مُنْصِفاً؛ لأنه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه ، وكأنه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعِل الميزان ، والميزان تختلف دِقّته حَسْب الموزون ، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلّ زيادة في الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً في الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر في كل أقضية الحياة من القمة في شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب في أمور التكليف كلها ، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب ، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح في حركة الحياة .

فكيف يكون العدل في الأمور العقدية؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود إله في الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة ، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء ، فجاء العدل في الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنزّه عَمّا يُشبه الحوادث ، كما وقف موقفَ العدل في صفاته سبحانه وتعالى .

فلله سَمْع ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا ننفي عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطّلة ، ولا نُشبّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة ، بل نقول : ليس كمثله شيء ، ونقف موقف العَدْل والوسطية .

كذلك من الأمور العقدية التي تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار

موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه في أعمال العبد؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً . ومن يقول : لا؛ بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها .

فيأتي الإسلام بالعدالة والوسطية في هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التي خلقها الله فيه للاختيار .

وفي التشريع والأحكام حدث تبايُن كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام في القصاص مثلاً : في شريعة موسى حيث طغتْ المادية على بني إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام : { أَرِنَا الله جَهْرَةً . . } [النساء : 153] .

فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم القِصَاص ولا بُدَّ ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكَثُر فيهم القتل ، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع : مَنْ قتَل يُقتلُ ، والقتل أنْفى للقتل .

وقد تعدّى بنو إسرائيل في طلبهم رؤية الله ، فكوْنُك ترى الإله تناقض في الألوهية؛ لأنك حين تراه عينُك فقد حددّتَه في حيّز .

إذن : كونه لا يرى عَيْن الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع في رؤيته جَلَّ وعلاَ ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التي بين جَنْبي كل مِنّا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها في الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكّر ، وبها نعيش ، أين هي؟!

فإذا ما فارقتْ الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس في مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح؟ هل سمعتها؟ هل أدركتها بأي حاسّة من حواسِّك؟!

فإذا كانت الروح وهي مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمَنْ خلق هذه الروح؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تُدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنًى من المعاني التي يدّعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها ، هذا الحق ما شَكْله؟ ما لونه؟ طويل أم قصير؟! فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع في رؤيته؟!

ومن إسراف بني إسرائيل في المادية أن جعلوا لله تعالى في التلمود جماعة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قاعداً على صخرة يُدلي رِجْليْه في قصعة من المرمر ، ثم أتى حوت . . الخ . . سبحان الله؛ أهذا الحدِّ وصلتْ بهم المادية؟

ومن هنا كان الكون في حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هي أيضاً مُسرفة في الروحانية ليحدث نوع من التوازن في الكون ، فجاءت شريعة عيسى عليه السلام بعد مادية مُفْرطة وإسراف في الموسَوية ، فكيف يكون حُكْم القصاص فيها وهي تهدف إلى أنْ تسموَ بروحانيات الناس؟

جاءت شريعة عيسى عليه السلام تُهدّيء الموقف إذا حدث قتل ، فيكفي أن قُتِل واحد ولنستبقي الآخر ولا نثير ضجّة ، ونهيج الأحقاد والترة بين الناس ، فدَعَتْ هذه الشريعة إلى العفو عن القاتل .

ثم جاء الإسلام ووقف موقف العدل والوسطية في هذا الحكم ، فأقرّ القصاص ودعا إلى العفو ، فأعطى وليَّ المقتول حَقّ القصاص ، ودعاه في نفس الوقت إلى العفو في قوله تعالى : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . . } [البقرة : 178] .

ونلاحظ هنا أن القرآن جعلهم إخوة لِيُرقّق القلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص في الإسلام حكَم عالية ، فليس الهدف منه أن يُضخّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب } [البقرة : 179] .

فمن أراد أنْ يحافظَ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينما يُعطي ربُّنا تبارك وتعالى حقَّ القصاص لوليّ المقتول ويُمكّنه منه تبردُ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر في العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الغِلَّ من الصدور ويُطفِيء نار الثأر بين الناس .

ولذلك نرى في بعض البلاد التي تنتشر فيها عملية الثأر يأتي القاتل حاملاً كفنه على يده إلى وليّ المقتول ، ويضع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : هاأنا بين يديْك اقتلني وهذا كفني .

ما حدث ذلك أبداً إلا وعفا صاحب الحق ووليّ الدم ، وهذا هو العدل الذي جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من وليّ الدم أداةُ بِنَاء ، ووسيلة محبة ، فحين نعطيه حَقّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصبحت حياة القاتل هبةً من وليّ الدم ، فكأنه استأثره واستبقاه بعفوه عنه ، وهذا جميل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حَقَن دم ابننا .

موقف آخر لعدالة الإسلام ووسطيته نراها في حُكْم الحيض مثلاً ، ففي شريعة موسى عليه السلام يُخرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفي شريعة عيسى عليه السلام لا مانع من وجودها في البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل في هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض في بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى : { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ المحيض قُلْ هُوَ أَذًى فاعتزلوا النسآء فِي المحيض وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ الله إِنَّ الله يُحِبُّ التوابين وَيُحِبُّ المتطهرين } [البقرة : 222] .

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية في حياتنا ، والتي هي عصب الحياة ، والتي بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والمَلْبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكُل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث في المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يَخدمني به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذي تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتُراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ في حركة الحياة واكتسبتَ المال الذي هو عصبُ الحياة فعليك أن تُوازنَ بين متطلباتك العاجلة وآمالك في المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبت في نفقاتك الحاضرة فقد ضيَّعتَ على نفسك تحقيق الآمال في المستقبل ، فلن تجد ما تبني به بيتاً مثلاً أو تشتري به سيارة ، أو ترتقي بمستواك ببعض كماليات الحياة . وهذا ما نسميه الإسراف .

وفي المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء ، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسِك الرمَق؛ لأنك في هذه الحالة لن تساهم في عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً في بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً في قوله تعالى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً }

[الإسراء : 29] .

أي : لا تُمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون ملُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقَّق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقّى هو في حياته وأنت مُعْدم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدّخر جُزْءاً من كَسْبك يمكنك أن ترتقي به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى : { إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين } [الإسراء : 27] .

وقال : { والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [الفرقان : 67] .

إذن : فالعَدْل أمر دائر في كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عَقَدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال في حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْر الأمور الوسط .

وقوله : { والإحسان . . } [النحل : 90] .

ما الإحسان؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك ، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى : { فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ . . } [البقرة : 194] .

وقوله : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . } [النحل : 126] .

فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحق ، وأنْ تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ، عملاً بقوله تعالى : { والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين } [آل عمران : 134] .

والناس في الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستِعداده الخُلقي .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كَظْم القِرْبة المملوءة ، فالإنسان يكظم غَيْظه في نفسه ، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والردّ بالمثل ، ولكنه يظل يعاني ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره في قلبه .

لذلك يحسُن الترقي إلى المرتبة الأعلى ، وهي مرتبة العفو ، فيأتي الإنسان ويقول : لماذا أدَعْ نفسي فريسة لهذا الغيظ؟ لماذا أشغل به نفسي ، وأُقَاسي ألمه ومرارته؟ فيميل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمَّنْ أساء إليه ، ويُخرِج المسألة كلها من قلبه .

فإنِ ارتقى الإنسان في العفو ، سعى المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردِّ بالمثل ، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ، فالذي اعتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسبه ، والذي ترقّى في درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله تعالى ، وأيْن قدرتُك من قدرة ربك سبحانه وتعالى؟

إذن : فالإحسان اجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أنْ تعفوَ عمَّنْ أساء ، بل إلى أنْ تُحسِن إليه؟

نقول : هَبْ أن لك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما؟ وإلى أيّهما يميل قلبك؟

لا شكَّ أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه ، وقد يتعدَّى الأمر إلى أنْ تُرضيه بهدية وتُريه من حنانك وألطافك ما يُذهِب عنه ما يُعاني ، والسبب في ذلك إساءة أخيه له فهي التي عطفَتْ قلبك إليه ، وعادتْ عليه بالهدايا والألطاف .

إذن : من الطبيعي أنْ يُحسِنَ المعتَدى عليه إلى المعتدِي ، وأنْ يشكرَ له أنْ تسبَّب له في هذه النعم؛ ولذلك يقول الحسن البصري رحمه الله : أفلا أُحسِن لمن جعل الله في جانبي؟

فالإحسان : أنْ تصنع فوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكونَ من جنس ما فرض الله عليك ، ومن جنس ما تعبَّدنا الله به ، فمثلاً تعبدنا الله بخمس صلوات في اليوم والليلة فلا مانعَ من الزيادة عليها من جنسها ، وكذلك الأمر في الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة

ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسان في الكيفية دون زيادة في العمل ، فلا أزيد مثلاً عن خمس صلوات ، ولكن أُحسِن ما أنا بصدده من الفرْض ، وأُتقِن ما أنا فيه من العمل ، وأُخلِص في ذلك عملاً بحديث جبريل عليه السلام حينما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك » .

فعليك أن تستحضر في عبادتك ربك عز وجل بجلاله وجماله وكماله ، فإنْ لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقلّ من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافية لأنْ تُعطي العبادة حقّها ولا تسرق منها ، فاللصُّ لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه ، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين ، أيليق بنا أنْ نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا؟!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي : « يا عبادي ، إنْ كنتم تعتقدون أَنِّي لا أراكم فالخلَل في إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أني أراكم ، فَلِمَ جعلتموني أهونَ الناظرين إليكم؟ » .

وقال بعضهم في معنى العدل والإحسان :

العدل : أن تستوي السريرة مع العلانية .

والإحسان : أن تعلو السريرة وتكون افضل من العلانية .

والمنكر : إنْ علَتْ العلانية على السريرة .

وقوله تعالى : { وَإِيتَآءِ ذِي القربى } [النحل : 90] .

إيتاء : أي إعطاء .

قالوا : لأن العالم حَلَقات مقترنة ، فكل قادر حوله أقرباء ضُعفَاء محتاجون ، فلو أعطاهم من خيْره ، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه لَعَمَّ الخير كل المجتمع ، وما وجدنا مُعْوزاً محتاجاً؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعطي مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى في مجتمعنا فقيراً ، وقد حثتْ الآية على القريب ، وحنَّنَتْ عليه القلوب؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل في دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأن قرابة النبي صلى الله عليه وسلم حرَّمتْ عليهم الزكاة التي أُحِلَّت لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مَيْزة يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حاجة إلى الزكاة ، وإنْ كان أقرباؤكم

أصحابَ رحم ، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أَوْلى من أرحامكم ، كما قال تعالى :

{ النبي أولى بالمؤمنين مِنْ أَنْفُسِهِمْ . . } [الأحزاب : 6] .

هذه هي مجموعة الأوامر الواردة في هذه الآية ، وإنَّ مجتمعاً يُنفِّذ مثل هذه الأوامر ويتحلَّى بها أفراده ، مجتمع ترتقي فيه الاستعدادات الخُلقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع تعمُّ فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمِنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

{ وينهى عَنِ الفحشاء والمنكر والبغي . . } [النحل : 90] .

وهذه مجموعة من النواهي تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قويماً يضمن سلامة المجتمع ، وأُولى هذه النواهي النهي عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذي سماه القرآن فاحشة ، فهي إذن الزنا ، أو كل شيء يخدش حُكْماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلَّق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنَسُ الأعراض ، وبه يشكُّ الرجل في أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله؛ لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة في قوله تعالى : { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً } [الإسراء : 32] .

ومن أقوال العلماء في الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذي يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصحّ ، ولا ينبغي لأحد أن يطلع عليه .

(والمنكر) هو الذنب يتجرّأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرَّج أن يعرفه المجتمع فيستره في نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية : ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .

(والبغْي) هو الظلم في أيِّ لَوْنٍ من ألوانه ، وهو داخل في أشياء كثيرة أعظمها ما يقع في العقيدة من الشرك بالله ، كما قال تعالى : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

والظلم هنا أنْ تسلبَ الحق تبارك وتعالى صِفة من صفاته ، وتشرك معه غيره وهو خلقك ورزقك

، ومنه ظلم الرسول صلى الله عليه وسلم حيث لم يُجرَّب عليه في يوم من الأيام أنْ قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما لم يُجرِّب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة ، ومع هذا كله قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون ، وأيُّ ظلم أعظم من هذا؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسان لنفسه حينما يُحقِّق لها شهوة عاجلة ومُتعةً زائفة ، تُورثه ندماً وحَسْرة وألماً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجَرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمتْ مجموعة من الأوامر والنواهي التي تضمن سلامة المجتمع بما جمعتْ من مكارم الأخلاق ، والأخلاق أعمُّ من أن تكون في الاعتقادات ، وأعمُّ من أن تكون في المعجزة إيماناً بها ، وأعمُّ من أن تكون في التكاليف ، وأعمُّ من أن تكون في أمر لا حَدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم .

وقوله :

{ يَعِظُكُمْ . . } [النحل : 90] .

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكي نعرفه ، ولكنه عُرْضة لأنْ نغفلَ عنه ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العِظَة إلا فيما له قيمة ، وما دام الشيء له قيمة فلا تصطفي له إلا مَنْ تحب ، كذلك الحق تبارك وتعالى يحب خَلْقه وصَنْعته؛ لذلك يَعِظهم ويُذكِّرهم باستمرار لكي يكونوا دائماً على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبِّب في الآخرة ، كما تمتعوا بنعمة الأسباب في الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ الله . . . } .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (91)

الوفاء : أنْ تفِيَ بما تعاهدتَ عليه ، والعهود لا تكون في المفروض عليك ، إنما تكون في المباحات ، فأنت حُرٌّ أن تلقاني غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً في الساعة كذا ومكان كذا فقد تحوَّل الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كُلٌّ مِنَّا ملزماً بأن يفي بعهده؛ لأن كل واحد مِنّا عطَّل مصالحه ورتَّب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أنْ يفيَ أحدنا ويُخلِف الآخر ، لأن ذلك يتسبب في عدم تكافؤ الفُرص ، ومعلوم أن مصالح العبادِ في الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

وقد ينظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه مُلْزَمٌ به وحده ، أو أنه عِبْءٌ عليه دون غيره ، لكنه في الحقيقة عليك وعلى غيرك ، فكما طلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين ، فكلّ تكليف لك لا تنظر إليه هذه النظرة ، بل تنظر إليه على أنه لصالحك .

فمن أخذ التكليف وأحكام الله من جانبه فقط يتعب ، فالحق تبارك وتعالى كما كلفك لصالح الناس فقد كلَّف الناس جميعاً لصالحك ، فحين نهاك عن السرقة مثلاً إياك أنْ تظنَّ أنه قيّد حريتك أمام الآخرين؛ لأنه سبحانه نهى جميع الناس أن يسرقوا منك ، فمَنِ الفائز إذن؟ أنا قيَّدت حريتك بالحكم ، وأنت فرْد واحد ، ولكني قيّدتُ جميع الخلق من أجلك .

كذلك حين أمرك الشرع بغضِّ بصرك على محارم الناس ، أمر الناس جميعاً بغضِّ أبصارهم عن محارمك . إذن : لا تأخذ التكليف على أنه عليك ، بل هو لك ، وفي صالحك أنت .

كثيرون من الأغنياء يتبرّمون من الإنفاق ، ويضيقون بالبذْل ، ومنهم مَنْ يَعُد ذلك مَغْرماً لأنه لا يدري الحكمة من تكليف الأغنياء بمساعدة الفقراء ، لا يدري أننا نُؤمِّن له حياته .

وها نحن نرى الدنيا دُوَلاً وأغياراً ، فكم من غنيٍّ صار فقيراً ، وكم من قوي صار ضعيفاً .

إذن : فحينما يأخذ منك وأنت غنيّ نُطمئنك : لا تَخَفْ إذا ضاقتْ بك الحال ، وإذا تبدّل غِنَاك فقراً ، فكما أخذنا منك في حال الغنى سنُعطيك في حال الفقر ، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى الأمور التكليفية .

وقوله تعالى :

{ بِعَهْدِ الله . . . } [النحل : 91] .

عهد الله : هو الشيء الذي تعاهد الله عليه ، وأول عَهْد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلّفك به ، وإياك أن تُخِلّ بأمر من أموره؛ لأن الاختلال في أي أمر تكليفي من الله يُعَدُّ نَقْصاً في إيمانك؛ لأنك حينما آمنت بالله شهدتَ بما شهد الله به لنفسه سبحانه في قوله تعالى : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ . . } [آل عمران : 18] .

فأوّل مَنْ شهد الله سبحانه لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات (والملاَئِكة) أي : شهادة المشاهدة (وَأُولُوا العِلْم) أي : بالدليل والحجة .

إذن : فأوّل عَهْد بينك وبين الله تعالى أنك آمنتَ به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مُربِّياً ، فاستمع إلى ما يطلبه منك ، فإنْ لم تستمع وتُنفّذ فاعلم أن العهد الإيماني الأول قد اختلَّ .

ولذلك ، فالحق تبارك وتعالى لم يُكلِّف الكافر ، لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يُكلِّف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيماني : { ياأيها الذين آمَنُواْ . . . } [البقرة : 183] .

كما في قوله تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام . . . } [البقرة : 183] .

فيا مَنْ آمن بي رَباً ، ورضيتني إلهاً اسمع مِنِّي؛ لأني سأعطيك قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذي يُسعدك بالمسبِّب في الآخرة بعد أن أسعدك بالأسباب في الدنيا .

وقوله :

{ وَلاَ تَنقُضُواْ الأيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا . . } [النحل : 91] .

الأَيْمان : جمع يمين ، وهو الحلف الذي نحلفه ونُؤَكِّد عليه فنقول : والله ، وعهد الله . . الخ . إذن : فلا يليق بك أنْ تنقضَ ما أكَّدته من الأَيْمان ، بل يلزمك أنْ تُوفِّي بها؛ لأنك إنْ وفَّيت بها وُفِّي لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد الإيماني بالله تعالى؛ لأننا حينما نتعاهد نُشهد الله على هذا العهد ، فنقول : بيني وبينك عَهْد الله ، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى لِنُوثِّق ما تعاهدنا عليه ، وربنا سبحانه وتعالى يقول : { وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُمْ كَفِيلاً . . . } [النحل : 91] .

أي : شاهداً ورقيباً وضامناً .

وقوله :

{ إِنَّ الله يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ } [النحل : 91] .

أي : اعلم أن الله مُطَّلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكِنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطي العهد أن تعطيه وأنت تنوي أن تخالفه ، إياك أنْ تُعطي العهد خِدَاعاً ، فربُّك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل .

ثم يُعقِّب الحق سبحانه : { وَلاَ تَكُونُواْ كالتي . . . } .

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (92)

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا في هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينقضون العهد والأَيْمان ، ولا يُوفون بها ، بهذه المرأة القرشية الحمقاء ريْطة بنت عامر ، وكانت تأمر جواريها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر ، ثم تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر ، والمتأمل في هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة .

أولاً : ما الغزل؟

الغَزْل عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فكُنَّ يُحضِرْن المادة التي تصلح للغزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف في طولها من نوع لآخر يُسمُّونها التيلة ، فيقولون « هذه تيلة قصيرة » وهذه طويلة « .

والغَزْل هو أن نُكوِّن من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً ممتداً وانسيابياً دون عُقَد فيه لكي يصلح للنسجْ بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المغزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرْمِها بالمغزل ، ليخرج في النهاية خيطٌ طويل مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه .

والآية هنا ذكرتْ المرأة في هذا العمل؛ لأنه عمل خاص بالنساء في هذا الوقت دون الرجال ، فكانت المرأة تكنّ في بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التي تكوّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره .

وإلى الآن نرى المرأة التي تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْترك الاختلاط ، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائي .

وقد تطور المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة ، مما يُيسِّر للنساء هذه الأعمال ، ويحفظهُنَّ في بيوتهن ، وينشر في البيت جَواً من التعاون بين الأم وأولادها ، وأمامنا مثلاً مشروع الأسر المنتجة حيث تشارك المرأة بجزء كبير في رُقِّي المجتمع ، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصُون حرمتها .

فالقرآن ضرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجاهلية ، هذا العمل الذي يحتاج إلى جَهْد ووقت في الغزل ، ويحتاج إلى أكثر منه في نَقْضه وفكِّه ، فهذه عملية شاقة جداً ، وربما أمرت الجواري بفكِّ الغزل والنسيج أيضاً؛ ولذلك أطلقوا عليها حمقاء قريش .

وقوله :

{ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ . . . } [النحل : 92] .

كلمة قوة هنا تدلُّنا على المراحل التي تمرُّ بها عملية الغَزْل ، وكم هي شاقة ، بداية من جَزِّ الصوف من الغنم أو الوبر من الجمال ، ثم خَلْط أطراف كل تيلة من هذه الشعيرات ، بحيث تكون طرف كل تيلة منها في وسط الأخرى لكي يتم التلاحم بينها بهذا المزج ، ثم تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخرج لنا في النهاية بضعة سنتيمترات من الخيط ، ولو قارنَّا بين هذه العملية اليدوية ، وبين ما توصلتْ إليه صناعة الغزل الآن لَتبيَّن لنا كم كانت شاقة عليهم .

فكأن القرآن الكريم شبَّه الذي يُعطِي العهد ويُوثِّقه بالأيْمان المؤكدة ، ويجعل الله وكيلاً وشاهداً على ما يقول بالتي غزلتْ هذا الغزل ، وتحملت مشقته ، ثم راحتْ فنقضت ما أنجزته ، وفكَّتْ ما غزلته .

وكذلك كلمة (قوة) تدلُّناَ على أن كل عمل يحتاج إلى قوة ، هذه القوة إما أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرِّك؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى : { خُذُواْ مَآ ءاتيناكم بِقُوَّةٍ . . } [البقرة : 63] .

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه ، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه .

وهذه يسمونها في عالم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل مُتحرِّكاً إلى أنْ يعرضَ له شيء يُسكنه ، والساكن يظل ساكناً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُحرِّكه .

ومن هنا يتعجَّب الكثيرون من الأقمار الصناعية التي تدور أعواماً عدة في الفضاء : ما الوقود

الذي يُحرِّك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها ، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط ، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذْب ، فإذا ما استقرّ القمر أو السفينة الفضائية في منطقة عدم الجذب تدور وتتحرك بنفسها دون وقود ، فهناك الشيء المتحرك يظل متحركاً ، والساكن يظل ساكناً .

والحق تبارك وتعالى بهذا المثَل المشَاهد يُحذرنا من إخلاف العهد ونقْضه؛ لأنه سبحانه يريد أن يصونَ مصالح الخلق؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيْمان التي تبرم بينهم ، فمَنْ خان العهد أو نقضَ الأيْمان لا يُوثق فيه ، ولا يُطْمأنُ إلى حركته في الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

وقوله : { أَنكَاثاً . . } [النحل : 92] .

جمع نِكْث ، وهو ما نُقِض وحُلَّ فَتْله من الغزل .

وقوله :

{ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ . . } [النحل : 92] .

الدَّخَل : أنْ تدخل في الشيء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغِشّ والخداع ، كأن تدخل في الذهب عيار 24 قيراطاً مثلاً ذهباً من عيار 18 قيراطاً ، أو كأن تُدخِلَ في اللوز مثلاً نَوى المشمش على أنه منه . فكأن الأَيْمان القائمة على الصدق والوفاء يعطيها صاحبها وهو ينوي بها الخداع والغش ، فيحلف لصاحبه وهو يقصد تنويمه والتغرير به .

وقوله :

{ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ . . . } [النحل : 92] .

هذه هي العلة في أنْ نتخذَ الأَيْمان دَخَلاً فيما بيننا ، الأَيْمان الزائفة الخادعة؛ ذلك لأن الذي باع نوى المشمش مثلاً على أنه لوز ، فقد أَرْبى أي : أخذ أزيْد من حقه ونقص حَقَّ الآخرين ، فالعلة إذن في الخداع بالأَيْمان الطمع وطلب الزيادة على حساب الآخرين .

وقد تأتي الزيادة بصورة أخرى ، كأن تُعاهِد شخصاً على شيء ما ، وأدَّيْتَ له بالعهود والأيْمان والمواثيق ، ثم عنَّ لك مَنْ هو أقوى منه سواء كان بالقهر والسلطان أو بالإغراء ، فنقضت العهد الأول لأن الثاني أرْبى منه وأزيد .

وفي مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حِذْره ، فمَنْ يُدريك لعله يُفعل بك كما فعلت ، ويُكال لك بنفس المكيال الذي كِلْتَ به لغيرك ، فاحذر إذا تجرأتَ على خَلْق الله أن يُجَرِّيء الله عليك مَنْ يسقيك من نفس الكأس .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أنْ تغُشَّ الناس ، وتذكَّر أن لك عندهم مصالح ، وفي أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأْتَ عليهم جرَّأهم الله عليك؛ لأنه سبحانه يقول : أنا

القيُّوم ، أي : القائم على أمركم ، فناموا أنتم فأنا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلحظها جيداً .
مَنْ تَجرّأ على الناس جرَّأهم الله عليه ، ومَنْ أخلص عمله وأتقنه قذف الله في قلوب الخلق أنْ يُتقنوا له حاجته .
وقوله :
{ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ الله بِهِ . . . } [النحل : 92] .
أي : يختبركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أنْ عقدتم العهد ، أَفِي نيتكم الوفاء ، أم في نيتكم الغدر والخداع؟
وهَبْ أنك تنوي الوفاء ثم عرضَ لك ما حال بينك وبينه ، فالله سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفَى عليه شيء .
إذن : الابتلاء هنا لا يعني النكبة والبلاء ، بل يعني مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذي يفشل في الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .
وقوله :
{ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ القيامة مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [النحل : 92] .
فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشَّف الحقائق ، ويأتي القضاء فيما اختلفنا فيه في الدنيا ، وهَبْ أن إنساناً عمَّى على قضاء الأرض في أشياء ، نقول له : إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمىَ على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَوْ شَآءَ الله . . . } .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (93)

لو حرف امتناع لامتناع . أي : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما في قوله تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا } [الأنبياء : 22] .
فقد امتنع الفساد لامتناع تعدّد الآلهة .
فلو شاء الله لجعلَ العالم كله أمةً واحدة على الحق ، لا على الضلال ، أمة واحدة في الإيمان والهداية ، كما جعل الأجناس الأخرى أمةً واحدة في الانصياع لمرادات الله منها .
ذلك لأن كل أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يفِدَ إلى الحياة مخلوقة بالحق خَلْقاً تسخيرياً ، فلا يوجد جنس من الأجناس تأَبَّى عما قصد منه ، لا الجماد ولا النبات ولا الحيوان .
كل هذه الأكوان تسير سَيْراً سليماً كما أراد الله منها ، والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختلّ في الكون ، ذلك لما له من حرية الاختيار ، يفعل أو لا يفعل .
لذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض

والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18] .

هكذا تسجد كل هذه المخلوقات لله دون استثناء ، إلا في الإنسان فقال تعالى : { وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18] .

فلماذا حدث هذا الاختلاف عند الناس؟ لأنهم أصحاب الاختيار ، فيستطيع الواحد منهم أن يفعلَ أو لا يفعل ، هل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ، أم أرادها الله سبحانه وتعالى؟

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة في خَلْق الأشياء المُسخرة ، بحيث لا يخرج شيء عما أريد منه ، وكان من الممكن أنْ يأتيَ الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه في هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً في الكون ، أليستْ الملائكة قائمة على التسخير؟

فالتسخير يُثبِت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شيء ، لكن الاختيار يثبت المحبوبية لله تعالى ، وهذا فَرْقٌ يجب أنْ نتدبّره .

فمثلاً لو كان عندك عبدان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيَّدته إليك في حبل ، في حين تركت مسعوداً حراً طليقاً ، وحين أمرت كلاً منهما لَبَّى وأطاع ، فأيّ طاعة ستكون أحبّ إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة بالاختيار؟

فكأن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرَّمه بأنْ جعلَه مختاراً في أنْ يطيعَ أو أنْ يعصيَ ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً ، وهو قادر على المعصية ، فقد أثبتَ المحبوبية لربه سبحانه وتعالى .

ولا بُدَّ أنْ تتوافرَ للاختيار شروطٌ . أولها العقل ، فهو آلة الاختيار ، كذلك لا يُكلّف المجنون ، فإذا توفّر العقل فلا بُدَّ له من النُّضْج والبلوغ ، ويتمّ ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مِثْله ، وأصبحتْ له ذاتية مولده .

وهذه سِمَة اكتمال الذات؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين ، وليس أَهْلاً للتكليف ، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات ، فلا بُدَّ له أن يكون مختاراً غَيْرَ مُكْرِهٍ ، فإنْ أُكْرِه على الشيء فلن يسأل عنه ، فإنِ اختلَّ شَرْط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار ، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة في الاختيار .

والحق تبارك وتعالى وإن كرَّم الإنسان بالاختيار ، فمن رحمته به أنْ يجعلَ فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسخّرة لا دَخْلَ له فيها .

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية ، وتتوقف عليها حياة الإنسان ، فكان من رحمة الله بنا أنْ جعل هذه الأعضاء تعمل وتُؤدِّي وظيفتها دون أنْ نشعرَ .

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام في اليقظة والمنام دون أن نشعرَ به ، وكذلك التنفس والكُلَى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسخّرة ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لُطْفِ الله بخَلْقه أنْ جعلَ هذه الأعضاء مُسخّرة ، لأنه بالله لو أنت مختار في عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم؟!

إذن : من رحمة الله أنْ جعلكَ مختاراً في الأعمال التي تعرِضُ لك ، وتحتاج فيها إلى النظر في البدائل؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديْه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا آذيتَ حيواناً فإنه يُؤذيك ، وليس لديه بديل آخر . ولكن إذا آذيْت إنساناً ، فيحتمل أن يردّ عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلتَ ، أو أقلّ ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذي يُرجِّح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى : { أَن لَّوْ يَشَآءُ الله لَهَدَى الناس } [الرعد : 31] .

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشَأْ ذلك ، بدليل قوله :

{ ولكن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ . . . } [النحل : 93] .

وهذه الآية يقف عندها المتمحّكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم في فهْم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذي يضِلّ الناس ، فلماذا يُعذِّبهم؟ ونتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء : لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذي يهدي ، فلماذا يُدخِلنا الجنة؟ إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون؛ لأن معنى : { يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ . . } [النحل : 93] .

أي : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا في لجان الامتحان ، فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق تبارك وتعالى لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ؛ فالمعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم ، بدليل قوله تعالى بعدها :

{ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } [النحل : 93] .

فالعبد لا يُسأل إلا عَمَّا عملتْ يداه ، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار في العمل ، وكيف تسأل عن شيء لا دَخْل لك فيه؟ فلنفهم إذن عن الحق تبارك وتعالى مُرَادَهُ من الآية .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تتخذوا . . . } .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (94)

وردتْ كلمة الدّخَل في الآية قبل السابقة وقلنا : إن معناها : أن تُدخِلَ في الشيء شيئاً أدْنى منه من جنسه على سبيل الغشّ والخداع ، وإن كان المعنى واحداً في الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدَّخَل وعَلّته ، وهي أن تكون أُمة أَرْبى من أمة ، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر . أما في هذه الآية فجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدَّخَل ، وهي :

{ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا . . } [النحل : 94] .

ففي الآية نَهْيٌ عن اتخاذ الأَيْمان للغش والخداع والتدليس؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتي على المجتمع من أساسه ، وفَقْد للثقة المتبادلة بين الناس والتي عليها يقوم التعامل ، وتُبنَى حركة الحياة ، فالذي يُعطي عهداً ويُخلْفه ، ويحلف يميناً ويحنث فيه يشتهر عنه أنه مُخلِف للعهد ناقض للميثاق .

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجرؤ أحد على الصَّفَق معه ، فيصبح مَهيناً ينفضُ الناس أيديهم منه ، بعد أنْ كان أميناً وأهلاً للثقة ومَحَلاً للتقدير .

هذا معنى قوله تعالى :

{ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا . . . } [النحل : 94] .

وبذلك يسقط حقُّه مع المجتمع ، ويحيق به سوء فِعْله ، ويجني بيده ثمار ما أفسده في المجتمع ، وبانتشار هذا الخُلق السيئ تتعطّل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زَلّة وكَبْوة بعد ثبات وقوة ، بعد أنْ كان أَهْلاً للثقة صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقبِل عليه الناس ، ويُحبُّون التعامل معه بما لديْه من شرف الكلمة وصِدْق الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مركزه في السوق أي : زَلَّتْ قدمه بما حدث منه من نقْضٍ للعهود ، وحِنْث في الأيمان وغير ذلك مما لا يليق بأهل الثقة في السوق ، ومثل هذا ينتهي به الأمر إلى أنْ يعلنَ إفلاسه في دنيا التعامل مع الناس .

أما الوفاء بالعهود والمواثيق والأَيْمان فيجعل قدمك في حركة الحياة ثابتة لا تتزحزح ولا تَهتزّ ، فترى مال الناس جميعاً مالَه ، وتجد أصحاب الأموال مقبلين عليك يضعون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة في التعامل .

ولذلك ، فالتشريع الإسلامي حينما شرع لنا الشركة راعى هذا النوع من الناس الذي لا يملك إلا سمعة طيبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإنْ دخل شريك بما لديْه من رأس المال ، فهذا شريك بما لديْه من شرف الكلمة وشرف السلوك ، ووجاهة بين الناس ، وماضٍ مُشرّف من التعامل .

وهذه يسمونها « شركة الوجوه والأعيان » وهذا الوجيه في دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قد نرى هذه الثقة لا في شخص من الأشخاص ، بل نراها في ماركة من الماركات أو العلامات التجارية ، فنراها تُبَاع وتُشْتري ، ولها قيمة غالية في السوق بما نالتْه من احترام الناس وتقديرهم ، وهذا أيضاً نتيجة الصدق والالتزام والأمانة وشرف الكلمة .

وقوله تعالى :

{ وَتَذُوقُواْ السواء بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل : 94] .

السوء : أي العذاب الذي يسُوء صاحبه في الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكسَاد في الحال ، بعد أنْ سقط من نظر المجتمع ، وهدم جِسْر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

{ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ الله } [النحل : 94] .

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأَيْمان ولا يُوفُونَ بها ، فهل في هذا صَدٌّ عن سبيل الله؟ نقول : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شيء يجعل حركة الحياة منتظمة تُدَار بشرف وأمانة وصِدْق ونفاذ عهد .

ومن هنا ، فالذي يُخلف العهد ، ولا يفي بالمواثيق يعطي للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يضنُّ بماله ، وصاحب المعروف يتراجع ، فلو أقرضتَ إنساناً وغدرَ بكَ فلا أظنُّك مُقرِضاً لآخر . إذن : لا شَكَّ أن في هذا صداً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس في فعْل الخير .

وقوله تعالى :

{ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل : 94] .

فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة في الدنيا ، وبعد أنْ زَلَّتْ بهم القدم ، ونزل بهم من عذاب الدنيا ألوانٌ ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أي في الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ . . . } .

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (95)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية ينهانا ويُحذِّرنا : إياك أنْ تجعلَ عهد الله الذي أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كفيلاً ، فبعد أن كنت حُراً في أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك .

أو : عهد الله أي شرعه الذي تعاهدتَ على العمل به والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيماني الأعلى ، وهو أن تؤمنَ بالله وبصدق الرسول في البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول من أحكام ، إياك أنْ تقابله بشيء آخر تجعله أغْلى منه؛ لأنك إنْ نقضْتَ عهد الله لشيء آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلتَ هذا الشيء أغلى من عهد الله؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلاً

.

ثم يأتي تعليل ذلك في قوله :

{ إِنَّمَا عِنْدَ الله هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . } [النحل : 95] .

فالخير في الحقيقة ليس في متاع الدنيا مهما كَثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، وقد أوضح ذلك في قوله تعالى : { مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ } [النحل : 96] .

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

{ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . . . } [النحل : 95] .

فهذا أسلوب توكيد بالقصر بإعادة الضمير (هو) ، فلم يَقُلِ الحق سبحانه إنما عند الله خير لكم ، فيحتمل أن ما عند غيره أيضاً خيْرٌ لكم ، أما في تعبير القرآن { هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ } أي : الخير فيما عند الله على سبيل القَصْر ، كما في قوله تعالى : { وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ } [الشعراء : 80] .

فجاء بالضمير « هو » ليؤكد أن الشافي هو الله لوجود مَظنّة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما في الأشياء التي لا يُظَنّ فيها المشاركة فتأتي دون هذا التوكيد كما في قوله تعالى : { والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ } [الشعراء : 81] .

فلم يقل : هو يميتني هو يُحيين؛ لأنه لا يميت ولا يُحيي إلا الله ، فلا حاجةَ للتوكيد هنا .

ما الذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد؟

الذي يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد أنْ يرى مصلحة سطحية فوق ما تعاقد عليه تجعله يخرج عما تعاهد عليه إلى هذه السطحية ، ولكنه لو عقل وتدبَّر الأمر لعلم أنّ ما يسعى إليه ثمن بَخْسٌ ، ومكسب قليل زائل إذا ما قارنه بما ادخِر له في حالة الوفاء؛ لأن ما أخذه حظاً من دنياه لا بُدّ له من زوال .

والعقل يقول : إن الشيء ، إذا كان قليلاً باقياً يفضل الكثير الذي لا يبقى ، فما بالك إذا كان القليل هو الذي يفنى ، والكثير هو الذي يبقى .

ومثال ذلك : لو أعطيتُك فاكهة تكفيك أسبوعاً أو شهراً فأكلتها في يوم واحد ، فقد تمتعْتَ بها مرة واحدة ، وفاتَكَ منها مُتَعٌ وأكلاتٌ متعددة لو أكلتَها في وقتها .

لذلك؛ فالحق سبحانه وتعالى يُنبّهك أنَّ ما عند الله هو الخير الحقيقي ، فجعل موازينك الإيمانية دقيقة ، فمن الحُمْق أن تبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني :

{ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [النحل : 95] .

في الآية دِقَّة الحساب ، ودِقَّة المقارنة ، ودِقَّة حَلِّ المعادلات الاقتصادية .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى : { مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ . . } .

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96)

يُوضّح الحق تبارك وتعالى أن حظَّ الإنسان من دُنْياه عَرَضٌ زائل ، فإمَّا أن تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بما يجري عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو بَاق لا نفاد له .

{ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا . . } [النحل : 96] .

كلمة { صبروا } تدلُّ على أن الإنسان سيتعرّض لِهزَّاتٍ نفسية نتيجة ما يقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نَقْضه ، حينما يلوح له بريق المال وتتحرَّك بين جنباته شهوات النفس ، فيقول له الحق تبارك وتعالى : اصبر . . اصبر لا تكُنْ عَجُولاً ، وقارن المسائل مقارنة هادئة ، وتحمَّل كل مشقة نفسية ، وتغلّب على شهوة النفس؛ لتصل إلى النتيجة المحمودة .

فالتلميذ الذي يجتهد ويتعب ويتحمَّل مشقة الدرس والتحصيل يصبر على الشهوات العاجلة لما ينتظره من شهوات باقية آجلة ، فوراء الدرس والتحصيل غايةٌ أكبر وهَدَفٌ أَسْمى .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَلَنَجْزِيَنَّ الذين صبروا . . } [النحل : 96] .

أي : على مشقَّات الوفاء بالعهود .

{ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النحل : 96] .

أي : أجراً بالزيادة في الجزاء على أحسن ما يكون؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً فله الجزاء ، أما المباح فالمفروض ألا جزاء له ، ولكنّ فضل الله يجزي عليه أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً . . . } .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (97)

الحق تبارك وتعالى يُعطينا قضية عامة ، هي قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرجال ، وليس للمرأة تدخُّل في إعطاء العهود ، حتى إنها لما دخلتْ في عهد مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم بيعة العقبة جعل واحداً من الصحابة يبايع النساء نيابة عنه .

إذن : المرأة بعيدة عن هذا المعتَرك نظراً لأن هذا من خصائص الرجال عادةً ، أراد سبحانه أن يقول لنا : نحن لا نمنع أن يكونَ للأنثى عملٌ صالح .

ولا تظنّ أن المسألة منسحبة على الرجال دون النساء ، فالعمل الصالح مقبول من الذكر والأنثى على حدٍّ سواء ، شريطة أنْ يتوفَّر له الإيمان ، ولذلك يقول تعالى :

{ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . . } [النحل : 97] .

وبذلك يكون العمل له جَدْوى ويكون مقبولاً عند الله؛ ولذلك نرى كثيراً من الناس الذين

يُقدِّمون أعمالاً صالحة ، ويخدمون البشرية بالاختراعات والاكتشافات ، ويداوون المرضى ، ويبنون المستشفيات والمدارس ، ولكن لا يتوفر لهم شرط الإيمان بالله .

فنرى الحق تبارك وتعالى لا يبخس هؤلاء حقهم ، ولكن يُعجِّله لهم في الدنيا؛ لأنه لا حَظَّ لهم في أجر الآخرة ، يقول تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ } [الشورى : 20] .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [الزلزلة : 7-8] .

وهذا كله خاصٌّ بأمور الدنيا ، فالذي يحسن شيئاً ينال ثمرته ، لكن في جزاء الآخرة نقول لهؤلاء : لا حَظَّ لكم اليوم ، وخذوا أجركم مِمَّنْ عملتُم له فقد عملتُم الخير للإنسانية للشهرة وخلود الذكْر ، وقد أخذتم ذلك في الدنيا فقد خَلَّدوا ذِكْراكم ، ورفعوا شأنكم ، وصنعوا لكم التماثيل ، ولم يبخسوكم حَقَّكم في الشُّهْرة والتكريم .

ويوم القيامة يواجههم الحق سبحانه وتعالى : فعلتم ليقال . . وقد قيل ، فاذهبوا وخذوا مِمَّنْ عملتم لهم .

هؤلاء الذين قال الله في حقهم : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب } [النور : 39] .

يُفاجأ يوم القيامة أن له إلهاً كان ينبغي أنْ يؤمن به ويعمل ابتغاء وجهه ومرضاته .

إذن : فالإيمان شَرْطٌ لقبول العمل الصالح ، فإذا ما توفر الإيمان فقد استوى الذّكَر والأنثى في الثواب والجزاء .

يقول تعالى :

{ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً . . } [النحل : 97] .

هذه هي النتيجة الطبيعة للعمل الصالح الذي يبتغي صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظين من الجزاء ، حظاً في الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة ، وحظاً في الآخرة :

{ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النحل : 97] .

ويقول الحق سبحانه : { فَإِذَا قَرَأْتَ . . . } .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (98)

الاستعاذة : اللجوء والاعتصام بالله من شيء تخافُه ، فأنت لا تلجأ ولا تعتصم ، ولا تستجير ولا تستنجد إلا إذا استشعرتَ في نفسك أنك ضعيف عن مقاومة عدوك .

فإذا كان عدوك الشيطان بما جعل الله له من قوة وسلطان ، وما له من مداخل للنفس البشرية فلا حَوْلَ لك ولا قُوّة في مقاومته إلا أنْ تلجأ إلى الله القوي الذي خلقك وخلق هذا الشيطان ،

وهو القادر وحده على رَدّه عنك؛ لأن الشيطان في معركة مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة .

وقد أقسم الشيطان للحق تبارك وتعالى ، فقال : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 82-83] .

فما عليك إلا أن تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أنْ ترتمي في حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوي القادر على أنْ يدفعَ عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك ، فلا تقاومه بقوتك أنت؛ لأنه لا طاقة لك به ، ولا تدعه ينفرد بك؛ لأنه إن انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغلبة .

ولذلك نقول دائماً : لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله ، أي : لا حول : لا تحوُّل عن المعصية . ولا قوة . أي : على الطاعة إلا بالله .

ونحن نرى الصبي الصغير الذي يسير في الشارع مثلاً قد يتعرَّض لِمَنْ يعتدي عليه من أمثاله من الصبية ، أما إذا كان في صُحْبة والده فلا يجرؤ أحد منهم أنْ يتعرضَ له ، فما بالك بمَنْ يسير في صُحْبة ربه تبارك وتعالى ، ويُلْقي بنفسه في حماية الله سبحانه؟!

وفي مقام الاستعاذة بالله نذكر قاعدة إيمانية علَّمنا إياها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف : « من استعاذ بالله فأعيذوه » .

فيلزم المؤمن أنْ يعيذ من استعاذ بالله ، وإنْ كان في أحب الأشياء إليه ، « والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا القدوة في ذلك ، حينما تزوج من فتاة على قدر كبير من الحسن والجمال لدرجة أن نساءه غِرْنَ منها ، وأخذْنَ في الكَيْد لها وزحزحتها من أمامهن حتى لا تغلبهن على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن كيف لهُنَّ ذلك؟

حاولْنَ استغلال أن هذه الفتاة ما تزال صغيرة غِرة ، تتمتع بسلامة النية وصفاء السريرة ، ليس لديها من تجارب الحياة ما تتعلم منه لُؤْماً أو مكْراً ، وهي أيضاً ما تزال في نشوة فرحتها بأنْ أصبحت أماً للمؤمنين ، وتحرص كل الحرص على إرضاء النبي صلى الله عليه وسلم فاستغل نساء النبي صلى الله عليه وسلم هذا كله ، وقالت لهن إحداهن : إذا دخلتِ على رسول الله فقولي له : أعوذ بالله منك ، فإنه يحب هذه الكلمة .

أخذت الفتاة هذه الكلمة بما لديها من سلامة النية ، ومحبة لرسول الله ، وحرص على إرضائه ، وقالت له : أعوذ بالله منك ، وهي لا تدري معنى هذه العبارة فقال صلى الله عليه وسلم : » لقد عُذْت بمعاذ ، الحقي بأهلك « .

أي : ما دُمْت استعذت بالله فأنا قبلت هذه الاستعاذة؛ لأنكِ استعذت بمعاذ أي : بمن يجب علينا أن نتركِ من أجله ، ثم طلقها النبي صلى الله عليه وسلم امتثالاً لهذه الاستعاذة .

إذن : مَن استعاذ بالله لا بُدَّ للمؤمن أنْ يُعيذه ، ومن استجار بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يكون جندياً من جنود الله ، ويجيره حتى يبلغ مأمنه .

وفي الآية الكريمة أسلوب شرط ، اقترن جوابه بالفاء في قوله تعالى :

{ فاستعذ . . . } [النحل : 98] .

فإذا رأيت الفاء فاعلم أن ما بعدها مترتبٌ على ما قبلها ، كما لو قُلْتَ : إذا قابلت محمداً فقُلْ له كذا . . فلا يتم القول إلا بعد المقابلة . أما في الآية الكريمة فالمراد : إذا أردت قراءة القرآن فاستعِذْ؛ لأن الاستعاذة هنا تكون سابقة على القراءة ، كما جاء في قَول الحق تبارك وتعالى : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ . . } [المائدة : 6] .

فالمعنى : إذا أردتُمْ إقامة الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وكذلك إذا أردتَ قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم؛ لأن القرآن كلام الله .

ولو آمنّا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتكلم لعلمنا أن قراءة القرآن تختلف عن أي قراءة أخرى ، فأنت كي تقرأ القرآن تقوم بعمليات متعددة :

أولها : استحضار قداسة المُنْزِل سبحانه الذي آمنتَ به وأقبلتَ على كلامه .

ثانيها : استحضار صدق الرسول في بلاغ القرآن المنزّل عليه .

ثالثها : استحضار عظمة القرآن الكريم ، بما فيه من أوجه الإعجاز ، وما يحويه من الآداب والأحكام .

إذن : لديك ثلاث عمليات تستعد بها لقراءة كلام الله في قرآنه الكريم ، وكل منها عمل صالح لن يدعكَ الشيطانُ تؤديه دون أنْ يتعرَّض لك ، ويُوسوس لك ، ويصرفك عما أنت مُقبِلٌ عليه .

وساعتها لن تستطيع منعه إلا إذا استعنت عليه بالله ، واستعذتَ منه بالله ، وبذلك تكون في معية الله منزل القرآن سبحانه وتعالى ، وفي رحاب عظمة المنزل عليه محمد صدقاً ، ومع استقبال ما في القرآن من إعجاز وآداب وأحكام .

ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن .

ومع ذلك لا مانع من حَمْل المعنى على الاستعاذة أيضاً بعد قراءة القرآن ، فيكون المراد : إذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله . . أي : بعد القراءة؛ لأنك بعد أن قرأتَ كتاب الله خرجتَ منه بزاد إيماني وتجليّات ربانية ، وتعرَّضْتَ لآداب وأحكام طُلبت منك ، فعليك إذن أن تستعيذ بالله من الشيطان أن يفسِد عليك هذا الزاد وتلك التجليات أو يصرفك عن أداء هذه الآداب والأحكام .

وقوله تعالى :

{ مِنَ الشيطان الرجيم } [النحل : 98] .

أي : الملعون المطرود من رحمة الله؛ لأن الشيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أنْ نُجرّبه لنعرف طبيعته وكيفية التعامل معه ، بل له معنا سوابق عداء منذ أبينا آدم عليه السلام .

وقد حذر الله تعالى آدم منه فقال : { يآءَادَمُ إِنَّ هذا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ . . } [طه : 117] .

وسبق أنْ رُجم ولُعِن وأُبعِد من رحمة الله ، فقد هددنا بقوله : { لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ . . } [الإسراء : 62] .

إذن : هناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خُلِق الإنسان ، وإلى قيام الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ . . } .

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99)

لحكمة أرادها الخالق سبحانه أنْ جعل للشيطان سلطاناً . أي : تسلطاً .

وكلمة (السلطان) مأخوذة من السَّليط ، وهو الزيت الذي كانوا يُوقِدون به السُّرج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء ، فكانوا يضعون هذا الزيت في إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة ، وعندما توقد تمتصّ من هذا الزيت وتُضيء؛ ولذلك سُمِّيتْ الحجة سُلْطاناً؛ لأنها تنير لصاحبها وَجْه الحق .

والسلطان ، إما سلطان حجة تقنعك بالفعل ، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به . وإما سلطان قَهْر وغلبة يجبرك على الفعل ويحملك عليه قَهْراً دون اقتناع به .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التي تُضيء لك وتُوضّح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التي تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع وإنْ لم ترهَا .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيّاً من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة والإقناع ، ولا قوة القهر .

وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى على لسان الشيطان يوم القيامة : { وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظالمين لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [إبراهيم : 22] .

هذا حوار يدور يوم القيامة بعد أن انتهتْ المسألة وتكشفتْ الحقيقة ، وجاء وقت المصارحة والمواجهة . يقول الشيطان لأوليائه مُتنصلاً من المسئولية : ما كان عندي من سلطان عليكم ، لا سلطان حجة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضاً ، ولا سلطان قَهْر أجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فأتيتموني طائعين . { مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ . . } [إبراهيم : 22] .

أي : نحن في الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتي؛ لأن الصُّراخَ يكون من

شخص وقع في ضائقة أو شدة لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عالٍ لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلِّصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أي : أزالوا سبب صُرَاخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالة سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صُرَاخي .

وكذلك في حوار آخر دار بين أهل الباطل الذين تكاتفوا عليه في الدنيا ، وها هي المواجهة يوم القيامة : { وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قالوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ اليمين * قَالُواْ بَلْ لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ } [الصافات : 24-30] .

والمراد بقوله : (عَنِ اليَمِينِ) أن الإنسان يزاول أعماله بكلتا يديه ، لكن اليد اليمنى هي العُمْدة في العمل ، فأتيته عن اليمين أي : من ناحية اليد الفاعلة .

وقوله : { وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ } [الصافات : 30] .

أي : في انتظار إشارة منّا ، مجرد إشارة ، فسارعتم ووقعتم فيما وقعتُم فيه .

فعلى مَنْ يكون تسلط الشيطان وتلك الغلبة والقهر؟

يُوضّح الحق تبارك وتعالى أن تسلّط الشيطان لا يقع على مَنْ آمن به رباً ، ولجأ إليه واعتصم به ، وما دُمْت آمنتَ بالله فأنت في مَعيّته وحِفْظه ، ولا يستطيع الشيطان وهو مخلوق لله تعالى أنْ يتسلط عليك أو يغلبك .

إذن : الحصن الذي يقينا كَيْدَ الشيطان هو الإيمان بالله والتوكّل عليه سبحانه .

فعلى مَنْ إذن يتسلّط الشيطان؟

يُوضّح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول : { إِنَّمَا سُلْطَانُهُ . . } .

إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (100)

معنى يتولونه : أي يتخذونه وَليّاً يطيعون أمره ، ويخضعون لوسوسته ، ويتبعون خطواته : { الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل : 100] .

أي : مشركون بالله ، أو يكون المعنى : وهُمْ به أي بسببه أشركوا؛ لأنه أصبح له أوامر ونواه وهم يطيعونه ، وهذه هي العبادة بعينها ، فكأنهم عبدوه من دون الله بما قدّموه من طاعته في أمره ونَهْيه .

وقد سَمَّى الله طريقة الشيطان في الإضلال والغواية وَسْوسةً ، والوسوسة في الحقيقة هي صَوْت الحُليّ حينما يتحرك في أيدي النساء ، فيُحدِث صوتاً رقيقاً فيه جاذبية وإغراء تهيج له النفس ، وكذلك الشيطان يدخل إليك عن طريق الإغراء والتزيين ، فإذا ما هاجتْ عليك نفسُك وحدّثتْك بالمعصية تركك لها ، فعند هذه النقطة تنتهي مُهمته .

ولكن ، هل النفس لا تفعل المعصية إلا بوسوسة الشيطان؟

قالوا : لا ، فالنفس والمراد هنا النفس الأمّارة بالسوء قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشيطان ، وقد يُوسْوِسُ الشيطان لها ، وينزغها نَزغاً ويُؤَلّبها ، ويُزّين لها معصية ما كانت على بالها .

فكيف إذن يُفرّق بين هاتين المعصيتين؟

النفس حينما ترغب في معصية أو شهوة تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، وإذا قاومتَ نفسك ، وحاولتَ صَرْفها عن هذه الشهوة ألحَّتْ عليك بها ، وطلبتها بعينها ، فشهوة النفس إذن ثابتة؛ لأنها تشتهي شيئاً واحداً تُلح عليه .

ولكن حينما يُوسوِسُ الشيطان لك بشهوة فوجد منك مقاومة وقدرة على مجابهته صرف نظرك إلى أخرى؛ لأنه يريدك عاصياً بأيّ شكل من الأشكال ، فتراه يُزيّن لك معصية أخرى وأخرى ، إلى أنْ ينال منك ما يريد .

ومن ذلك ما نراه في الرشوة مثلاً والعياذ بالله فإنْ رفضتَ رشوة المال زيَّن لك رشوة الهدية ، وإنْ رفضتَ رشوة الهدية زيَّنَ لك الرشوة بقضاء مصلحة مقابلة .

وهكذا يظل هذا اللعين وراءك حتى يصل إلى نقطة ضَعْف فيك ، إذن : فهو ليس كالنفس يقف بك عند شهوة واحدة ، ولكنه يريد أن يُوقِع بك على أيّ صورة من الصور .

ولكي نقفَ على مداخل الشيطان ونكون منه على حَذر يجب أنْ نعلم أن الشيطان على علم كبير وصل به إلى صفوف الملائكة ، بل سَمَّوه « طاووس الملائكة » ، ويمكن أن نقف على شيء من علم الشيطان في دِقّة قَسَمه ، حينما أقسم للحق تبارك وتعالى أن يُغوي بني آدم ، فقال : { فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 82-83] .

هكذا عرف الشيطان أنْ يُقسِم القسَم المناسب ، فلم يَقُلْ : بقوتي ولا بحجتي سأغوي الخَلْق ، بل عرف لله تعالى صفة العزة ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلب؛ لذلك ترك لخلْقه حرية الإيمان به ، فقال : { فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : 29] .

فالمعنى : فبعزتك عن خَلْقك : يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، سوف أدخل من هذا الباب لإغواء البشر ، ولكني لا أجرؤ على الاقتراب ممَّنْ اخترتَهم واصطفيتَهم ، لن أتعرَّضَ لعبادك المخلصين ، ولا دَخْلَ لي بهم ، ولا سلطان لي عليهم .

كذلك يجب أن نعلم أن الشيطان دقيق في تخطيطه ، وهذا من مداخله وتلبيسه الذي يدعونا إلى الحذر من هذا اللعين . فالشيطان لا حاجة له في أن يذهب إلى الخمارات مثلاً ، فقد كفاه أهلُها مشقة الوَسْوسة ، ووفّروا عليه المجهود ، هؤلاء هم أولياؤه وأحبابه ومُريحوه بما هم عليه من معصية الله ، ولكنه في حاجة إلى أن يكون في المساجد ليُفسِد على أهل الطاعة طاعتهم .

وقد أوضح هذه القضية وفطن إليها الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان ، وكان مشهوراً بالفِطْنة ،

وعلى دراية بمداخل الشيطان وتلبيسه ، وكل هذا جعل له باعاً طويلاً في الإفتاء ، وقد عرض عليه أحدهم هذه المسألة :

قال : يا إمام كان لديّ مال دفنته في مكان كذا ، وجعلتُ عليه علامة ، فجاء السَّيْل وطمس هذه العلامة ، فلم أَهتدِ إليه ، فماذا أفعل؟

فتبسَّم أبو حنيفة وقال : يا بُني ليس في هذا علم ، ففي أيّ باب من أبواب الفقه سيجد أبو حنيفة هذه القضية؟! ولكني سأحتال لك .

وفعلاً تفتقتْ قريحة الإمام عن هذه الحيلة التي تدل على عِلْمه وفقهه ، قال له : إذا جئتَ في الليل فتوضّأ ، وقُمْ بين يدي ربّك مُتهجِّداً . وفي الصباح أخبرني خبرك .

وفي صلاة الفجر قابله الرجل مُبتسِماً . يقول : لقد وجدتُ المال ، فقال : كيف؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يديْ ربي في الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدت مالي ، فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعَك تُتِم ليلتك مع ربك .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ . . } .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)

قوله : { بَدَّلْنَآ } ومنها : أبدلت واستبدلْتُ ، أي : رفعتُ آية وطرحتُها . وجئت بأخرى بدلاً منها ، وقد تدخل الباء على الشيء المتروك ، كما في قوله تعالى : { أَتَسْتَبْدِلُونَ الذي هُوَ أدنى بالذي هُوَ خَيْرٌ . . } [البقرة : 61] .

أي : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية؟ كلمة آية لها مَعَانٍ متعددة منها :

الشيء العجيب الذي يُلفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول : هذا آية في الجمال ، أو في الشجاعة ، أو في الذكاء ، أي : وصل فيه إلى حَدٍّ يدعو إلى التعجُّب والانبهار .

ومنها الآيات الكونية ، حينما تتأمل في كون الله من حولك تجد آياتٍ تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات : { وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر } [فصلت : 37] . { وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام } [الشورى : 32] .

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبّدل ، كما قال الحق تبارك وتعالى : { وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً . . } [الفتح : 23] .

ومن معاني الآية : المعجزة ، وهي الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتي المعجزة على أيدي الأنبياء لتكون حُجّة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ في هذا النوع من الآيات أنه يتبدّل ويتغيّر من نبي لآخر؛ لأن المعجزة لا يكون لها أثرها

إلا إذا كان في شيء نبغ فيه القوم؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة في مجال لا عِلْمَ لهم به لقالوا : لو أن لنا عِلْماً بهذا لأتيْنا بمثله؛ لذلك تأتي المعجزة فيما نبغُوا فيه ، وعَلموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغَ قوم موسى عليه السلام في السحر كانت معجزته من نوع السحر الذي يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى عليه السلام ونبغ قومه في الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان عليه السلام يبريء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

فلما بُعِث محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبغ قومه في البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلّقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازاً بها ، فكان لا بُدَّ أنْ يتحدّاهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه وهي القرآن الكريم ، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كُلٌّ منها حال القوم ، وتتحدّاهم بما اشتهروا به ، لتكون أَدْعى للتصديق وأثبت للحجة .

ومن معاني كلمة آية : آيات القرآن الكريم التي نُسميّها حاملة الأحكام ، فإذا كانت الآية هي الأمر العجيب ، فما وجه العجب في آيات القرآن؟

وجه العجب في آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات في أُمّة أُمية ، وأُنزِلتْ على نبي أُميٍّ في قوم من البدو الرُّحل الذين لا يجيدون شيئاً غير صناعة القول والكلام الفصيح ، ثم تجد هذه الآيات تحمل من القوانين والأحكام والآداب ما يُرهب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما حضارة فارس في الشرق ، وحضارة الرومان في الغرب ، فنراهم يتطلّعون للإسلام ، ويبتغون في أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا عجيباً؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التي هي آيات الكتاب الكريم ، والتي نُسمّيها حاملة الأحكام ، هل تتبدّل هي الأخرى كسابقتها؟

نقول : آيات الكتاب لا تتبدّل؛ لأن أحكام الله المطلوبة مِمَّن عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم كالأحكام المطلوبة مِمَّنْ تقوم عليه الساعة .

وقد سُبق الإسلام باليهودية والمسيحية ، فعندنا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة . اعترض على ذلك اليهود وقالوا : ما بال محمد لا يثبتُ على حال ، فيأمر بالشيء اليوم ، ويأمر بخلافه غداً ، فإنْ كان البيت الصحيح هو الكعبة فصلاتكم لبيت المقدس باطلة ، وإنْ كان بيت المقدس هو الصحيح ، فصلاتكم للكعبة باطلة .

لذلك قال الحق تبارك وتعالى :

{ وَإِذَا بَدَّلْنَآ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ . . } [النحل : 101] .

فالمراد بقوله الحق سبحانه :

{ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ . . . } [النحل : 101] .

أي : جِئْنا بآية تدلُّ على حكم يخالف ما جاء في التوراة ، فقد كان استقبال الكعبة في القرآن بدل استقبال بيت المقدس في التوراة .

وقوله : { والله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ . . } [النحل : 101]

أي : يُنزل كل آية حَسْب ظروفها : أمةً وبيئةً ومكاناً وزماناً .

وقوله : { قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ . . } [النحل : 101] .

أي : اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب المتعمد ، وأن هذا التحويل من عنده ، وليس وَحْياً من الله تعالى؛ لأن أحكام الله لا تتناقض . ونقول : نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض في الدين الواحد ، أما إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القرآن الكريم لا تتبدّل ، ولكن يحدث فيها نَسْخ ، كما قال الحق تبارك وتعالى : { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . } [البقرة : 106] .

وإليك أمثلة للنسْخ في القرآن الكريم :

حينما قال الحق سبحانه : { فاتقوا الله مَا استطعتم . . } [التغابن : 16] .

جعل الاستطاعة ميزاناً للعمل ، فالمشرّع سبحانه حين يرى أن الاستطاعةَ لا تكفي يُخفّف عنَّا الحكم ، حتى لا يُكلِّفنا فوق طاقتنا ، كما في صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى : { لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا . . . } [البقرة : 286] .

وقال : { لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ مَآ آتَاهَا } [الطلاق : 7] .

فليس لنا بعد ذلك أنْ نلويَ الآيات ونقول : إن الحكم الفلاني لم تَعُدْ النفس تُطيقه ولم يَعُد في وُسْعنا ، فالحق سبحانه هو الذي يعلم الوُسْع ويُكلّف على قَدْره ، فإنْ كان قد كلّف فقد علم الوُسْع ، بدليل أنه سبحانه إذا وجد مشقة خفَّف عنكم من تلقاء نفسه سبحانه ، كما قال تعالى : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً . . } [الأنفال : 66] .

ففي بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

{ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ } [الأنفال : 65] .

أي : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضَعْفاً ، قال : { الآن خَفَّفَ الله عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُنْ مِّنكُمْ مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ . . } [الأنفال : 66] .

أي : نسبة واحد إلى اثنين . فالله تعالى هو الذي يعلم حقيقة وُسْعنا ، ويُكلِّفنا بما نقدر عليه ، ويُخفِّف عَنَّا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أنْ نُقحِم أنفسنا في هذه القضية ، ونُقدّر نحن الوُسْع بأهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُنْته ذاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال : {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ . . } [البقرة : 180] .

فلما استقر الإيمان في النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً ، وغَيَّر الحكم من الوصية إلى خير منها وهو الميراث ، فقال تعالى : { وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السدس . . } [النساء : 11] .

إذن : الحق تبارك وتعالى حينما يُغيّر آية ينسخها بأفضل منها .

وهذا واضح في تحريم الخمر مثلاً ، حيث نرى هذا التدريج المحكم الذي يراعي طبيعة النفوس البشرية ، وأن هذا الأمر من العادات التي تمكَّنَتْ من النفوس ، ولا بُدَّ لها من هذا التدرُّج ، فهذا ليس أمراً عَقَدياً يحتاج إلى حُكْم قاطع لا جدال فيه .

فانظر إلى هذا التدرج في تحريم الخمر : قال تعالى : { وَمِن ثَمَرَاتِ النخيل والأعناب تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً } [النحل : 67] .

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا : لقد بيَّت الله للخمر أمراً في هذه الآية؛ ذلك لأنه وصف الرزق بأنه حَسَن ، وسكت عن السَّكَر فلم يصفه بالحُسْن ، فدلَّ ذلك على أن الخمر سيأتي فيه كلام فيما بعد .

وحينما سُئِل صلى الله عليه وسلم عن الخمر رَدَّ القرآن عليهم : { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمر والميسر قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . } [البقرة : 219] .

جاء هذا على سبيل النصح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مَخْرجاً من أَسرْ هذه العادة السيئة .

ثم لُوحِظ أن بعض الناس يُصلي وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون ، فجاء الحكم : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . } [النساء : 43] .

ومقتضى هذا الحكم أنْ يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تتأتى لهم الصلاة دون سُكْر إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كافٍ ، وهكذا عوَّدهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذي يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكَّن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة ألفَتْ فيها تَرْك الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مُهيّئة لتقبُّل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

{ ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه . . } [المائدة : 90] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحُكْماً بما هو أحسن منه .

والعجيب أنْ نرى من علمائنا مَنْ يتعصّب للقرآن ، فلا يقبل القول بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول : { مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . } [البقرة : 106] .

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمَّى البداء . . ففي النسخ كأن الله تعالى أعطى حُكْماً ثم تبيّن له خطؤه ، فعدل عنه إلى حُكْم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب في هذا القول ، فمعنى النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا المعنى يقع النسخ في القرآن الكريم .

ومنهم مَنْ يقف عند قوه الحق تبارك وتعالى : { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . . } [البقرة : 106] .

فيقول : { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا } فيها عِلَّة للتبديل ، وضرورة تقتضي النسخ وهي الخيرية ، فما عِلَّة التبديل في قوله : { أَوْ مِثْلِهَا } ؟

أولاً : في قوله تعالى : { نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا } قد يقول قائل : ولماذا لم يَأْتِ بالخيرية من البداية؟

نقول : لأن الحق سبحانه حينما قال : { يأيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ . . } [آل عمران : 102] .

وهذه منزلة عالية في التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ، شَقَّتْ هذه الآية على الصحابة وقالوا : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله؟

فنزلت : { فاتقوا الله مَا استطعتم . . } [التغابن : 16] .

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الأولى مطلوباً ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فَمنْ أراد أنْ يرتقي بتقواه إلى (حَقّ تُقَاتِهِ) فبها ونِعْمت ، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى : { اتقوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ . . . } [آل عمران : 102] .

وإنْ كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قِلَّة ، في حين أن الثانية : { فاتقوا الله مَا استطعتم . . } [التغابن : 16] .

وإنْ جعلتَ التقوى على قَدْر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ، ومن هنا كانت الثانية خَيْراً من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما في قوله تعالى : { أَوْ مِثْلِهَا } أي : أن الأولى مِثْل الثانية ، فما وَجْه التغيير هنا ، وما سبب التَبديل؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلَّف في مدى طاعته وانصياعه ، إنْ نُقِل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقَّة في هذا ، ولا تيسيرَ في ذاك ، هل سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش؟

مثل هذه القضية واضحة في حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس في الاتجاه نحو بيت

المقدس ، ولا تيسير عليهم في الاتجاه نحو الكعبة ، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله ، فكان من الناس مَنْ قال : سمعاً وطاعة ونفّذوا أمر الله فوراً دون جدال ، وكان منهم مَن اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضاً ما نراه في مناسك الحج مما سنَّه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث نُقبل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمي الجمرات وهي أيضاً حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هي لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى :

{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [النحل : 101] .

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ، فالحق سبحانه وتعالى يُلغي كلامهم السابق :

{ قالوا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ . . . } [النحل : 101] .

ويقول لهم : لا ليس بمفتر ولا كذاب ، فهذا اتهام باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة { أَكْثَرُهُمْ } هنا ليس بالضرورة أنْ تقابل بالأقل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون .

وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء في قول الحق سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18] .

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمنه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حَقَّ عليه العذاب ، فلم يقُلْ القرآن : وقليل حَقَّ عليه العذاب .

وعلى فَرْض أن :

{ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [النحل : 101] .

إذن : هناك أقلية تعلم صِدْق رسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صِدْق كل آية في مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية .

فَمنْ هم هؤلاء الذين يعلمون في صفوف الكفار والمشركين؟

قالوا : لقد كان بين هؤلاء قَوْم أصحاب عقول راجحة ، وفَهْم للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب في هذه المسألة ، ولكنهم أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى : { وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتهآ أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً } [النمل : 14] .

وأيضاً من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون في الهدى ، ويُراودهم الإسلام ، وكأن لديهم مشروعَ إسلام يُعِدون أنفسهم له ، وهم على علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضاً من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التي تدفع عنهم ، والعصبية التي تردّ عنهم كَيْد الكفار ، وليس عندهم أيضاً طاقة أنْ يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم مؤمنون ويعلمون صِدْق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرة لهم على إعلان إيمانهم .

وفي هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى : { وَهُوَ الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . . } [الفتح : 24-25] .

أي : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم . { لِّيُدْخِلَ الله فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [الفتح : 25] .

أي : لو كانوا مُميّزين ، الكفار في جانب ، والمؤمنون في جانب لَعذَّبْنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإنَّ غير الأكثرية يعلم أنهم كاذبون في قولهم :

{ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ } [النحل : 101] .

وما داموا اتهموك بالافتراء فقُلْ رداً عليهم : { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ . . . } .

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يرد على الكفار افتراءهم على رسول الله ، واتهامهم له بالكذب المتعمد ، وأنه جاء بهذه الآيات من نفسه ، فقال له : يا محمد قُلْ لهؤلاء : بل نزَّله روح القُدس . والقدس : أي المطهّر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول : حاتم الجود مثلاً . والمراد ب « روح القُدُس » سفير الوحي جبريل عليه السلام ، وقد قال عنه في آية أخرى : { نَزَلَ بِهِ الروح الأمين } [الشعراء : 193] .

وقال عنه : { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي العرش مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } [التكوير : 19-21] .

وقوله الحق سبحانه :

{ مِن رَّبِّكَ بالحق . . . } [النحل : 102] .

أي : أن جبريل لم يأْتِ بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمُحمد صلى الله عليه وسلم لم يَأْتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

{ لِيُثَبِّتَ الذين آمَنُواْ وَهُدًى وبشرى لِلْمُسْلِمِينَ } [النحل : 102] .

أي : ليُثبِّتَ الذين آمنوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلمُ بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسِبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفي هذا دليلٌ على أن المؤمنين طائعون مُنصَاعون لله تعالى مُصدِّقون للرسول صلى الله عليه وسلم في كُلِّ ما بلغ عن ربه تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ . . . } .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (103)

وفي هذه الآية اتهام آخر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وافتراء جديد عليه ، لا يأنف القرآن من إذاعته ، فمَنْ سمع الاتهام والافتراء يجب أن يسمع الجواب ، فالقرآن يريد أنْ يفضحَ أمر هؤلاء ، وأنْ يُظهِر إفلاس حُججهم وما هم فيه من تخبُّط .

يقول الحق تبارك وتعالى :

{ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . } [النحل : 103] .

وقد سبق أنْ قالوا عن رسول الله « مجنون » وبرَّأه الله بقوله تعالى : { وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 4] .

والخلقُ العظيم لا يكون في مجنون؛ لأن الخُلُق الفاضل لا يُوضع إلا في مكانه ، بدليل قوله تعالى : { مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } [القلم : 2] .

وسبق أنْ قالوا : ساحر وهذا دليل على أنهم مغفلون يتخبَّطون في ضلالهم ، فلو كان محمد ساحراً ، فَلِمَ لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهي المسألة؟

وسبق أنْ قالوا « شاعر » مع أنهم أدْرى الناس بفنون القول شِعْراً ونثراً وخطابة ، ولم يُجرِّبوا على محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك ، لكنه الباطل حينما يَلجّ في عناده ، ويتكبّر عن قبول الحق .

وهنا جاءوا بشيء جديد يُكذِّبون به رسول الله ، فقالوا :

{ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . } [النحل : 103] .

أي : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه القرآن فقالوا : إنه غلام لبي عامر بن لؤي اسمه (يعيش) ، وكان يعرف القراءة والكتاب ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرأ قصص السابقين مثل عنترة وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربتْ أقوالهم في تحديد هذا الشخص الذي يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلّم على يديه ، فقالوا : اسمه « عداس » وقال آخرون : سلمان الفارسي . وقال آخرون :

بَلْعام وكان حداداً رومياً نصرانياً يعلم كثيراً عن أهل الكتاب . . الخ .

والحق تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء ، ويُظهِر إفلاسهم الفكري ، وإصرارهم على تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

{ لِّسَانُ الذي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103] .

اللسان هنا : اللغة التي يُتحدَّث بها .

ويُلحِدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعلِّم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أعجمي : أي لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقُلْ (عجمي) ، لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبوَيْه صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عَجمي .

أما الأعجمي فهو الذي لا يُفصح ولا يُبين ، حتى وإنْ كان عربياً . وقد كان في قبيلة لؤي رجل اسمه زياد يُقال له « زياد الأعجمي » لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربي .

إذن : كيف يتأتَّى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أنْ يُعلِّموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء بمعجزة في الفصاحة والبلاغة والبيان؟ كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم تردَّد إلى معلم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم؟

كما أن ما يحويه القرآن من آيات وأحكام ومعجزات ومعلومات يحتاج في تعلُّمه إلى وقت طويل يتتلمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جرّبْتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعقل أن ما في القرآن يمكن أن يطويه صَدْرُ واحدٍ من هؤلاء؟! لو حدث لكان له من المكانة والمنزلة بين قومه ما كان للنبي صلى الله عليه وسلم من منزلة ، ولأشاروا إليه بالبنان ولذَاع صِيتُه ، واشتُهر أمره ، وشيء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

{ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ } [النحل : 103] .

أي : لغته صلى الله عليه وسلم ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبِينة ، لا لَبْسَ فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ . . } .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104)

الحق تبارك وتعالى في قوله :

{ إِنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ الله . . } [النحل : 104] .

ينفي عن هؤلاء صفة الإيمان ، فكيف يقول بعدها :

{ لاَ يَهْدِيهِمُ الله . . . } [النحل : 104] .

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مُهْتدين؟

قُلْنا : إن الهداية نوعان :

هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوي فيها المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله الجميع ، وأوضح الطريق للجميع ، ومنها قوله تعالى : { وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى . . . } [فصلت : 17] أي : أرشدناهم ودَلَلْناهم .

وهداية المعونة والتوفيق ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن ، ومنها قوله تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

إذن : معنى :

{ لاَ يَهْدِيهِمُ الله . . } [النحل : 104] .

أي : هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً : إن الجهة هنا مُنفكّة إلى شيء آخر ، فيكون المعنى : لا يهديهم إلى طريق الجنة ، بل إلى طريق النار ، كما قال تعالى : { إِنَّ الذين كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ الله لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً * إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ . . } [النساء : 168-169] .

بدليل قوله تعالى بعدها :

{ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النحل : 104] .

ولأنه سبحانه في المقابل عندما تحدّث عن المؤمنين قال : { وَيُدْخِلُهُمُ الجنة عَرَّفَهَا لَهُمْ } [محمد : 6] .

أي : هداهم لها وعرَّفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّمَا يَفْتَرِي . . } .

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (105)

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله واتهمتموه بالكذب الحقيقي أنْ تُكذّبوا بآيات الله ، ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ في تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يَقُلْ : وأولئك هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما « سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيسرق المؤمن؟ قال : » نعم « لأن الله

قال : { والسارق والسارقة } [المائدة : 38] .

فما دام قد شرَّع حُكْماً ، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر وارداً ومحتمل الحدوث . » وسئل : أيزني المؤمن؟ قال : « نعم » ، لأن الله قال : { الزانية والزاني } [النور : 2] . « وسئل : أيكذب المؤمن؟ قال : » لا « .

والحديث يُوضّح لنا فظاعة الكذب وشناعته ، وكيف أنه أعظم من كل هذه المنكرات ، فقد جعل الله لكل منها عقوبة معلومة في حين ترك عقوبة الكذب ليدل على أنها جريمة أعلى من العقوبة وأعظم .

إذن : الكذب صفة لا تليق بالمؤمن ، ولا تُتصوّر في حَقِّه؛ ذلك لأنه إذا اشتُهِر عن واحد أنه كذاب لما اعتاده الناس من كذبه ، فنخشى أن يقول مرة : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فيقول قائل : إنه كذاب وهذه كذبة من أكاذيبه .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَن كَفَرَ بالله . . . } .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106)

الحق سبحانه وتعالى سبق وأنْ تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدّث عن الذين يخلفون العهد ولا يُوفون به ، ثم تحدث عن الذين افترَوْا على رسول الله والذين كذَّبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لا بُدَّ أنْ تُثار .

وفي هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فالقول وحده لا يكفي ولا بُدَّ وأنْ تشهدَ بذلك ، ومعنى تشهد أنْ يُواطِيء القلب واللسان كل منهما الآخر في هذه المقولة .

والمتأمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضي أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أنْ يُواطِيءَ القلب اللسان إيجاباً بالإيمان؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقيّ في إيمانه؛ لأنه يقول ما يُضمره قلبه .

الثانية : أنْ يُواطِيءَ القلب اللسان سلباً أي : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقي في كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أنْ يؤمن بلسانه ويُضمِرَ الكفر في قلبه ، وهذه حالة المنافق ، وهو غير منطقي في إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هي المرادة في هذه الآية . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر؟ وما جزاؤه؟

قوله :

{ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمَانِهِ . . } [النحل : 106] .

هذه جملة الشرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخْلَ للإنسان فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، في حين قلبه مطمئن بالإيمان .

{ مَن كَفَرَ بالله مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان . . } [النحل : 106] .

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلّنا على أنه لا شيءَ عليه ، ولا بأسَ أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهي رخصة تقي الإنسان موارد الهلاك في مثل هذه الأحوال .

وفي تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقتْ كلمة الكفر وهي مطمئنة بالإيمان .

وفي الحديث الشريف : « رفع عن أمتي : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه » .

ويذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين في الإسلام ، فكيف استشهدا؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرّضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة مقابل العفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين؟ صَدَعا بالحق وأصرَّا على الإيمان حتى نالا الشهادة في سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أخذ بها ، حينما تعرّض لتعذيب المشركين . « وقد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمار بن ياسر كفر ، فأنكر صلى الله عليه وسلم هذا ، وقال : » إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان في عمار قد اختلط بلحمه ودمه « .

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكي ، ثم قص عليه ما تعرَّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلَّصني من أيديهم إلا أنِّي تناولتك وذكرت آلهتهم بخير ، فما كان من النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له » إنْ عادوا إليك فَقُلْ لهم ما قلت « .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : فما بال بلال؟ فقال : » عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق « .

ولا شكَّ أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأهله ، وأن الصَّدْعَ بالحق والصبر على البلاء أعْلَى منزلةً ، وأَسْمَى درجة من الأَخْذ بالرخصة؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

لذلك ، « ففي حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نُبوّته ، فقال لرجل : ما تقول في محمد؟ قال : رسُول الله ، قال : فما تقول فِيَّ؟ فقال

الرجل في لباقة : وأنت كذلك ، يعني أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحة بنبوة هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول في محمد؟ قال : رسول الله ، قال : وما تقول فَيَّ؟ فقال الرجل متهكماً : اجهر لأني أصبحت أصمَّ الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل .

فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما قال : » أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق « .

وقد تحدَّث العلماء عن الإكراه في قوله تعالى :

{ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان . . } [النحل : 106] .

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالي :

إذا أكره الإنسان على أمر ذاتيّ فيه . كأن قيل له : اشرب الخمر وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك قالوا : يجب عليه في هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس مَنْ يعصون الله بشربها . فإنْ قيل له : اكفر بالله وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك ، قالوا : هو مُخيَّر بين أن يأخذ بالتقيّة هنا ، ويستخدم الرخصة التي شرعها الله له ، أو يصدع بالحق ويصمد .

أما إذا تعلّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير ، كأنْ قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلتك ، ففي هذه الحالة لا يجوز لك قَتْله؛ لأنك لو قتلتهُ لقُتِلْت قِصَاصاً ، فما الفائدة إذن؟ .

وبعد أن تحدّث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أكرهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ، يتحدث عن النوع الآخر :

{ ولكن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً . . } [النحل : 106] .

أي : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُنْشرِحاً بها صدره ، وهذا النوع هو المقصود في جواب الشرط .

{ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } [النحل : 106] .

فإنْ كانت الآيات قد سكتت عَمَّنْ أُكرهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكره ، فقد بيَّنت أن من شرح بالكفر صدراً عليه غضب من الله أي : في الدنيا . ولهم عذاب عظيم أي : في الآخرة .

وكما رأينا في تاريخ الإسلام نماذج للنوع الأول الذي أُكْرِه وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صَدْراً ، وهم المنافقون ، ومنهم مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبي السرح من عامر بن لؤي .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا . . } .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (107)

{ ذلك } أي : ما استحقوه من العذاب السابق .

{ ذلك بِأَنَّهُمُ استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة . . } [النحل : 107] .

استحب : أي آثر وتكلَّف الحب؛ لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أَنْ تُحبَّ لذاتها ، ولَوجدَ الأغيار بها كثيرة تتقلَّب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدّل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السَّقَم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة؟!

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أنْ نعطي كلاً من الدنيا والآخر ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة في حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلاَّ ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله؟

لذلك نقول : إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسى ، وأتفه من أن تكون غاية ، وقد قال الحق سبحانه : { وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدنيا . . } [القصص : 77] .

ففهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأخذ الحظوظ منها ، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيّناً مُعرَّضاً للنسيان والإهمال ، فيُذكِّرنا بها ، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب ، فأنا لا أقول لك : لا تنسَ الشيء الفلاني إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان ، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال في الإسلام .

ويكفينا وَصْف هذه الحياة بالدنيا ، فليس هناك وَصْفٌ أقلّ من هذا الوصف ، والمقابل لها يقتضي أن نقول : العُلْيا وهي الآخرة ، نعم نحن لا ننكر قَدْر الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها ، ففيها الحياة والحسّ والحركة ، وفيها العمل الصالح والذكْرى الطيبة . . الخ .

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء ، في حين أن الآخرة هي الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التي لا يعتريها زوال ، ولا يهددها موت ، كما قال الحق سبحانه : { وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ } [العنكبوت : 64] .

أي : الحياة الحقيقية التي يجب أن نحرص عليها ونحبها .

ومن ذلك قوله تعالى : { يأيها الذين آمَنُواْ استجيبوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ . . } [الأنفال : 24] .

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرزَقُون؟ قالوا : يُحييكم أي : الحياة الحقيقية الباقية التي لا تزول .

وقوله :

{ على الآخرة . . . } [النحل : 107] .

لقائل أن يقول : إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة ، فكيف يُقَال عنهم :

{ استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة . . } [النحل : 107] .

نقول : من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم :

{ وَأَقْسَمُواْ بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ الله مَن يَمُوتُ } [النحل : 38] .

وأيضاً منهم مَنْ قال : { وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنْقَلَباً } [الكهف : 36] .

إذن : من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة ، ولكنه يُفضّل عليها الدنيا .

قوله تعالى :

{ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [النحل : 107] .

أي : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوي فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

إذن : إذا نفيتَ الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصبتْ على الكافر لكونه كافراً ، فكأن كُفْره سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يَهْده الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه : { أولئك الذين طَبَعَ . . } .

أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (108)

طبع : أي ختم عليها ، وإذا تأملتَ الختْم وجدتَ المقصود منه أن الشيء الداخل يظلّ داخلاً لا يخرج ، وأن الخارج يظل خارجاً لا يدخل .

وفَرْقٌ بين ختم البشر وختم ربّنا سبحانه ، فقصارى ما نفعله أن نختم الأشياء المهمة كالرسائل السرية مثلاً ، أو نريد إغلاق مكان ما نختم عليه بالشمع الأحمر لنتأكد من غلقه ، ومع ذلك نجد مَنْ يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا ختم الحق سبحانه وتعالى على شيء فلا يستطيع أحد التحايل عليه سبحانه .

فالمراد إذن بقوله تعالى :

{ طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ . . } [النحل : 108] .

أن ما فيها من الكفر لا يخرج منها ، وما هو خارجها من الإيمان لا يدخل فيها؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذي تصبّ فيه الحواس التي هي وسائل الإدراكات المعلومية ، وأهمها السمع والبصر .

فالبسمع تسمع الوحي والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله في كونه وعجيب صُنْعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفتْ هذه الحواسّ عما أراده الله منها ، وبدل أن تمدّ القلب بدلائل الإيمان تعطَّلتْ وظيفتها .

فالسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْع اعتباريّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبصر ما حرم الله فلا يوجد بصر اعتباري ، فما الذي سيصل إلى القلب إذن من خلال هذه الحواس؟

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله في كونه فلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أراد الإيمان قلنا له : لا بُدَّ أن تُخرِج الكفر من قلبك أولاً ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان في قلب واحد؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى في الماديات يسمونه (عدم التداخل) يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فترى أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء . فكذلك الحال في الأوعية المعنوية .

فإن أردت الإيمان أيها الكافر فأخرجْ أولاً ما في قلبك من الكفر؛ واجعله مُجرّداً من كل هوى ، ثم ابحث بعقلك في أدلة الكفر وأَدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدْخله في قلبك ، لكن أنْ تبحث أدلة الإيمان وفي جوفك الكفر فهذا لا يصحّ ، لا بُدَّ من إخلاء القلب أولاً وتجعل الأمريْن على السواء .

لذلك يقول الحق سبحانه : { مَّا جَعَلَ الله لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ } [الأحزاب : 4] .

وفي الأثر : « لا يجتمع حب الدنيا وحب الله في قلب واحد » .

لأن الإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعلْه مزدحماً بالمظروف فيه .

كما أن طَبْع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعطي عبده مراده ، حتى وإنْ كان مراده الكفر ، وكأنه سبحانه يقول لهؤلاء : إنْ كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنشرح له صدوركم فسوف اطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، بل وأزيدكم منه إنْ أحببتُمْ ، كما قال تعالى :

{ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً . . } [البقرة : 10] .

فهنيئاً لكم بالكفر ، واذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم .

وقوله : { وأولئك هُمُ الغافلون } [النحل : 108] .

الغافل : مَنْ كان لديه أمر يجب أن يتنبه إليه ، لكنه غفل عنه ، وكأنه كان في انتظار إشارة تُنبّه عقله ليصل إلى الحق .

ثم يُنهي الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى : { لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ . . . } .

لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (109)

فقوله تعالى :

{ لاَ جَرَمَ . . } [النحل : 109] .

أي : حقاً ولا بُدَّ ، أولاً جريمة في أن يكون هؤلاء خاسرين في الآخرة ، بما اقترفوه من مُوجبات الخسارة ، وبما أَتَوْا به من حيثيّات ترتَّبَ عليها الحكم بخسارتهم في الآخرة ، فقد حقَّ لهم وثبت

لهم ذلك .

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحيثيات ، بدايةً من قَوْلهم عن رسول الله : { إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ . . . } [النحل : 101] .

وقولهم : { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . . . } [النحل : 103] .

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانشراح صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبتْ لهم الخسران في الآخرة يوم تُصفّي الحسابات ، وتنكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْراناً مَن اقتراف كل هذه الجرائم؟!

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ . . . } .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110)

قوله تعالى : { فُتِنُواْ . . . } [النحل : 110] .

أي : ابتلوا وعُذِّبوا عذاباً أليماً؛ لأنهم أسلموا .

وقوله : { إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 110] .

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعبادة الذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب ليئسَ من رحمة الله ، ولتحوَّل وإن أذنب ولو ذنباً واحداً إلى مجرم يشقَى به المجتمع ، فلم يَرَ أمامه بارقة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويغفر ذنب المسيء ، كما جاء في الحديث الشريف : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إنْ أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدِّل سيئاته حسناتٍ ، كما قال سبحانه : { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئك يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُوراً رَّحِيماً } [الفرقان : 70] .

لو رأى المذنب ذلك كان أَدْعى لإصلاحه ، وأجْدَى في انتشاله من الوَهْدة التي تردَّى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى؛ لذلك قال سبحانه : { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا . . } [التوبة : 118] .

أي : شرع لهم التوبة ودَلَّهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإنْ اغترَّ مُغْترٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لي حسنات . نقول

له : ومَنْ يدريك لعله لا ينطبق عليك شروط الذين يُبدّل الله سيئاتهم حسنات ، وهل تضمن أنْ يُمهِلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتي بغتة؟

ثم يقول الحق سبحانه : { يَوْمَ تَأْتِي . . . } .

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)

قد يكون المعنى في هذه الآية على اتصال بالآية السابقة ، ومتعلق بها ، فيكون المراد : { إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 110] .

يحدث هذا :

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا . . . } [النحل : 111] .

أي : يوم القيامة . أو يكون المعنى : اذكر يا محمد :

{ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا } [النحل : 111] .

وهل للإنسان أكثر من نفس ، فتجادل إحداهما عن الأخرى؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة في الدنيا والآخرة ، ولكنها تختلف في الدنيا عنها يوم القيامة؛ لأن الحق سبحانه منحها في الدنيا الاختيار ، وجعلها حرة في أن تفعل أو لا تفعل ، فكان من النفوس : الطائعة ، والعاصية ، والمنصاعة ، والمكابرة .

فإذا ما وقفت النفس في موقف القيامة ، وواجهتْ الحق الذي كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة ، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها ، فكأن النفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا في موقف ينادي فيه الحق تبارك وتعالى : { لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار } [غافر : 16] .

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة ، فقال تعالى : { والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ } [الأنعام : 23] .

{ والذين اتخذوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . } [الزمر : 3] .

{ رَبَّنَآ أَرِنَا الذين أَضَلاَّنَا مِنَ الجن والإنس نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا . . . } [فصلت : 29] .

إذن : هي نفس واحدة ، تجادل عن نفسها في يوم لا تجزي فيه نفس عن نفس ، فكلٌّ مشغول بكَرْبه ، مُحاسَب بذنبه ، كما قال تعالى : { يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وصاحبته وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امرىء مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ } [عبس : 34-37] .

وقوله تعالى :

{ وتوفى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [النحل : 111] .

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ، فالميزان ميزان عَدْل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً . { فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ } [

الزلزلة : 7-8] .

وقوله تعالى : { وتوفى . . } [النحل : 111] .

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جَوْر ، فالجميع عبيد الله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإنْ رحمهم فبفضله ، وإنْ عذَّبهم فبعدْله ، وقد قال تعالى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً . . } .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (112)

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلَّم عن الإيمان بالله والإيمان بصدق رسوله في البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله في الكتاب والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله وللرسول وللمنهج . أراد سبحانه أنْ يعطينا واقعاً ملموساً في الحياة لكل ذلك ، فضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابهاً تاماً في ناحية معينة بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماماً .

والهدف من ضرب الأمثال أنْ يُوضِّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل فلان المعلوم لك في الطول ومثل فلان في اللون . . إلخ من الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تُكوِّن صورة كاملة لهذا الشخص الذي لا تعرفه .

لذلك ، فالشيء الذي لا مثيلَ له إياك أن تضرب له مثلاً ، كما قال الحق سبحانه : { فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلَّهِ الأمثال } [النحل : 74] .

لأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا نظير له ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، وهو سبحانه الذي يضرب المثل لنفسه ، أما نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه .

لذلك نجد في القرآن الكريم أمثالاً كثيرة توضح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوي بالأمر الحسيّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضربه الله لنا مثلاً في الإنفاق في سبيل الله ، وأن الله يضاعف النفقة ، ويُخلِف على صاحبها أضعافاً مضاعفة ، فانظر كيف صوَّر لنا القرآن هذه المسألة : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261] .

وهكذا أوضح لنا المثل الأمر الغيبي المجهول بالأمر المحسّ المُشَاهد الذي يعلمه الجميع ، حتى

استقرَّ هذا المجهول في الذهن ، بل أصبح أمراً مُتيقّناً شاخصاً أمامنا .
والمتأمل في هذا المثل التوضيحي يجد أن الأمر الذي وضّحه الحق سبحانه أقوى في العطاء من الأمر الذي أوضح به ، فإنْ كانت هذه الأضعاف المضاعفة هي عطاء الأرض ، وهي مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى؟
وكلمة (ضَرَبَ) مأخوذة من ضَرْب العملة ، حيث كانت في الماضي من الذهب أو الفضة ، ولخوف الغش فيها حيث كانوا يخلطون الذهب مثلاً بالنحاس ، فكان النقاد أي : الخبراء في تمييز العملة يضربونها أي : يختمون عليها فتصير مُعتمدة موثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .
كذلك إذا ضرب الله مثلاً لشيء مجهول بشيء معلوم استقرَّ في الذهن واعتُمِد .
فقال تعالى في هذا المثل :
{ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً . . } [النحل : 112] .
الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها ، ولم يشكره عليها ، ولم يُؤدِّ حق الله فيها ، واستعمل نعمة الله في معصيته فقد عرَّضها للزوال ، وعرَّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيَّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ، لذلك قال الشاعر :

إذَا كُنْتَ في نعمةٍ فَارْعَها ... فَإنَّ المَعَاصِي تُزيلُ النِّعَم
وحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإلهِ ... فَإنَّ الإلَه شَدِيدُ النِّقَم

ولكن ، القرية التي ضربها الله لنا مثلاً هنا ، هل هي قرية معينة أم المعنى على الإطلاق؟ قد يُراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة ، أو غيرها من القرى ، وعلى كلٍّ فتحديدها أمر لا فائدة منه ، ولا يُؤثِّر في الهدف من ضَرْب المثل بها .
والقرية : اسم للبلد التي يكون بها قِرىً لمن يمرُّ بها ، أي : بلد استقرار . وهي اسم للمكان فإذا حُدِّث عنها يراد المكين فيها ، كما في قوله تعالى : { وَسْئَلِ القرية التي كُنَّا فِيهَا والعير التي أَقْبَلْنَا فِيهَا . . } [يوسف : 82] .
فالمراد : اسأل أهل القرية؛ لأن القرية كمكان لا تُسأل . . هكذا قال علماء التفسير ، على اعتبار أن في الآية مجازاً مرسلاً علاقته المحلية .
ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مدداً جديداً ، كما قال سبحانه : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ . . } [فصلت : 53] .
والآن تطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين ، فمثلاً يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجِّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .
ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن

أن نقول : إن القرية يمكن أنْ تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجِّل وتحتفظ بما سجَّلته ، بل وأكثر من ذلك يتطلعون لإعادة الصور والأصوات من بَدْء الخليقة على اعتبار أنها موجودة في الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تَضِع .

وما أشبه هذه الموجات بانديا ح الماء إذا ألقيتَ فيه بحجر ، فينتج عنه عدة دوائر تبتعد عن مركزها إلى أنْ تتلاشى بالتدريج .

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ، لأن أهلها قد يكذبون ، أما هي فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الأداء القرآني .

وقوله تعالى : { كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً . . . } [النحل : 112] .

آمنةً : أي في مَأْمَن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نِعَم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : { مُّطْمَئِنَّةً . . } [النحل : 112] .

أي : لديها مُقوِّمات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقرَّة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا في المكان الخالي من المنغِّصات ، والذي يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال : { لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشتآء والصيف * فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ }

[قريش : 1-4] .

فطالما شبعت البطن ، وأمنتْ النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا صورة مُثْلى للحياة الدنيا ، فيقول : « مَنْ أصبح معافىً في بدنه ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

{ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ . . . } [النحل : 112] .

معلوم أن الناس هم الذين يخرجون لطلب الرزق ، لكن في هذه القرية يأتي إليها الرزق ، وهذا يُرجِّح القول بأنها مكة؛ لأن الله تعالى قال عنها : { أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقاً مِّن لَّدُنَّا ولكن أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ } [القصص : 57] .

ومن تيسَّر له العيش في مكة يرى فيها الثمرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمَّتْ لهم النعمة واكتملتْ لديهم وسائل الحياة الكريمة الآمنة الهانئة ، فماذا كان منهم؟ هل استقبلوها بشكر الله؟ هل استخدموا نعمة عليهم في طاعته ومَرْضاته؟ لا . . بل :

{ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله . . } [النحل : 112] .

أي : جحدت بهذه النعم ، واستعملتها في مصادمة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

{ فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

وكأن في الآية تحذيراً من الحق سبحانه لكل مجتمع كفر بنعمة الله ، واستعمل النعمة في مصادمة منهجه سبحانه ، فسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

{ فَأَذَاقَهَا الله . . } [النحل : 112] .

من الذوق ، نقول : ذاق وتذوَّق الطعام إذا وضعه على لسانه وتذوَّقه . والذَّوْق لا يتجاوز حلمات اللسان . إذن : الذوْق خاصٌّ بطعْم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقُلْ : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

{ لِبَاسَ الجوع والخوف . . } [النحل : 112] .

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان ، والمتأمل في الآية يطالع دقّة التعبير القرآني ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس في البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون في الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهتْ الشحوم تغذَّى الجسم على اللحم ، ثم بدأ ينحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هُزَالاً وذبولاً ، ثم ينكمش ويجفّ ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجي على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً في الأرض : { تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ الناس إِلْحَافاً . . } [البقرة : 273] .

وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كثوب يرتديه .

وهكذا جَسَّد لنا التعبير القرآني هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسَّة التذوق؛ لأنها أقوى الحواسّ .

وفي تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يُوحي بشمولهما الجسم كله ، كما يلفّه اللباس فليس الجوع في المعدة فقط ، وليس الخوف في القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتُهِر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فنراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَسِيغُ مَودَّتِي ... فَأُحِسُّ مِنْها في الفُؤادِ دَبِيبَا

فإذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحوَّل الحب من القلب ، وسكَن جميع

الجوارح ، وخالط كل الأعضاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

لاَ عُضْو لِي إِلاَّ وَفِيهِ صَبَابَةٌ ... فَكأنَّ أَعْضَائِي خُلِقْنَ قُلُوبَا

وقوله : { بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112] .

أي : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنَّى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصُّدود والجحود والنكران ، وتعرَّضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيَّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً : « اللهم اشْدُدْ وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف » .

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ، حتى إنهم كانوا يأكلون الجيف ، ويخلطون الشعر والوبر بالدم فيأكلوه .

وظلوا على هذا الحال سبع سنين حتى ضَجُّوا ، وبلغ بهم الجَهْد والضَّنْك مُنْتهاه ، فأرسلوا وفداً منهم لرسول الله ، فقالوا : هذا عملك برجال مكة ، فما بال صبيانها ونسائها؟ فكان صلى الله عليه وسلم يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطيب .

أما لباس الخوف فتمثَّل في السرايا التي كان يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة لترهبهم وتزعجهم؛ ليعلموا أن المسلمين أصبحتْ لهم قوة وشوكة .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ . . . } .

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (113)

رأينا كيف كانت النعمة تامة على أهل مكة ، وقد تمثلت هذه النعمة في كَوْنها آمنة مطمئنة ، وهذه نعمة مادية يحفظ الله بها القالب الإنساني ، لكنه ما يزال في حاجة إلى ما يحفظ قِيَمه وأخلاقه .

وهذه هي نعمة النعم ، وقد امتنَّ الله عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولاً منهم ، فما فائدة النعم المادية في بلد مهزوزة القيم ، مُنْحلة الأخلاق ، فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُقوِّم ما اعوجّ من سلوكهم ، ويُصلح ما فسد من قِيَمهِم ومبادئهم .

وقوله : { مِّنْهُمْ . . . } [النحل : 113] .

أي : من جنسهم ، وليس غريباً عنهم ، وليس من مُطْلق العرب ، بل من قريش أفضل العرب وأوسطها .

يقول تعالى : { فَكَذَّبُوهُ . . } [النحل : 113] .

وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال ، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة ، ولكنهم كما كفروا بالنعم المادية كفروا أيضاً بالنعم القيمية متمثلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله : { فَأَخَذَهُمُ العذاب . . } [النحل : 113] .

مَنِ الذي أخذهم؟

لم تقُلْ الآية : أخذهم الله بالعذاب ، بل : أخذهم العذاب ، كأن العذابَ نفسه يشتاق لهم ، وينقضُّ عليهم ، ويسارع لأخذهم ، ففي الآية تشخيص يُوحي بشدة عذابهم .

كما قال تعالى في آية أخرى : { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امتلأت وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ } [ق : 30] .

ثم يقول تعالى : { فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله . . . } .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (114)

قُلْنا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم حينما اشتد الحال بأهل مكة حتى أكلوا الجيف ، كان يرسل إليهم ما يأكلونه من الحلال الطيب رحمة منه صلى الله عليه وسلم بهم فيقول :

{ فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله . . } [النحل : 114] .

أي : أن هذا الرزق ليس من عندي ، بل من عند الله .

{ حَلالاً طَيِّباً . . . } [النحل : 114] .

ذلك لأنهم كانوا قبل ذلك لا يتورَّعون عن أكل ما حرم الله ، ولا عن أكل الخبيث ، فأراد أن يُنبِّههم أن رِزْق الله لهم من الحلال الطيب الهنيء ، فيبدلهم الحلال بدل الحرام ، والطيب بدل الخبيث .

وقوله تعالى : { واشكروا نِعْمَتَ الله . . . } [النحل : 114] .

وهنا إشارة تحذير لهم أنْ يقعوا فيما وقعوا فيه من قَبْل من جُحود النعمة ونكْرانها والكفر بها ، فقد جَرَّبوا عاقبة ذلك ، فنزع الله منهم الأمْنَ ، وألبسهم لباسَ الخوف ، ونزع منهم الشَّبَع ورَغَد العيش ، وألبسهم لباس الجوع ، فخذوا إذن عبرة مما سلف :

{ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . . . } [النحل : 114] .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ . . . } .

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (115)

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ قال : { فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله حَلالاً طَيِّباً } [النحل : 114] .

أراد أن يُكرِّر معنًى من المعاني سبق ذكره في البقرة والمائدة ، فقال في البقرة : { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمَ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [البقرة : 173] .

وقال تعالى في سورة المائدة : { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الميتة والدم وَلَحْمُ الخنزير وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ . . } [المائدة : 3] .

وهذه الأشياء كنتم تأكلونها وهي مُحرّمة عليكم ، والآن ما دُمْنَا ننقذكم ، ونجعل لكم معونة إيمانية من رسول الله ، فكلوا هذه الأشياء حلالاً طيباً .

ولكن ، لماذا كرَّر هذا المعنى هنا؟

التكرار هنا لأمرين :

الأول : أنه سبحانه لا يريد أنْ يعطيهم صورة عامة بالحكم ، بل صورة مُشخَّصة بالحالة؛ لأنهم كانوا جَوْعى يريدون ما يأكلونه ، حتى وإنْ كانت الجيف ، ولكن الإسلام يُحرِّم الميتة ، فأوضح لهم أنكم بعد ذلك ستأكلون الحلال الطيب .

ثانياً : أن النص يختلف ، ففي البقرة : { وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ الله . . } [البقرة : 173] .

وهنا : { وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ الله بِهِ . . } [النحل : 115] .

وليس هنا من قبيل التفنُّن في الأسلوب ، بل المعنى مختلف تماماً؛ ذلك لأن الإهلال هو رَفْع الصوت عند الذبح ، فكانوا يرفعون أصواتهم عند الذبح ، ولكن والعياذ بالله يقولون : باسم اللات ، أو باسم العُزّى ، فيُهلون بأسماء الشركاء الباطلين ، ولا يذكرون اسم الله الوهاب .

فمرَّة يُهلُّون به لغير الله ، ومرة يُهِلُّون لغير الله به . كيف ذلك؟

قالوا : لأن الذبْح كان على نوعين : مرة يذبحون للتقرُّب للأصنام ، فيكون الأصل في الذبح أنه أُهِلَّ لغير الله به . أي : للأصنام .

ومرَّة يذبحون ليأكلوا دون تقرُّب لأحد ، فالأصل فيه أنه أُهِلَّ به لغير الله .

إذن : تكرار الآية لحكمة ، وسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : { فَمَنِ اضطر غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ . . } [النحل : 115] .

الاضطرار : أَلاَّ تجد ما تأكله ، ولا ما يقيم حياتك .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هنا رخصة عندما تُلجِئنا الضرورة أن نأكل من هذه الأشياء المحرَّمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسُدُّ الجوع ، فمَعنى (غَيْرَ بَاغٍ) غير مُتجاوزٍ للحدِّ ، فلو اضطررْتَ وعندك مَيْتة وعندك طعام حلال ، فلا يصحّ أن تأكل الميتة في وجود الحلال .

{ وَلاَ عَادٍ } [النحل : 115] .

أي : ولا مُعْتَدٍ على القدر المرخَّص به ، وهو ما يمسك الحياة ويسُدُّ جوعك فقط ، دون شِبَع منها .

ويقول تعالى : { فَإِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 115] .

وفي البقرة : { فلا إِثْمَ عَلَيْهِ . . . } [البقرة : 173] .

فالمعنى واحد ، ولكن هنا ذكر المغفرة والرحمة ، وهناك ذكر سببهما .

وتجد الإشارة هنا إلى ما يتشدَّق به البعض من الملاحدة الذين يبحثون في القرآن عن مَغْمز ، فيقولون : طالما أن الله حرَّم هذه الأشياء ، فما فائدتها في الكون؟

نقول : أتظنون أن كل موجود في الكون وُجِد ليُؤكل ، أليس له مهمة أخرى؟ ومن ورائه مصلحة أخرى غير الأَكْل ، فإنْ حرَّم الإسلام أكْله فقد أباح الانتفاع به من وجه آخر .

فالخنزير مثلاً حَرَّم الله أكْله ، ولكن خَلقه لمهمة أخرى ، وجعل له دَوْراً في نظافة البيئة ، حيث يلتهم القاذورات ، فهو بذلك يُؤدِّي مهمة في الحياة .

وكذلك الثعابين لا نأكلها ، ولها مهمة في الحياة أيضاً ، وهي أنْ تُجهِّز لنا السُّم في جوفها ، وبهذا السم تعالج بعض الداءات والأمراض ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وكذلك يجب أنْ نعلمَ أن الحق سبحانه ما حرَّم علينا هذه الأشياء إلا لحكمة ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادي وتجاربه ما يُقرِّب له المعاني القيمية الدينية ، فلو نظر إلى الآلات التي تُدار من حوله من ماكينات وسيارات وطائرات وخلافه لوجد لكل منها وقوداً ، ربما لا يناسب غيرها ، حتى في النوع الواحد نرى أن وقود السيارات وهو البنزين مثلاً لا يناسب الطائرات التي تستخدم نفس الوقود ، ولكن بدرجة نقاء أعلى .

إذن : لكل شيء وقود مناسب ، وكذلك أنت أيها الإنسان لك وقودك المناسب لك ، وبه تستطيع أداء حركتك في الحياة ، وأنت صَنْعة ربك سبحانه ، وهو الذي يُحدِّد لك ما تأكله وما لا تأكله ، ويعلم ما يُصلحك وما يضرُّك .

والشيء المحرَّم قد يكون مُحرَّماً في ذاته كالميتة لما فيها من ضرر ، وقد يكون حلالاً في ذاته ، ولكنه مُحرَّم بالنسبة لشخص معين ، كأن يُمنَع المريض من تناول طعام ما؛ لأنه يضرُّ بصحته أو يُؤخِّر شفاءه ، وهو تحريم طاريء لحين زوال سببه .

وصورة أخرى للتحريم ، وهي أن يكون الشيء حلالاً في ذاته ولا ضررَ في تناوله ، ومع ذلك تحرمه عقوبةً ، كما تفعل في معاقبة الطفل إذا أساء فنحرمه من قطعة الحلوى مثلاً .

إذن : للتحريم أسباب كثيرة ، سوف نرى أمثلة منها قريباً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا . . } .

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (116)

معنى { تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكذب } : تُظهِره على أوضح وجوهه ، فليس كلامهم كذباً فقط ، بل يصفه ، فمَنْ لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء .

والمراد بالكذب هنا قولهم :

{ هذا حَلاَلٌ وهذا حَرَامٌ . . } [النحل : 116] .

فهذا كذب وافتراء على الله سبحانه؛ لأنه وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلِّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حَسْب هواك؛ لأن هذا افتراءٌ على الله :

{ لِّتَفْتَرُواْ على الله الكذب . . . } [النحل : 116] .

وقوله تعالى :

{ إِنَّ الذين يَفْتَرُونَ على الله الكذب لاَ يُفْلِحُونَ } [النحل : 116] .

فإن انطلى كذبهم على بعض الناس ، فأخذوا من ورائه منفعة عاجلة ، فعمَّا قليل سيُفتضح أمرهم ، وينكشف كذبهم ، وتنقطع مصالحهم بين الخلق .

ويصف الحق سبحانه ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بأنه : { مَتَاعٌ قَلِيلٌ . . } .

مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (117)

أي : ما أخذتموه بكذبكم وافترائكم على الله متاعٌ قليل زائل ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقي الذي قال الله عنه : { مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ } [النحل : 96] .

ليس هذا فقط بل :

{ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [النحل : 117] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وعلى الذين هَادُواْ . . } .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (118)

بعد أن تكلمت الآيات فيما أحلَّ الله وفيما حرَّم ، وبيَّنتْ أن التحليل أو التحريم لله تعالى ، جاءت لنا بصورة من التحريم ، لا لأن الشيء ذاته مُحرَّم ، بل هو مُحرَّم تحريم عقوبة ، كالذي مثَّلْنَا له سابقاً بحرمان الطفل من الحلوى عقاباً له على سُوء فِعْله .

والذين هادوا هم : اليهود عاقبهم الله بتحريم هذه الأشياء ، مع أنها حلال في ذاتها ، وهذا تحريم خاصٌّ بهم كعقوبة لهم .

وقوله تعالى :

{ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ . . } [النحل : 118] .

المراد ما ذُكِر في سورة الأنعام من قوله تعالى : { وَعَلَى الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ البقر والغنم حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الحوايآ أَوْ مَا اختلط بِعَظْمٍ ذلك جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ } [الأنعام : 146] .

كل ذي ظفر : الحيوان ليس منفرجَ الأصابع ، والحوايا : هي المصارين والأمعاء ، ونرى أن كل هذه الأشياء المذكورة في الآية حلال في ذاتها ، ومُحلَّلة لغير اليهود ، ولكن الله حرَّمها عليهم عقوبةً لهم على ظلمهم وبغيهم ، كما قال تعالى : { فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ الله كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } [النساء : 160-161] .

أي : بسبب ظلمهم حَرَّمنا عليهم هذه الطيبات .

ذلك لأن مَنْ أخذ حكماً افتراءً على الله فحرَّم ما أحلَّ الله . أو حلَّل ما حرَّم الله لا بُدَّ أنْ يُعاقبَ بمثله فيُحرِّم عليه ما أحِلّ لغيره ، وقد وقع الظلم من اليهود لأنهم اجترأوا على حدود الله وتعاليمه ، وأول الظلم وقمته الشرك بالله تعالى : { إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : 13] .

والظلم نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره .

ومن ظلمهم : ما قالوه لموسى عليه السلام بعد أن عبر بهم البحر ، ومرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال تعالى : { وَجَاوَزْنَا ببني إِسْرَآئِيلَ البحر فَأَتَوْاْ على قَوْمٍ يَعْكُفُونَ على أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ ياموسى اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } [الأعراف : 138] .

ومن ظلمهم : أنهم عبدوا العجل من دون الله .

ومن ظلمهم لموسى عليه السلام : أنهم لم يؤمنوا به . كما قال تعالى : { فَمَآ آمَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ على خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ } [يونس : 83] .

ومن ظلمهم : { وَأَخْذِهِمُ الربا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ الناس بالباطل } [النساء : 161] .

إذن : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حَقِّهم حرَّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم؛ قال تعالى : { وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [النحل : 118] .

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرموها من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ . . } .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119)

الحق سبحانه وتعالى يعطي عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أنْ شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لَتحوَّل المذنب ولو لمرة واحدة إلى مجرم يُعربد في المجتمع ، وبفتح باب التوبة يقي الله المجتمع من هذه العربدة .

ويبين الرسول صلى الله عليه وسلم مكانة التوبة فيقول : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » .

وقوله تعالى في بداية الآية : { ثُمَّ } تدلُّ على كثرة ما تقدم من ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم لِيُبيّن لك البَوْن الشاسع بين رحمة الله وإصرار العُصَاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : { بِجَهَالَةٍ } .

أي : بطيش وحُمْق وسَفَه ، وجميعها داخلة في الجهل بمعنى أنْ تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم ، إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ، والمراد أن ينظر إلى خير عاجل في نظره ، ويترك خيراً آجلاً في نظر الشرع .

وقد ورد هذا المعنى في قول الحق سبحانه : { إِنَّمَا التوبة عَلَى الله لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السواء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ } [النساء : 17] .

بجهالة : يعني في لحظة سَفَه وطيْش ، فالعاصي يعلم الحكم تماماً ، ولكنه في غفلة عنه ، وعدم تبصُّر بالعواقب ، ولو فكَّر في عاقبة أمره ما تجرَّأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدِم عليها إلا في غيبة العقل .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

ولو استحضر قسوة الجزاء لما أقدم على معصيته ، ولكن سفهه وطيْشه يُغلّف الجزاء ويستره عنه ويُزيّن له ما ينتظره من لذة ومتعة عاجلة .

وهَبْ أن شخصاً ألحتْ عليه غريزة الجنس ، وهي أشرس الغرائز في الإنسان ، ففكّر في الفاحشة والعياذ بالله ، وقبل أنْ يقع في هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكّرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة .

بالله عليك ، ماذا تراه يفعل؟ هل يُصِرّ على جريمته؟ لا ، لأنه كان ذاهلاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إذن : طيشه وسفهه صرفه عن التفكر في العاقبة وأذهله عن رَدِّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجِّلة .

وقوله : { ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وأصلحوا . . } [النحل : 119] .

والتوبة هنا هي التوبة النصوح الصادقة ، التي ينوي صاحبها الإقلاع عنها وعدم العَوْد إليها مرة أخرى ، ويعزم على ذلك حال توبته ، فإذا فعل ذلك قَبِل الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعود للذنب مرة أخرى إذا ضعُفَتْ نفسه عن المقاومة ، فإنْ عاد عاد إلى التوبة من جديد ، لأن الله سبحانه من أسمائه (التواب) أي : كثير التوبة ، فلم يقل : تائب بل تواب ، فلا تنقطع التوبة في حق العبد مهما أذنب ، وعليه أنْ يُحدِث لكل ذنبٍ توبة .

بل وأكثر من ذلك ، إذا تاب العبد وأحسن التوبة ، وأتى بالأعمال الصالحة بدلاً من السيئة ، منَّ الله عليه بأن يُبدِّل سيئاته حسنات ، وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

وقوله سبحانه :

{ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النحل : 119] فيه إشارة لحرص النبي صلى الله عليه وسلم علينا ، وأنه يسرُّه أن يغفر الله لنا . { إِنَّ رَبَّكَ } يا محمد غفور رحيم ، فكأنه سبحانه يمتنُّ على نبيه صلى الله عليه وسلم أنه سيغفر للمذنبين من أمته .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً نبيه إبراهيم عليه السلام : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ . . } .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120)

بعد أن ذكرتْ الآيات طرفاً من سيرة اليهود ، وطرفاً من سيرة أهل مكة تعرَّضتْ لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء؟

ذلك لأنه أبو الأنبياء ، ولو مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون فيه ، حتى المشركون يقولون : نحن على دين إبراهيم ، والنصارى قالوا عنه : إنه نصراني . واليهود قالوا : إنه يهودي .

فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام ، وتُوضِّح مواصفاتها ، وتردُّ وتُبطِل مزاعمهم في إبراهيم عليه السلام ، وهاكم مواصفاته :

{ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . } [النحل : 120] .

أُمَّة : الأمة في معناها العام : الجماعة ، وسياق الحديث هو الذي يُحدِّد عددها ، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أي : جماعة الشعراء ، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد ، كما في قوله تعالى : { وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ الناس يَسْقُونَ . . } [القصص : 23] .

فسمي جماعة من الرعاة أمة؛ لأنهم خرجوا لغرض واحد ، وهو سَقْي دوابهم .

وتُطلَق الأمة على جنس في مكان ، كأمة الفرس ، وأمة الروم ، وقد تُطلِق على جماعة تتبع نبياً من الأنبياء ، كما قال سبحانه : { وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : 24] .

وحين نتوسَّع في معنى نجدها في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم تشمل جميع الأمم؛ لأنه أُرسِل للناس كافّة ، وجمع الأمم في أمة واحدة ، كما قال تعالى : { إِنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً } [الأنبياء : 92] .

ومعنى أمة واحدة . أي : جامعة لكل الأمم .

فالمعنى إذن أن إبراهيم عليه السلام يقوم مقام أمة كاملة؛ لأن الكمالات المطلقة لله وحده ، والكمالات الموهوبة من الله لخلْقه في الرسل تُسمَّى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما ما دون الرسل فقد وُزِّعت عليهم هذه الكمالات ، فأخذ كل إنسان واحداً منها ، فهذا أخذ الحلم ، وهذا الشجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا في الرسل .

فإذا نظرتَ إلى إبراهيم عليه السلام وجدتَ فيه من المواهب ما لا يُوجد إلا في أمة كاملة .

كذلك رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم حينما حَدَّد موقعه بين رسالات الله في الأرض يقول : « الخير فيَّ وهذا هو الكمال البشري الذي أعطاه الله إياه وفي أمتي » .

أي : أن كل واحد منهم أخذ جزءًا من هذا الكمال ، فكأن كماله صلى الله عليه وسلم مُبعثر في أمته كلها .

لذلك حين تتتبع تاريخ إبراهيم عليه السلام في كتاب الله تعالى تجد كل موقف من مواقفه يعطيك خَصْلة من خصال الخير ، وصِفة من صفات الكمال ، فإذا جمعتَ هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا في أمة بأسْرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

ومن معاني أمة : أنه عليه السلام يقوم مقام أمة في عبادة الله وطاعته .

وقوله : { قَانِتاً لِلَّهِ . . } [النحل : 120] .

أي : خاشعاً خاضعاً لله تعالى في عبادته .

{ حَنِيفاً . . } [النحل : 120] .

الحنف في الأصل : الميْل ، وقد جاء إبراهيم عليه السلام والكون على فساد واعوجاج في تكوين القيم ، فمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحَاد عن هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعالى لا يبعث الرسل إلا إذا طَمَّ الفساد ، إذن : ميْله عن الاعوجاج والفساد ، فمعناه أنه كان مستقيماً معتدلاً على الدين الحق ، مائلاً عن الاعوجاج حائداً عن الفساد .

ثم يُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : { وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين } [النحل : 120] .

وهذه هي الصفة الرابعة لخليل الله إبراهيم بعد أن وصفه بأنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفي عنه الشرك بالله ، فما فائدة نَفْي الشرك عنه مرة أخرى في :

{ وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين } [النحل : 120] .

يجب أنْ نُفرّق بين أنواع الشرك ، فمنه الشرك الأكبر ، وهو أن تجعل لله شركاء ، وهو القمة في الشرك . ومنه الشرك الخفي ، بأن تجعل للأسباب التي خلقها دَخْل في تكوين الأشياء .

فالآية هنا : { وَلَمْ يَكُ مِنَ المشركين } [النحل : 120] .

أي : الشرك الخفي ، فالأوصاف السابقة نفتْ عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفي عنه شركَ الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفيّ .

ولذلك عندما أُلقِيَ عليه السلام في النار لم يلتفت إلى الأسباب وإنْ جاءت على يد جبريل عليه السلام ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا . فأين الشرك الخفي إذن والأسباب عنده معدومة من البداية؟

ثم يقول الحق سبحانه : { شَاكِراً لأَنْعُمِهِ . . } .

شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (121)

قوله تعالى : { شَاكِراً لأَنْعُمِهِ } [النحل : 121] .

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدَّعُون أنكم على ملّة إبراهيم عليه السلام فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكراً لله على نعمه .

وقوله : { اجتباه } [النحل : 121] .

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم عليه السلام كان عن اختبار ، كما قال تعالى : { وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . } [البقرة : 124] .

أي : اختبره ببعض التكاليف ، فأتمها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه : { قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً } [البقرة : 124] .

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة في ذريته قال : { قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي } [البقرة : 124] .

فعدَّل الله له هذه الرغبة ، وصحَّح له ، بأن ذريتك ستكون منها الظالم ، فقال : { لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين } [البقرة : 124] .

لذلك تعلَّم إبراهيم عليه السلام من هذا الموقف ، وأراد أن يحتاط لنفسه بعد ذلك ، فعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال : { رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله واليوم الآخر . . } [البقرة : 126] .

فصحَّح الله له أيضاً هذا المطلب ، فالموقف هنا مختلف عن الأول ، الأول كان في إمامة القيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أما هذه فرزق وعطاء ربوبية يشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصي ، فالجميع في الرزق سواء ، فقال تعالى : { وَمَن كَفَرَ . . } [البقرة : 126] .

أي : سأرزق الكافر أيضاً .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التي تُربِّي الأنبياء ، وتصنعهم على عَيْنها ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع في النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشري .

ويدل على دقة إبراهيم عليه السلام في أداء ما طُلِب منه موقفه في بناء البيت ، فبعد أن دَلَّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفي إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أنْ يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتي بالأمر على أتمّ وجوهه ،

وينفذه بدقة واحتياط ، ففكَّر أن يأتي بحجر مرتفع ، ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذي هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيماني وتخلِّيه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل في وادٍ غير ذي زرع ، وفي مكان خالٍ من مُقوِّمات الحياة وأسباب العيش .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسبِّبها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفِّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم؛ لذلك حينما سألته هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك؟ فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يُضيِّعنا . وكأن إيمان إبراهيم نضح على زوجته ، وملأ قلبها يقيناً في الله تعالى .

وقوله سبحانه :

{ وَهَدَاهُ إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } [النحل : 121] .

كيف . . بعد كل هذه الأوصاف الإيمانية تقول الآيات (وَهَدَاهُ) أليست هذه كلها هداية؟

نقول : المراد زاده هداية ، كما قال تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَآتَيْنَاهُ فِي الدنيا . . } .

وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (122)

الحق سبحانه يُبيِّن أن جزاء إبراهيم عليه السلام عظيم في الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء في ذريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وها نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم في الدنيا؛ لأنه بالغ في طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم عليه السلام من ربه هذه المكانة ، فقال : { رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين * واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين } [الشعراء : 83-84] .

حُكْماً : أي : حكمة أضع بها الأشياء في مواضعها .

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

{ وَإِنَّهُ فِي الآخرة لَمِنَ الصالحين } [النحل : 122] .

فإنْ كان هذا جزاءَه في الدنيا ، فلا شكَّ أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . } .

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (123)

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لأنعمه ، واجتباه ربه وهداه . . الخ قال :

{ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ } [النحل : 123] .

يا محمد :

{ أَنِ اتبع مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً } [النحل : 123] .

كأن قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أي شريعة التوحيد .

ثم يُؤكّد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

{ وَمَا كَانَ مِنَ المشركين } [النحل : 123] .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّمَا جُعِلَ السبت . . } .

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124)

بعد أن تحدَّث الحق سبحانه عن إبراهيم أبي الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلَّم عن بني إسرائيل في قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكأن القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فهاهي صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام؟

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كإبراهيم في اتباعه ، فيذكر ما كان منهم في أمر السبت .

و (السبت) هو يوم السبت المعروف التالي للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِت سَبْتاً . يعني : سكن واستقرَّ ، ومنه قوله تعالى : { وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً } [النبأ : 9] .

ذلك أن بني إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى عليه السلام أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذي أتمَّ الله فيه خَلْق الكون في ستة أيام ، وهو اليوم الذي اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا في ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود في يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام في يوم الجمعة ، واختاروا الأحد على اعتبار إنه أول بَدْء الخلق .

أما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربُّهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أنْ يتفرغوا لعبادته في هذا اليوم ، وافقهم ليُبيّن لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجتهم ، فلو اختار لهم يوماً لاعترضوا عليه ، ولكن هاهم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقدية عامة ، هي أن الآيات التي تأتي مُصدِّقة للرسل في البلاغ عن الله تعالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقد تكون باختيار المرسَل إليهم أنفسهم ، وقد كان من بني إسرائيل أنْ كذَّبوا بهذه وهذه ولذلك قال تعالى : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون } [الإسراء : 59] .

أي : لكونهم يقترحون الآية ثم يُكذِّبونها ، فأمْرهم تكذيب في تكذيب .

وقصة السبت ذُكِرَتْ في مواضع كثيرة ، مثل قوله تعالى : { وَسْئَلْهُمْ عَنِ القرية التي كَانَتْ حَاضِرَةَ البحر إِذْ يَعْدُونَ فِي السبت إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ } [الأعراف : 163] .

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصيد في يوم السبت ، فكادهم الله وأغاظهم ، فكانت تأتيهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح الماء كالشراع ، ولا ينتفعون منها بشيء إلا الحسرة والأسف ، فيقولون : لعلها تأتي في الغد فيخيب الله رجاءهم :

{ وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ } [الأعراف : 163] .

وقد سمَّى القرآن الكريم ذلك منهم اعتداءً؛ لأنهم اعتدوا على ما شرع الله ، قال تعالى : { وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الذين اعتدوا مِنْكُمْ فِي السبت فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ } [البقرة : 65] .

وقوله تعالى :

{ إِنَّمَا جُعِلَ السبت على الذين اختلفوا فِيهِ . . . } [النحل : 124] .

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُوحي بوجود طائفتين متناقضتين في هذه القضية ، والحقيقة أن الخلاف لم يكُنْ بين اليهود بعضهم البعض ، بل بينهم وبين نبيهم الذي اختار لهم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت ، فجعل الله الخلاف عليهم .

فالمعنى : إنما جُعِل السبت حُجّة على الذين اختلفوا فيه؛ لأنه اثبت عدوانهم على يوم العبادة ، فبعد أن اقترحوه اختاروه انقلب حُجة عليهم ، ودليلاً لإدانتهم .

ولو تأملنا قوله :

{ على الذين . . } [النحل : 124] .

نجد أن كلمة (عَلَى) تدلُّ على الفوقية أي : أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى؛ فكأن السبت جاء ضد مصلحتهم ، وكأن خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . } [الرعد : 6] .

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ، ولكن المعية لا تقتضي العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه : { وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ على ظُلْمِهِمْ . . } [الرعد : 6] .

أي : أن المغفرة عَلَت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن رحمة الله ومغفرته عَلَتْ على أنْ تُعامِل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله سبقتْ غضبه ، ونفس الملحظ نجده في قول الحق سبحانه : { الحمد للَّهِ الذي وَهَبَ لِي عَلَى الكبر إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ } [إبراهيم : 39] .

فالكبر كان يقتضي عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكِبَر .

ثم يقول الحق سبحانه : { ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ . . } .

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (125)

فبعد أن تحدثتْ الآيات عن النموذج الإيماني الأعلى في الإنسان في شخص أبي الأنبياء إبراهيم ، وجعلتْ من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسُله باتباعه ، أخذتْ في بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله .

قوله : { ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ . . } [النحل : 125] .

الحق تبارك وتعالى لا يُوجّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم إلا وهو يعلم أنه سيُنفّذ ما أُمِر به ، وسيقوم بأمر الدعوة ، ويتحمل مسئوليتها .

{ ادع } : بمعنى دُلَّ الناس وارشدهم .

{ سَبِيلِ رَبِّكَ } [النحل : 125] .

السبيل هو الطريق والمنهج ، والحكمة : وَضْع الشيء في موضعه المناسب ، ولكن لماذا تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمةً؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَنِ انحرف عن هذا المنهج ، ومَنِ انحرف عن منهج الله تجده أَلِف المعصية وتعوَّد عليها ، فلا بُدَّ لك أنْ ترفقَ به لِتُخرجه عما ألف وتقيمه على المنهج الصحيح ، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما أَلِفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلَك اللِّين والرِّفق ، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يترك ما كان عليه من

مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعِر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو افضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تحرجه أمام الآخرين؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

{ بالحكمة والموعظة الحسنة . . } [النحل : 125] .

ويُروى في هذا المقام مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة قصة دارت بين الحسن والحسين رضي الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغي أنْ يكون عليه الداعية .

فيُروى أنهما رَأيَا رجلاً لا يُحسِن الوضوء ، وأراد أنْ يُعلِّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعره ، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسِن أنْ تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلاً منهما يتوضأ ، ثم يحكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحُكْم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذي ما أحسنْتُ .

إنه الوعظ في أعلى صورة ، والقدوة في أحكم ما تكون .

« مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول صلى الله عليه وسلم ، حينما أتاه شاب في فَوْرة شبابه ، يشتكي عدم صَبْره عن رغبة الجنس ، وهي كما قلنا من أشرس الغرائز في الإنسان .

جاء الشاب وقال : » يا رسول الله إئذن لي في الزنا « .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخْفِ عِلّته ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أولَ خَطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الداء من نفس هذا الشاب؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يُؤذه ، بل أخذه وربَّت على كتفه في لطف ولين ، ثم قال : » أتحبه لأمك؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعِلْتَ فِدَاك . قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، قال : أَتُحبه لأختكَ؟

قال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك ، قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم « .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : » اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه « فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزني ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نفسي بشيء من هذا ، إلا ذكرْتُ أمي وأختي وزوجتي » .

فلنتأمل هذا التلطُّف في بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات في المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وحُسْن تصرف ، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُرّاً يغلفونه بغُلالة رقيقة حُلْوة المذاق ليستسيغه المريض ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب في هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة في الدعوة إلى الله : النصح ثقيل فلا تُرْسِله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً . . والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا سمع عن شيء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة في مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا » .

ويكتفي بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحداً من الناس على حَدِّ قولهم في الأمثال : إياك أعني واسمعي يا جاره .

ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء في الريف حينما يتعرض أحدٌ للسرقة ، أو يضيع منه شيء ذو قيمة ، فكانوا يعتلون عن فَقْد الشيء الذي ضاع أو سُرِق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمي التراب .

ومعنى « نرمي التراب » أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشيء المفقود ، وفي الصباح يبحثون في التراب حتى يعثروا على ما فقد منهم ، ويصلوا إلى ضالَّتهم دون أنْ يُفتضحَ الأمر ، ودون أن يُحرَج أحد ، وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعقدت المسألة .

وقوله سبحانه :

{ وَجَادِلْهُم بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [النحل : 125] .

والجدل مناقشة الحجج في قضية من القضايا ، وعلى كُلِّ من الطرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالتي هي احسن . أي : في رفق ولين ودون تشنُّج أو غَطْرسة .

ويجب عليك في موقف الجدال هذا ألاَّ تُغضِبَ الخصْم ، فقد يتمحَّك في كلمة منك ، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

{ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين } [النحل : 125] .

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله؟

يريد الحق سبحانه أن يُبيّن لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله في توجيه النصيحة ، ولا ينبغي للداعية أبداً أنْ يغُشَّ في دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفي نفسه استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس والعياذ بالله مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر مِمّا ينفعهم .

إذن : إنْ قُبِل الغش في شيء فإنه لا يُقبل في مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أنْ تغشَّ بالله في الله؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمَنْ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ . . . } .

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126)

نلاحظ أن هذا المعنى ورد في قوله تعالى : { فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ . . } [البقرة : 194] .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية في رد الاعتداء :

{ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ . . . } [النحل : 126] .

و { فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ } [البقرة : 194] .

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أن جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمن الذي يستطيع تقدير المثلية في الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة في العقوبة ، وكأن في صعوبة تقدير المثلية إشارةً إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

{ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } [النحل : 126] .

فقد جعل الله في الصبر سَعة ، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما في الصبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه : { ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت : 34] .

ففي ذلك دَفْع لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : { لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ } [النحل : 126] .

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : في الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ، وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهي من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى في جواره؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله في معيته وحفظه؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر في القرآن الكريم يجد تشابهاً في تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى : { واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : 17] .

وفي آية أخرى : { وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43] .
ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دِقّة التعبير القرآني .
ولما كانت المصائب التي تصيب الإنسان على نوعين :
النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أُصيب في صحته أو تعرَّض لجائحة في ماله ، أو انهار بيته . . الخ .
وفي هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .
إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى : { واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور } [لقمان : 17] .
أما النوع الآخر : فهو المصائب التي تقع بفعل فاعل ، كالقتل مثلاً ، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر في هذه أصعب وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما في الآية الثانية :

{ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور } [الشورى : 43] .
فاستعمل هنا لام التوكيد؛ لأن الصبر هنا شاقّ ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان لِيُؤلّب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .
كما نلاحظ في الآية الأولى قال : (وَاصْبِرْ) .
وفي الثانية قال : (صَبَرَ وغَفَر) لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .
ويُحكى في قصص العرب قصة اليهودي المرابي الذي أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردَّه في أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد في الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .
فرفع اليهودي الأمر إلى القاضي وقَصَّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضي صاحب فِطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن في ضربة واحد ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت .
ولما رأى اليهودي مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .
والسؤال الآن : ما علاقة هذه الآية :
{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ . . } [النحل : 126] .
بما قبلها : { ادع إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة } [النحل : 125] .

الدعوة إلى منهج يلفت الإنسان خليفة الله في أرضه أنْ يلتزمَ بمنهج الله الذي استخلفه ، ووضع له هذا المنهج لِيُنظّم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يُفسدون في الأرض ، ويحققون لأنفسهم مصالح على حساب الغير ، والذي يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدَّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطغى ويستعلي ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويُخرجهم مما أَلِفُوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذي يستفيدون به ، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا في وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصح والإصلاح ، وشدة تَرْك ما ألفوه .

فعلَى الداعية إذن أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتي هي احسن ، فإذا ما تعدَّى أمرُهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يَعُدْ يُجدي أسلوب الحكمة .

ولا بُدَّ لنا أن نقفَ الموقف الذي تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذي شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لَدَد في الخصومة ، أو إسراف في العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . } [النحل : 126] .

وفي الآية تحذير أن يزيدَ الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوي أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذي أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هَدَّأَها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهي في تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته صلى الله عليه وسلم توجّه إليه صلى الله عليه وسلم في تصرُّف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضي الله عنه .

فقد مثَّل به الكفار في أُحُد ، وشقَّتْ هند بطنه ، ولاكت كبده ، فشقَّ الأمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأثَّر في نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقرابة فهو عمه الذي آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال في انفعاله بهذه العاطفة : « لئن أظهرني الله عليهم لأُمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم » .

ولكن الحق سبحانه العادل الذي أنزل ميزان العدل والحق في الخلق هَدَّأ من رَوْعه ، وعدَّل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

{ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . } [النحل : 126] .

والمتأمل للأسلوب القرآني في هذه الآية يلحظ فيها دعوة إلى التحنُّن على الخصم والرأفة به ، فالمتحدث هو الله سبحانه ، فكل حرف له معنى ، فلا تأخذ الكلام على إجماله ، ولكن تأمل فيه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً . لماذا قال الحق سبحانه : (وإنْ) ولم يستخدم (إذا) مثلاً؟

إن عاقبتم : كأن المعنى : كان يجب ألاَّ تعاقبوا .

أما (إذا) فتفيد التحقيق والتأكيد ، والحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن القلوب ، ويضع ردَّ العقوبة بمثلها في أضيق نطاق ، فهذه رحمة حتى من الأعداء ، هذه الرحمة تُحبِّبهم في الإسلام ، وتدعوهم إليه ، وبها يتحوَّل هؤلاء الأعداء إلى جنود في صفوف الدعوة إلى الله .

كما أن في قوله : (عَاقَبْتُمْ) دليل على أن ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى : { وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ . . } [الأنفال : 60] .

كأنه يقول : كونوا دائماً على استعداد ، وفي حال قوة تُمكنكم من الردِّ إذا اعتُدِي عليكم ، كما أن في وجود القوة والاستعداد ما يردع العدو ويرهبه ، فلا يجرؤ على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستعداد يُحفظ التوازن في المجتمع ، فالقوي لا يفكّر أحد في الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بين دول العالم في صراعها المحموم حول التسلُّح بأسلحة فاتكة .

وكلمة : { مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ . . } [النحل : 126] .

نلاحظ أن الردَّ على الاعتداء يُسمَّى عقوبة ، لكن الاعتداء الأول لماذا نُسميه أيضاً عقوبة؟

قالوا : لأن هذه طريقة في التعبير تسمَّى « المشاكلة » ، أي : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا } [الشورى : 40] .

لأن ردَّ السيئة لا يُسمَّى سيئة .

ولسائل في هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى في هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرِّره من البداية؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أَمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله .

. الخ . وهذا الأمن لا يتأتَّى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن في المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان في المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية في تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أن

يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها ، فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرّأ على جريمته ، ففي تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحفظ لسلامته وأمْنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون مَن يرتد عن دينكم؟ وأين حرية العقيدة إذن؟

نقول : في تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول في هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية يدخل أو لا يدخل ، لا يغصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم .

إذن : شرعَ الإسلامُ العقوبةَ ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعتْ يلجأ إلى علاج آخر يجتثُّ جذور الغِلِّ والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر في صعيد مصر : إنه يظل في سلسلة من القتل والثأر لا تنتهي ، وتفزّع المجتمع كله ، حتى الآمنين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات في هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجَّع واحد منهم ، فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى وليّ القتيل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفني معي ، فاصنع بي ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أنْ يثأروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التي لا تنتهي .

ثم يقول الحق سبحانه : { واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ . . } .

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127)

بعد أن ذكرتْ الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكأن الآية السابقة تمهد للأمر هنا (وَاصْبِرْ) ليأتمر الجميع بأمر الله ، بعد أنْ قدَّم لهم الحيثيات التي تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كمَا يقولون في الحكمة : من الشجاعة أنْ تجبُنَ ساعة .

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارت نفسُك ، فالشجاعة أنْ تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : { واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله . . } [النحل : 127] .

من حكمة الله ورحمته أنْ جعلك تصبر على الأذى؛ لأن في الصبر خيراً لك ، والله هو الذي يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التي تهيج غضبك ، وتجرّك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولّى أمره وأعانه ، كما قال تعالى : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17] .

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ،

وحين تتجه إليه يُجنّد الله لك الخواطر الطيبة التي تُعينك عليه وتُيسِّره لك وتُرضيك به ، فيأتي صبرك جميلاً ، لا سخطَ فيه ولا اعتراضَ عليه .

ثم يقول تعالى :

{ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . . } [النحل : 127] .

لقد امتنّ الله على أمة العرب التي استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسبَه ونَسبَه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان صلى الله عليه وسلم مُحباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى : { لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ } [التوبة : 128] .

أي : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عَنَتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكل كل أنواع الخير؛ لأن معنى الحرص : الضَّنّ بالشيء ، فكأنه صلى الله عليه وسلم يضِنّ بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى في الحديث الشريف : « إنما مثلي ومثَل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقحّمون فيه » .

لذلك حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببتَ له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلّ عليها من يحب من أهله ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم حلاوة الإيمان أحبَّ أنْ يُشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسلّي رسوله ، ويخفف عنه ما صُدم في قومه ، يقول له : لا تحزن عليهم ولا تُحمّل نفسك فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ . ويخاطبه ربه في آية أخرى :

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بهذا الحديث أَسَفاً } [الكهف : 6] .

أي : لا تكن مُهْلكاً نفسَك أسَفاً عليهم .

وقوله : { وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل : 127] .

الضيق : تأتي بالفتح وبالكسر ، ضِيْق ، ضَيْق .

والضيق : أن يتضاءل الشيء الواسع أمامك عما كنت تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفي هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفْسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما قال تعالى عن الثلاثة الذين تخلفوا في الجهاد مع رسول الله : { وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ

. . } [التوبة : 118] .

فالحق سبحانه ينهى رسوله صلى الله عليه وسلم أنْ يكون في ضيق من مكر الكفار؛ لأن الذي يضيق بأمر ما هو الذي لا يجد في مجال فكره وبدائله ما يخرج به من هذا الضيق ، إنما الذي يعرف أن له منفذاً ومَخْرجاً فلا يكون في ضَيْق .

فالمعنى : لا تَكُ في ضيق يا محمد ، فالله معك ، سيجعل لك من الضيق مخرجاً ، ويرد على هؤلاء مكرهم : { وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ الماكرين } [الأنفال : 30] .

ولذلك يقول : لا كرب وأنت رب . فساعة أن تضيق بك الدنيا والأهل والأحباب ، وتضيق بك نفسك فليسعْك ربك ، ولتكُنْ في معيته سبحانه؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك : { إِنَّ الله مَعَ . . } .

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128)

هذه قضية معيّة الله لمن اتقاه ، فمَنِ اتقى الله فهو في جواره ومعيته ، وإذا كنت في معية ربك فمَنْ يجرؤ أن يكيدك ، أو يمكرُ بك؟

وفي رحلة الهجرة تتجلى معية الله تعالى وتتجسد لنا في الغار ، حينما أحاط به الكفار ، والصِّدِّيق يقول للرسول صلى الله عليه وسلم : لو نظر أحدهم تحت قدميه لَرَآنا ، فيجيبه الرسول صلى الله عليه وسلم وهو واثق بهذه المعية : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر؟

المعنى : ما دام أن الله ثالثهما إذن فهما في معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمَنْ كان في معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : { اتقوا . . } [النحل : 128] .

التقوى في معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعمالاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمتأمل يجد معناها يلتقي في نقطة واحدة .

فمعنى « اتق الله » : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه؛ لأن للحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

ونقول : اتقوا النار ، أي : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرّة باللازم ، ومرَّة بلازم اللازم .

وقوله : { والذين هُم مُّحْسِنُونَ } [النحل : 128] .

المحسن : هو الذي يُلزم نفسه في عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به ، فإنْ

كان الشرع فرض عليك خمس صلوات في اليوم والليلة ، فالإحسان أن تزيدها ما تيسَّر لك من النوافل ، وإنْ كان الصوم شهرَ رمضان ، فالإحسان أنْ تصومَ من باقي الشهور كذا من الأيام ، وكذلك في الزكاة ، وغيرها مِمَّا فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح في حديث جبريل حينما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك » .

والآية الكريمة تُوحِي لنا بأن الذي اتقوا لهم جزاء ومعيّة ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعيّة ، كُلٌّ على حسب درجته؛ لأن الحق سبحانه يعطي من صفات كمال خَلْقه على مقدار معيتهم معه سبحانه ، فالذي اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوي ومَنْ أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثاني مزيَّة وخصوصية .

وفي سورة الذاريات يقول تعالى : { إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ } [الذاريات : 15-16] .

لم يقل « مؤمنين »؛ لأن المؤمن يأتي بما فُرِض عليه فحسب ، لكن ما وجه الإحسان عندهم؟ يقول تعالى : { كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لَّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 17-19] .

وكلها أمور نافلة تزيد عما فرض الله عليهم .

ويجب أن نتنبه هنا إلى أن المراد من قوله تعالى : { وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لَّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 19] .

ليست الزكاة ، بل هي الصدقة ، لأنه في الزكاة قال سبحانه : { حَقٌّ مَّعْلُومٌ . . } [المعارج : 24] .

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1)

استهل الحق سبحانه هذه السورة بقوله (سُبْحَانَ) ؛ لأنها تتحدث عن حدث عظيم خارق للعادة ، ومعنى سبحانه : أي تنزيهاً لله تعالى تنزيهاً مطلقاً ، أن يكون له شبه أو مثيل فيما خلق ، لا في الذات ، فلا ذاتَ كذاته ، ولا في الصفات فلا صفات كصفاته ، ولا في الأفعال ، فليس في أفعال خَلْقه ما يُشبِه أفعاله تعالى .

فإن قيل لك : الله موجود وأنت موجود ، فنزّه الله أن يكون وجوده كوجودك؛ لأن وجودك من عدم ، وليس ذاتياً فيك ، ووجوده سبحانه ليس من عدم ، وهو ذاتي فيه سبحانه .

فذاته سبحانه لا مثيلَ لها ، ولا شبيه في ذوات خلقه . وكذلك إن قيل : سَمْع والله سمع . فنزِّه الله

أنْ يُشابه سمعُه سمعَك ، وإن قيل : لك فِعْل ، ولله فِعْل فنزِّه الله أن يكون فعله كفعلك .

ومن معاني (سُبْحَان) أي : أتعجب من قدرة الله .

إذن : كلمة (سُبْحَان) جاءت هنا لتشير إلى أنَّ ما بعدها أمرٌ خارج عن نطاق قدرات البشر ، فإذا ما سمعتَه إياك أنْ تعترضَ أو تقول : كيف يحدث هذا؟ بل نزِّه الله أن يُشابه فِعْلُه فِعْلَ البشر ، فإن قال لك : إنه أسرى بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيتَ المقدس في ليلة ، مع أنهم يضربون إليها أكباد الإبل شهراً ، فإياك أن تنكر .

فربك لم يقُلْ : سَرَى محمد ، بل أُسْرِي به . فالفعل ليس لمحمد ولكنه لله ، وما دام الفعل لله فلا تُخضعْه لمقاييس الزمن لديك ، ففِعْل الله ليس علاجاً ومزاولة كفعل البشر .

ولو تأملنا كلمة (سُبْحَان) نجدها في الأشياء التي ضاقتْ فيها العقول ، وتحيَّرتْ في إدراكها وفي الأشياء العجيبة ، مثل قوله تعالى : { سُبْحَانَ الذي خَلَق الأزواج كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأرض وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } [يس : 36] .

فالأزواج أي : الزوجين الذكر والأنثى ، ومنهما يتم التكاثر في النبات ، وفي الإنسان وقد فسر لنا العلم الحديث قوله : { وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ } بما توصَّل إليه من اكتشاف الذرة والكهرباء ، وأن فيهما السالب والموجب الذي يساوي الذكر والأنثى؛ لذلك قال تعالى : { وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [الذاريات : 49] .

ومنها قوله تعالى : { فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ } [الروم : 17] .

فمَنْ يطالع صفحة الكون عند شروق الشمس وعند غروبها ، ويرى كيف يحُلُّ الظلام محلَّ الضياء ، أو الضياء محل الظلام ، لا يملك أمام هذه الآية إلا أن يقول : سبحان الله .

ومنها قوله تعالى : { سُبْحَانَ الذي سَخَّرَ لَنَا هذا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ } [الزخرف : 13] .

هذه كلها أمور عجيبة ، لا يقدر عليها إلا الله ، وردتْ فيها كلمة (سبحان) في خلال السور وفي طيّات الآيات .

و (سُبْحَان) اسم يدلُّ على الثبوت والدوام ، فكأن تنزيه الله موجود وثابت له سبحانه قبل أن يوجد المنزِّه ، كما نقول في الخلق ، فالله خالق ومُتصف بهذه الصفة قبل أنْ يخلق شيئاً .

وكما تقول : فلان شاعر ، فهو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، فلو لم يكن شاعراً ما قالها .

إذن : تنزيه الله ثابت له قبل أن يوجد مَنْ يُنزِّهه سبحانه ، فإذا وُجِد المنزّه تحوَّل الأسلوب من الاسم إلى الفعل ، فقال سبحانه : { سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الحشر : 1] .

وهل سبَّح وسكت وانتهى التسبيح؟ لا ، بل : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض } [الجمعة : 1] .

على سبيل الدوام والاستمرار ، وما دام الأمر كذلك والتسبيح ثابت له ، وتُسبِّح له الكائنات في الماضي والحاضر ، فلا تتقاعس أنت أيُّها المكلَّف عن تسبيح ربك ، يقول تعالى : { سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى } [الأعلى : 1] .

وقوله : (أُسْرِي) من السُّرى ، وهو السير ليلاً ، وفي الحِكَم : (عند الصباح يحمَدُ القوم السُّرى) .

فالحق سبحانه أسرى بعبد ، فالفعل لله تعالى ، وليس لمحمد صلى الله عليه وسلم فلا تَقِسْ الفعل بمقياس البشر ، ونزِّه فِعْل الله عن فِعْلك ، وقد استقبل أهل مكة هذا الحدث استقبال المكذِّب . فقالوا : كيف هذا ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ، وهم كاذبون في قولهم؛ لأن رسول الله لم يَدَّع أنه سَرَى بل قال : أُسْرِي بي .

ومعلوم أن قَطْع المسافات يأخذ من الزمن على قدر عكس القوة المتمثلة في السرعة . أي : أن الزمن يتناسب عكسياً مع القوة ، فلو أردنا مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية سيختلف الزمن لو سِرْنا على الأقدام عنه إذا ركبنا سيارة أو طائرة ، فكلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، فما بالك لو نسب الفعل والسرعة إلى الله تعالى ، إذا كان الفعل من الله فلا زمن .

فإنْ قال قائل : ما دام الفعل مع الله لا يحتاج إلى زمن ، لماذا لم يَأْتِ الإسراء لمحةً فحسْب ، ولماذا استغرق ليلة؟

نقول : لأن هناك فرْقاً بين قطْع المسافات بقانون الله سبحانه وبين مَرَاءٍ عُرِضَتْ على النبي صلى الله عليه وسلم في الطريق ، فرأى مواقف ، وتكلَّم مع أشخاص ، ورأى آيات وعجائب ، هذه هي التي استغرقت الزمن .

وقلنا : إنك حين تنسب الفعل إلى فاعله يجب أن تعطيه من الزمن على قَدْر قوة الفاعل . هَبْ أن قائلاً قال لك : أنا صعدتُ بابني الرضيع قمة جبل « إفرست » ، هل تقول له : كيف صعد ابنك الرضيع قمة « إفرست »؟

هذا سؤال إذن في غير محلِّه ، وكذلك في مسألة الإسراء والمعراج يقول تعالى : أنا أسريتُ بعبدي ، فمن أراد أنْ يُحيل المسألة ويُنكرها ، فليعترض على الله صاحب الفعل لا على محمد .

لكن كيف فاتتْ هذه القضية على كفار مكة؟

ومن تكذيب كفار مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة الإسراء والمعراج نأخذ رَدّاً جميلاً على هؤلاء الذين يخوضون في هذا الحادث بعقول ضيقة وبإيمانية سطحية في عصرنا الحاضر ، فيطالعونا بأفكار سقيمة ما أنزل الله بها من سلطان .

ونسمع منهم مَنْ يقول : إن الإسراء كان منَاماً ، أو كان بالروح دون الجسد .

ونقول لهؤلاء : لو قال محمد لقومه : أنا رأيتُ في الرؤيا بيت المقدس ، هل كانوا يُكذِّبونه؟ ولو

قال لهم : لقد سبحتْ روحي الليلة حتى أتتْ بيت المقدس ، أكانوا يُكذِّبونه؟ أتُكذَّب الرّؤى أو حركة الأرواح؟!

إذن : في إنكار الكفار على رسول الله وتكذيبهم له دليل على أن الإسراء كان حقيقة تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم برُوحه وجسده ، وكأن الحق سبحانه ادَّخر الموقف التكذيبي لمكذبي الأمس ، ليردّ به على مُكذّبي اليوم .

وقوله سبحانه : { بِعَبْدِهِ . . } [الإسراء : 1] .

العبد كلمة تُطلق على الروح والجسد معاً ، هذا مدلولها ، لا يمكن أن تُطلَق على الروح فقط .

لكن ، لماذا اختار الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم هذه الصفة بالذات؟

نقول : لأن الله تعالى جعل في الكون قانوناً عاماً للناس ، وقد يُخرَق هذا القانون أو الناموس العام ليكون معجزةً للخاصة الذين ميَّزهم الله عن سائر الخَلْق ، فكأن كلمة (عبده) هي حيثية الإسراء .

أي : أُسْرِي به؛ لأنه صادق العبودية لله ، وما دام هو عبده فقد أخلص في عبوديته لربه ، فاستحق أنْ يكون له مَيْزة وخصوصية عن غيره ، فالإسراء والمعراج عطاء من الله استحقَّه رسوله بما حقّق من عبودية لله .

وفَرْق بين العبودية لله والعبودية للبشر ، فالعبودية لله عِزٌّ وشرف يأخذ بها العبدُ خَيْرَ سيده ، وقال الشاعر :

وَمِمّا زَادَنِي شَرَفاً وَعِزّاً ... وكِدْتُ بأخْمُصِي أَطَأَ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قولِكَ يَا عِبَادِي ... وَأنْ صَيَّرت أحمدَ لِي نبيّاً

أما عبودية البشر للبشر فنقْصٌ ومذلَّة وهوان ، حيث يأخذ السيد خَيْر عبده ، ويحرمه ثمره كَدِّه .

لذلك ، فالمتتبّع لآيات القرآن يجد أن العبودية لا تأتي إلا في المواقف العظيمة مثل :

{ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ . . } [الإسراء : 1] .

وقوله : { وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ الله يَدْعُوهُ . . } [الجن : 19] .

ويكفيك عِزاً وكرامة أنك إذا أردتَ مقابلة سيدك أن يكون الأمر في يدك ، فما عليكَ إلا أنْ تتوضأ وتنوي المقابلة قائلاً : الله أكبر ، فتكون في معية الله عز وجل في لقاء تحدد أنت مكانه ومُوعده ومُدّته ، وتختار أنت موضوع المقابلة ، وتظل في حضرة ربك إلى أن تنهي المقابلة متى أردتَ .

وما أحسنَ ما قال الشاعر :

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بِأَنِّي عَبْدٌ ... يَحْتَفِي بِي بِلاَ مَواعِيدَ رَبُّ

هُو في قُدْسِه الأعَزّ ولكِنْ ... أنَا أَلْقَى متَى وَأَيْنَ أُحِبُّ

فما بالك لو حاولت لقاء عظيم من عظماء الدنيا؟ وكم أنت مُلاقٍ من المشقة والعنت؟ وكم دونه

من الحجّاب والحرّاس؟ ثم بعد ذلكَ ليس لك أن تختار لا الزمان ولا المكان ، ولا الموضوع ولا غيره .

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المتخلِّق بأخلاق الله إذا سلَّم على أحد لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده .

وقوله : { لَيْلاً .

. } [الإسراء : 1] .

سبق أن قُلْنا : إن السُّرى هو السير ليلاً ، فكانت هذه كافية للدلالة على وقوع الحدث ليلاً ، ولكن الحق سبحانه أراد أنْ يؤكد ذلك ، فقد يقول قائل : لماذا لم يحدث الإسراء نهاراً؟

نقول : حدث الإسراء ليلاً ، لتظلَّ المعجزة غَيْباً يؤمن به مَنْ يصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو ذهب في النهار لرآه الناس في الطريق ذهاباً وعودة ، فتكون المسألة إذن حِسيّة مشاهدة لا مجالَ فيها للإيمان بالغيب .

لذلك لما سمع أبو جهل خبر الإسراء طار به إلى المسجد وقال : إن صاحبكم يزعم أنه أُسْرِي به الليلة من مكة إلى بيت المقدس ، فمنهم مَنْ قلّب كفَّيْه تعجُّباً ، ومنهم مَنْ أنكر ، ومنهم مَن ارتد .

أما الصِّدِّيق أبو بكر فقد استقبل الخبر استقبالَ المؤمن المصدِّق ، ومن هذا الموقف سُمِّي الصديق ، وقال قولته المشهورة : « إن كان قال فقد صدق » .

إذن : عمدته أن يقول رسول الله ، وطالما قال فهو صادق ، هذه قضية مُسلَّم بها عند الصِّدِّيق رضي الله عنه .

ثم قال : « إنَّا لَنُصدقه في أبعد من هذا ، نُصدِّقه في خبر السماء (الوحي) ، فكيف لا نُصدّقه في هذا »؟

إذن : الحق سبحانه جعل هذا الحادث مَحكّاً للإيمان ، ومُمحِّصاً ليقين الناس ، حين يغربل مَنْ حول رسول الله ، ولا يبقى معه إلا أصحاب الإيمان واليقين الثابت الذي لا يهتز ولا يتزعزع .

لذلك قال تعالى في آية أخرى : { وَمَا جَعَلْنَا الرؤيا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ . . } [الإسراء : 60] .

وهذا دليل آخر على أن الإسراء لم يكُنْ مناماً ، فالإسراء لا يكون فتنة واختباراً إلا إذا كان حقيقة لا مناماً ، فالمنام لا يُكذِّبه أحد ولا يختلف فيه الناس .

لكن لماذا قال عن الإسراء (رُؤْيَا) يعني المنامية ، ولم يقُلْ « رؤية » يعني البصرية؟

قالوا : لأنها لما كانت عجيبة من العجائب صارت كأنها رؤيا منامية ، فالرؤيا محل الأحداث العجيبة .

وورد في الإسراء أحاديث كثيرة تكلَّم فيها العلماء : أكان بالروح والجسد؟ أكان يقظة أم مناماً؟ أكان من المسجد الحرام أم من بيت أم هانيء؟ ونحن لا نختلف مع هذه الآراء ، ونُوضِّح ما فيها من تقارب .

فمن حيث : أكان الإسراء بالروح فقط أم بالروح والجسد؟ فقد أوضحنا وَجْه الصواب فيه ، وأنه كان بالروح والجسد جميعاً ، فهذا مجال الإعجاز ، ولو كان بالروح فقط ما كان عجيباً ، وما كذَّبه كفار مكة .

أما مَنْ ذهب إلى أن الإسراء كان رؤيا منام ، فيجب أن نلاحظ أن أول الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان الرؤيا الصادقة ، فكان صلى الله عليه وسلم لا يرى رُؤْيَا إلا وجاءت كفلَق الصبح ، فرؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ليست كرؤيانا ، بل هي صِدْق لا بُدَّ أن يتحقَّق .

ومثال ذلك ما حدث ، مَنْ إرادةِ اللهِ لهُ رؤْيا الفتح .

قال تعالى : { لَّقَدْ صَدَقَ الله رَسُولَهُ الرءيا بالحق لَتَدْخُلُنَّ المسجد الحرام إِن شَآءَ الله آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ . . } [الفتح : 27] .

وقد أخبر صلى الله عليه وسلم صحابته هذا الخبر ، فلما ردَّهم الكفار عند الحديبية ، فقال الصحابة لرسول الله : ألم تُبشِّرنا بدخول المسجد الحرام؟ فقال : ولكن لم أَقُلْ هذا العام .

لذلك يسمون هذه الرُّؤى رؤى الإيناس ، وهي أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم الشيء مناماً ، حتى إذا ما تحقق لم يُفَاجأ به ، وكان له أُنْس به . وما دام لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلَق الصبح فلا بُدَّ أن هذه الرؤيا ستأتي واقعاً وحقيقة ، وقد يرى هذه الرؤيا مرة أخرى على سبيل التذكرة بذلك الإيناس .

إذن : مَنْ قال : إن الإسراء كان مناماً نقول له : نعم كان رؤيا إيناس تحققتْ في الواقع ، فلدينا رؤى الإيناس أولاً ، ورؤى التذكير بالنعمة ثانياً ، وواقع الحادث في الحقيقة ثالثاً ، وبذلك نخرج من الخلاف حول : أكان الإسراء يقظة أم مناماً؟

وحتى بعد انتهاء حادث الإسراء كانت الرؤيا الصادقة نوعاً من التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان كلما اشتدتْ به الأهوال يُريه الله تعالى ما حدث له لِيُبيّن له حفاوة السماء والكون به صلى الله عليه وسلم ؛ ليكون جَلْداً يتحمل ما يلاقي من التعنت والإيذاء .

أما من قال : إن الإسراء كان من بيت أم هانيء ، فهذا أيضاً ليس محلاً للخلاف؛ لأن بيت أم هانيء كان مُلاصِقاً للمطاف من المسجد الحرام ، والمطاف من المسجد .

إذن : لا داعي لإثارة الشكوك والخلافات حول هذه المعجزة؛ لأن الفعل فِعْل الحق سبحانه وتعالى ، والذي يحكيه لنا هو الحق سبحانه وتعالى ، فلا مجالَ للخلاف فيه .

وقوله تعالى :

{ مِّنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . . } [الإسراء : 1] .
المسجد الحرام هو بيت الله : الكعبة المشرفة ، وسُمّي حراماً؛ لأنه حُرّم فيه ما لم يحرُمْ في غيره من المساجد . وكل مكان يخصص لعبادة الله نسميه مسجداً ، قال تعالى : { إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر . . } [التوبة : 18] .
ويختلف المسجد الحرام عن غيره من المساجد ، أنه بيت لله باختيار الله تعالى ، وغيره من المساجد بيوت لله باختيار خَلْق الله؛ لذلك كان بيت الله باختيار الله قِبْلة لبيوت الله باختيار خَلْق الله .
وقد يُراد بالمسجد المكان الذي نسجد فيه ، أو المكان الذي يصلح للصلاة ، كما جاء في الحديث الشريف : « . . وجُعِلَتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً » .
أي : صالحة للصلاة فيها .
ولا بُدَّ أن نُفرّق بين المسجد الذي حُيِّز وخُصِّص كمسجد مستقل ، وبين أرض تصلح للصلاة فيها ومباشرة حركة الحياة ، فالعامل يمكن أن يصلي في مصنعه ، والفلاح يمكن أن يصلي في مزرعته ، فهذه أرض تصلح للصلاة ولمباشرة حركة الحياة .
أما المسجد فللصلاة ، أو ما يتعلق بها من أمور الدين كتفسير آية ، أو بيان حكم ، أو تلاوة قرآن .

. إلخ ولا يجوز في المسجد مباشرة عمل من أعمال الدنيا .
« لذلك حينما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد ضالته في المسجد ، قال له : » لا رَدَّها الله عليك « .
وقال لمن جلس يعقد صفقة في المسجد : » لا بارك الله لك في صفقتك « .
ذلك لأن المسجد خُصِّص للعبادة والطاعة ، وفيه يكون لقاء العبد بربه عز وجل ، فإياك أن تشغل نفسك فيه بأمور الدنيا ، ويكفي ما أخذتْه منك ، وما أنفقته في سبيلها من وقت .
والمسجد لا يُسمَّى مسجداً إلا إذا كان بناءً مستقلاً من الأرض إلى السماء ، فأرضه مسجد ، وسماؤه مسجد ، لا يعلوه شيء من منافع الدنيا ، كمَنْ يبني مسجداً تحت عمارة سكنية ، ودَعْكَ من نيته عندما خَصَّص هذا المكان للصلاة : أكانت نيته لله خالصة؟ أم لمأرب دنيوي؟ وقد قال تعالى : { وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً } [الجن : 18] .
فمثل هذا المكان لا يُسمّى مسجداً؛ لأنه لا تنطبق عليه شروط المسجد ، ويعلوه أماكن سكنية يحدث فيها ما يتنافى وقدسية المسجد ، وما لا يليق بحُرْمة الصلاة ، فالصلاة في مثل هذا المكان كالصلاة في أي مكان آخر من البيت .
لذلك يحرم على الطيار غير المسلم أن يُحلِّق فوق مكة؛ لأن جوَّ الحرَم حَرَمٌ .
وقوله تعالى :

{ إلى المسجد الأقصى . . } [الإسراء : 1] .

في بُعْد المسافة نقول : هذا قصيّ . أي : بعيد . وهذا أقصى أي : أبعد ، فالحق تبارك وتعالى كأنه يلفت أنظارنا إلى أنه سيوجد بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى مسجدٌ آخر قصيّ ، وقد كان فيما بعد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالمسجد الأقصى : أي : الأبعد ، وهو مسجد بيت المقدس .

وقوله سبحانه : { بَارَكْنَا حَوْلَهُ . . } [الإسراء : 1] .

البركة : أن يُؤتِي الشيءُ من ثمره فوقَ المأمول منه ، وأكثر مما يُظنّ فيه ، كأن تُعِد طعاماً لشخصين ، فيكفي خمسة أشخاص فتقول : طعام مبارَك .

وقول الحق سبحانه :

{ بَارَكْنَا حَوْلَهُ . . . } [الإسراء : 1] .

دليل على المبالغة في البركة ، فإنْ كان سبحانه قد بارك ما حول الأقصى ، فالبركة فيه من باب أَوْلى ، كأن تقول : مَنْ يعيشون حول فلان في نعمة ، فمعنى ذلك أنه في نعمة أعظم .

لكن بأيّ شيء بارك الله حوله؟

لقد بارك الله حول المسجد الأقصى ببركة دنيوية ، وبركة دينية :

بركة دنيوية بما جعل حوله من أرض خِصْبة عليها الحدائق والبساتين التي تحوي مختلف الثمار ، وهذا من عطاء الربوبية الذي يناله المؤمن والكافر .

وبركة دينية خاصة بالمؤمنين ، هذه البركة الدينية تتمثل في أن الأقصى مَهْد الرسالات ومَهْبط الأنبياء ، تعطَّرَتْ أرضه بأقدام إبراهيم وإسحق ويعقوب وعيسى وموسى وزكريا ويحيى ، وفيه هبط الوحي وتنزلتْ الملائكة .

وقوله : { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ . . . } [الإسراء : 1] .

اللام هنا للتعليل .

كأن مهمة الإسراء من مكة إلى بيت المقدس أن نُرِي رسول الله الآيات ، وكلمة : الآيات لا تُطلق على مطلق موجود ، إنما تطلق على الموجود العجيب ، كما نقول : هذا آية في الحُسْن ، آية في الشجاعة ، فالآية هي الشيء العجيب .

ولله عز وجل آيات كثيرة منها الظاهر الذي يراه الناس ، كما قال تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار . . } [فصلت : 37] . { وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام } [الشورى : 32] .

والله سبحانه يريد أن يجعل لرسوله صلى الله عليه وسلم خصوصية ، وأن يُريه من آيات الغيب الذي لم يَرَهُ أحد ، ليرى صلى الله عليه وسلم حفاوة السماء به ، ويرى مكانته عند ربه الذي

قال له : { وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ } [النحل : 127] .
لأنك في سَعة من عطاء الله ، فإن أهانك أهل الأرض فسوف يحتفل بك أهل السماء في الملأ الأعلى ، وإنْ كنت في ضيق من الخَلْق فأنت في سَعة من الخالق .
وقوله : { إِنَّهُ هُوَ السميع البصير } [الإسراء : 1] .
أي : الحق سبحانه وتعالى .
السمع : إدراك يدرك الكلام . والبصر : إدراك يدرك الأفعال والمرائي ، فلكل منهما ما يتعلق به .
لكن سميع وبصير لمن؟
جاء هذا في ختام آية الإسراء التي بيَّنَتْ أن الحق سبحانه جعل الإسراء تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم بعد ما لاقاه من أذى المشركين وعنتهم ، وكأن معركة دارت بين رسول الله والكفار حدثتْ فيها أقوال وأفعال من الجانبين .
ومن هنا يمكن أن يكون المعنى : (سَمِيعٌ) لأقوال الرسول (بَصِيرٌ) بأفعاله ، حيث آذاه قومه وكذبوه وألجؤوه إلى الطائف ، فكان أهلها أشدَّ قسوة من إخوانهم في مكة ، فعاد مُنكَراً دامياً ، وكان من دعائه : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بي غضبك ، أو يحل عليَّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .
فالله سميع لقول نبيه صلى الله عليه وسلم . وبصير لفعله .
فقد كان صلى الله عليه وسلم في أشدِّ ظروفه حريصاً على دعوته ، فقد قابل في طريق عودته من الطائف عبداً ، فأعطاه عنقوداً من العنب ، وأخذ يحاوره في النبوات ويقول : أنت من بلد نبي الله يونس بن متى .
أو يكون المعنى : سميع لأقوال المشركين ، حينما آذوا سَمْع رسول الله وكذَّبوه وتجهَّموا له ، وبصير بأفعالهم حينما آذوه ورَمَوْه بالحجارة .
الحق تبارك وتعالى تعرّض لحادث الإسراء في هذه الآية على سبيل الإجمال ، فذكر بدايته من المسجد الحرام ، ونهايته في المسجد الأقصى ، وبين البداية والنهاية ذكر كلمة الآيات هكذا مُجْملة .

وجاء صلى الله عليه وسلم ففسَّر لنا هذا المجمل ، وذكر الآيات التي رآها ، فلو لم يذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى من آيات الله لَقُلْنا : وأين هذه الآيات؟ فالقرآن يعطينا

اللقطة الملزمة لبيان الرسول صلى الله عليه وسلم : { إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ } [القيامة : 17-19] .

إذن : كان لا بُدَّ لتكتمل صورة الإسراء في نفوس المؤمنين أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم ما قال من أحاديث الإسراء .

لكن يأتي المشكِّكُون وضعَاف الإيمان يبحثون في أحاديث الإسراء عن مأخذ ، فيعترضون على المرائي التي رآها رسول الله ، وسأل عنها جبريل عليه السلام .

فكان اعتراضهم أن هذه الأحداث في الآخرة ، فكيف رآها محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ونقول لهؤلاء : لقد قصُرَتْ أفهامكم عن إدراك قدرة الله في خَلْق الكون ، فالكون لم يُخلَق هكذا ، بل خُلِق بتقدير أزلي له ، ولتوضيح هذه المسألة نضرب هذا المثل :

هَبْ أنك أردتَ بناء بيت ، فسوف تذهب إلى المهندس المختص وتطلب منه رَسْماً تفصيلياً له ، ولو كنت ميسور الحال تقول له : اعمل لي (ماكيت) للبيت ، فيصنع لك نموذجاً مُصغّراً للبيت الذي تريده .

فالحق سبحانه خلق هذا الكون أزلاً ، فالأشياء مخلوقة عند الله (كالماكيت) ، ثم يبرزها سبحانه على وَفْق ما قدّره .

وتأمل قول الحق سبحانه وتعالى : { إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [يس : 82] .

انظر : { أَن يَقُولَ لَهُ } كأن الشيء موجود والله تعالى يظهره فحسب ، لا يخلقه بداية ، بل هو مخلوق جاهز ينتظر الأمر ليظهر في عالم الواقع؛ لذلك قال أهل المعرفة : أمور يُبديها ولا يبتديها .

وإن كان الحق تبارك وتعالى قد ذكر الإسراء صراحة في هذه الآية ، فقد ذكر المعراج بالالتزام في سورة النجم ، في قوله تعالى : { وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى * عِندَ سِدْرَةِ المنتهى * عِندَهَا جَنَّةُ المأوى * إِذْ يغشى السدرة مَا يغشى * مَا زَاغَ البصر وَمَا طغى * لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى } [النجم : 13-18] .

ففي الإسراء قال تعالى :

{ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَآ . . } [الإسراء : 1] .

وفي المعراج قال : { لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكبرى } [النجم : 18] .

ذلك لأن الإسراء آية أرضية استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم بما آتاه الله من الإلهام أنْ يُدلِّل على صِدْقه في الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى؛ لأن قومه على علم بتاريخه ، وأنه لم يسبق له أنْ رأى بيت المقدس أو سافر إليه ، فقالوا له : صِفْه لنا وهذه شهادة منهم أنه لم يَرَهْ ، فتحدَّوْهُ أن يصفه .

والرسول صلى الله عليه وسلم حينما يأتي بمثل هذه العملية ، هل كان عنده استحفاظ كامل لصورة بيت المقدس ، خاصة وقد ذهب إليه ليلاً؟

إذن : صورته لم تكن واضحة أمام النبي صلى الله عليه وسلم بكل تفاصيلها ، وهنا تدخلتْ قدرة الله فجلاَّه الله له ، فأخذ يصفه لهم كأنه يراه الآن .

كما أن الطريق بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى طريق مسلوك للعرب ، فهو طريق تجارتهم إلى الشام ، فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن عيراً لهم في الطريق ، ووصفها لهم وصفاً دقيقاً ، وأنها سوف تصلهم مع شروق الشمس يوم مُعين .

وفعلاً تجمعوا في صبيحة هذا اليوم ينتظرون العير . وعند الشروق قال أحدهم : ها هي الشمس أشرقتْ . فردَّ الآخر : وها هي العير قد ظهرتْ .

إذن : استطاع صلى الله عليه وسلم أن يُدلِّل على صدق الإسراء؛ لأنه آية أرضية يمكن التدليل عليها ، بما يَعْلمه الناس عن بيت المقدس ، وبما يعلمونه من عِيرهم في الطريق .

أما ما حدث في المعراج ، فآيات كبرى سماوية لا يستطيع الرسول صلى الله عليه وسلم التدليل عليها أمام قومه ، فأراد الحق سبحانه أنْ يجعل ما يمكن الدليل عليه من آيات الأرض وسيلة لتصديق ما لا يوجد دليل عليه من آيات الصعود إلى السماء ، وإلا فهل صعد أحد إلى سدرة المنتهى ، فيصفها له رسول الله؟

إذن : آية الأرض أمكن أنْ يُدلّل عليها ، فإذا ما قام عليها الدليل ، وثبت للرسول خَرْق نواميس الكون في الزمن والمسافة ، فإنْ حدّثكم عن شيء آخر فيه خَرْق للنواميس فصدِّقوه ، فكأن آية الإسراء جاءت لِتُقرِّب للناس آية المعراج .

فالذي خرق له النواميس في آيات الأرض من الممكن أنْ يخرق له النواميس في آيات السماء ، فالله تعالى يُقرِّب الغيبيات ، التي لا تدركها العقول بالمحسّات التي تدركها .

ومن ذلك ما ضربه إليه مثلاً محسوساً لمضاعفة النفقة في سبيل الله إلى سبعمائة ضعف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُبيّن ذلك ويُقرِّبه للعقول ، فقال : { مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ والله يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [البقرة : 261] .

ومن لُطْف الله سبحانه بعقول خَلْقه أنْ جعل آيات الإسراء بالنصّ الملزم الصريح ، لكن آيات المعراج جاءت بالالتزام في سورة النجم؛ لذلك قال العلماء : إن الذي يُكذِّب بالإسراء يكفر ، أما مَنْ يكذِّب بالمعراج فهو فاسق .

لكن أهل التحقيق يذهبون إلى تكفير مَنْ يُكذِّب المعراج أيضاً؛ لأن المعراج وإنْ جاء بالالتزام فقد بيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف ، والحق سبحانه يقول : { وَمَآ آتَاكُمُ

الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . } [الحشر : 7] .
والمتأمل في الإسراء والمعراج يجده إلى جانب أنه تسلية لرسول الله وتخفيف عنه ، إلا أن لهم هدفاً آخر أبعد أثراً ، وهو بيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مُؤيّد من الله ، وله معجزات ، وتُخرَق له القوانين والنواميس العامة؛ ليكون ذلك كله تكريماً ودليلاً على صدق رسالته .
فالمعجزة : أمر خارق للعادة الكونية يُجريه الله على يد رسوله؛ ليكون دليلاً على صدقه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم الخليل عليه السلام حيث ألقاه قومه في النار ، ومن خواص النار الإحراق ، فهل كان المراد نجاة إبراهيم من النار؟
لو كان القصد نجاته من النار ما كان الله مكَّنهم من الإمساك به ، ولو أمسكوا فيمكن أنْ يُنزِل الله المطر فيطفيء النار .

إذن : المسألة ليست نجاة إبراهيم ، المسألة إثبات خَرْق النواميس لإبراهيم عليه السلام ، فشاء الله أنْ تظلَّ النار مشتعلة ، وأن يُمسكوا به ويرموه في النار ، وتتوفر كل الأسباب لحرقه عليه السلام .
وهنا تتدخل عناية الله لتظهر المعجزة الخارقة للقوانين ، فمن خواصّ النار الإحراق ، وهي خَلْق من خَلْقِ الله ، يأتمر بأمره ، فأمر اللهُ النارَ ألاَّ تحرق ، سلبها هذه الخاصية ، فقال تعالى : { قُلْنَا ياناركُونِي بَرْداً وسلاما على إِبْرَاهِيمَ } [الأنبياء : 69] .
وربما يجد المشكِّكون في الإسراء والمعراج ما يُقرّب هذه المعجزة لأفهامهم بما نشاهده الآن من تقدُّم علمي يُقرِّب لنا المسافات ، فقد تمكَّن الإنسان بسلطان العلم أنْ يغزوَ الفضاء ، ويصعد إلى كواكب أخرى في أزمنة قياسية ، فإذا كان في مقدور البشر الهبوط على سطح القمر ، أتستبعدون الإسراء والمعراج ، وهو فِعْل لله سبحانه؟!
وكذلك من الأمور التي وقفتْ أمام المعترضين على الإسراء والمعراج حادثة شَقِّ الصدر التي حكاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمتأمل فيه يجده عملاً طبيعياً لإعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لما هو مُقبِل عليه من أجواء ومواقف جديدة تختلف في طبيعتها عن الطبيعة البشرية .
كيف ونحن نفعل مثل هذا الإعداد حينما نسافر من بلد إلى آخر ، فيقولون لك : البس ملابس كذا . وخذ حقنة كذا لتساير طبيعة هذا البلد ، وتتأقلم معه ، فما بالك ومحمد صلى الله عليه وسلم سيلتقي بالملائكة وبجبريل وهم ذوو طبيعة غير طبيعة البشر ، وسيلتقي بإخوانه من الأنبياء ، وهم في حال الموت ، وسيكون قاب قوسيْن أو أدنى من ربه عز وجل؟
إذن : لا غرابة في أنْ يحدث له تغيير ما في تكوينه صلى الله عليه وسلم ليستطيع مباشرة هذه المواقف .
وإذا استقرأنا القرآن الكريم فسوف نجد فيه ما يدلُّ على صدق رسول الله فيما أخبر به من لقائه

بالأنبياء في هذه الرحلة ، قال تعالى : { وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ . . } [الزخرف : 45] .

والرسول صلى الله عليه وسلم إذا أمره ربّه أمراً نفّذه ، فكيف السبيل إلى تنفيذ هذا الأمر : واسأل مَن سبقك من الرسل؟

لا سبيل إلى تنفيذه إلا في لقاء مباشر ومواجهة ، فإذا حدَّثنا بذلك رسول الله في رحلة الإسراء والمعراج نقول له : صدقت ، ولا يتسلل الشكّ إلا إلى قلوب ضعاف الإيمان واليقين .

فالفكرة في هذه القضية الإسراء والمعراج دائرة بين يقين المؤمن بصدق رسول الله ، وبين تحكيم العقل ، وهل استطاع عقلك أنْ يفهم كل قضايا الكون من حولك؟

فما أكثر الأمور التي وقف فيها العقل ولم يفهم كُنْهَها ، ومع مرور الزمن وتقدُّم العلوم رآها تتكشّف له تدريجياً ، فما شاء الله أنْ يُظهره لنا من قضايا الكون يسَّر لنا أسبابه باكتشاف أو اختراع ، وربما بالمصادفة .

وما العقل إلا وسيلة إدراك ، كالعين والأذن ، وله قوانين محددة لا يستطيع أنْ يتعداها ، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع إدراك كل شيء ، بل هو محكوم بقانون .

ولتوضيح ذلك ، نأخذ مثلاً العين ، وهي وسيلة إدراك يحكمها قانون الرؤية ، فإذا رأيت شخصاً مثلاً تراه واضح الملامح ، فإذا ما ابتعد عنك تراه يصغُر تدريجياً حتى يختفي عن نظرك ، كذلك السمع تستطيع بأذنك أنْ تسمعَ صوتاً ، فإذا ما ابتعد عنك قَلَّ سمعك له ، حتى يتوقف إدراك الأذن فلا تسمع شيئاً .

كذلك العقل كوسيلة إدراك له قانون ، وليس الإدراك فيه مطلقاً .

ومن هنا لما أراد العلماء التغلُّب على قانون العيْن وقانون الأذن حينما تضعف هذه الحاسة وتعجز عن أداء وظيفتها صنعوا للعين النظارة والميكروسكوب والمجهر ، وهذه وسائل حديثة تُمكِّن العين من رؤية ما لا تستطيع رؤيته . وكذلك صنعوا سماعة الأذن لتساعدها على السمع إذا ضعفت عن أداء وظيفتها .

إذن : فكل وسيلة إدراك لها قانونها ، وكذلك العقل ، وإياك أنْ تظنَّ أن عقلك يستطيع أن يدرس كل شيء ، ولكن إذا حُدِّثْتَ بشيء فعقلك ينظر فيه ، فإذا وثقته صادقاً فقد انتهت المسألة ، وخذ ما حدثت به على أنه صدق .

وهذا ما حدث مع الصِّدِّيق أبي بكر رضي الله عنه حينما حدثوه عن صاحبه صلى الله عليه وسلم ، وأنه أُسرِي به من مكة إلى بيت المقدس ، فما كان منه إلا أن قال : « إن كان قال فقد صدق » .

فالحجة عنده إذن قول الرسول ، وما دام الرسول قد قال ذلك فهو صادق ، ولا مجال لعمل

العقل في هذه القضية ، ثم قال « كيف لا أُصدقه في هذا الخبر ، وأنا أصدقه في أكثر من هذا ، أصدقه في خبر الوحي يأتيه من السماء » .

فآية الإسراء إذن كانت آية أرضية ، يمكن أنْ يُقام عليها الدليل ، ويمكن أن يفهم الناس عنها أن القانون قد خُرِق لمحمد في الإسراء ، فإذا ما أتى المعراج وخرق له القانون فيما لا يعلم الناس كان أَدْعى لتصديقه .

والمتأمل في هذه السورة يجدها تسمى سورة الإسراء ، وتسمى سورة بني إسرائيل ، وليس فيها عن الإسراء إلا الآية الأولى فقط ، وأغلبها يتحدث عن بني إسرائيل ، فما الحكمة من ذِكْر بني إسرائيل بعد الإسراء؟

سبق أن قلنا : إن الحكمة من الكلام عن الإسراء بعد آخر النحل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في ضيق مما يمكرون ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُخفِّف عنه ويُسلِّيه ، فكان حادث الإسراء ، ولما أَلِفَ بنو إسرائيل أن الرسول يُبعَثُ إلى قومه فحسب ، كما رأَوا موسى عليه السلام .

فعندما يأتي محمد صلى الله عليه وسلم ويقول : أنا رسول للناس كافّة سيعترض عليه هؤلاء وسيقولون : إنْ كنتَ رسولاً فعلاً وسلَّمنا بذلك ، فأنت رسول للعرب دون غيرهم ، ولا دَخْل لك ببني إسرائيل ، فَلِمَ رسالتنا وبيت المقدس عَلَم لنا .

لذلك أراد الحق سبحانه أن يلفت إسرائيل إلى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا جعل بيت المقدس قبلةً للمسلمين في بداية الأمر ، ثم أسرى برسوله صلى الله عليه وسلم إليه : ليدلل بذلك على أن بيت المقدس قد دخل في مقدسات الإسلام ، وأصبح منذ هذا الحدث في حَوْزة المسلمين .

ثم يبدأ الحديث عن موسى عليه السلام وعن بني إسرائيل ، فيقول تعالى : { وَآتَيْنَآ مُوسَى الكتاب . . . } .

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (2)

قوله : { وَآتَيْنَآ } أي : أوحينا إليه معانيه ، كما قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ . . } [الشورى : 51] .

فليس في هذا الأمر مباشرة .

و (الكتاب) هو التوراة ، فلو اقترن بعيسى فهو الإنجيل ، وإنْ أُطلِق دون أن يقترنَ بأحد ينصرف إلى القرآن الكريم .

والوَحْي قد يكون بمعاني الأشياء ، ثم يُعبّر عنها الرسول بألفاظه ، أو يعبر عنها رجاله وحواريوه

بألفاظهم .

ومثال ذلك : الحديث النبوي الشريف ، فالمعنى فيه من الحق سبحانه ، واللفظ من عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهكذا كان الأمر في التوراة والإنجيل .

فإن قال قائل : ولماذا نزل القرآن بلفظه ومعناه ، في حين نزلت التوراة والإنجيل بالمعنى فقط؟

نقول : لأن القرآن نزل كتاب منهج مثل التوراة والإنجيل ، ولكنه نزل أيضاً كتاب معجزة لا يستطيع أحد أنْ يأتيَ بمثله ، فلا دَخْلَ لأحد فيه ، ولا بُدَّ أنْ يظلَّ لفظه كما نزل من عند الله سبحانه وتعالى .

فالرسول صلى الله عليه وسلم أُوحِيَ إليه لَفْظُ ومعنى القرآن الكريم ، وأُوحِي إليه معنى الحديث النبوي الشريف .

والحق سبحانه يقول :

{ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . . } [الإسراء : 2] .

فهذا الكتاب لم ينزل لموسى وحده ، بل لِيُبلِّغه لبني إسرائيل ، وليرسمَ لهم طريق الهدى الله سبحانه ، وقال تعالى في آية أخرى : { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لبني إِسْرَائِيلَ } [السجدة : 23] .

والهُدَى : هو الطريق الموصّل للغاية من أقصر وجه ، وبأقلّ تكلفة ، وهو الطريق المستقيم ، ومعلوم عند أهل الهندسة أن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين .

ثم أوضح الحق سبحانه وتعالى خلاصة هذا الكتاب ، وخلاصة هذا الهُدى لبني إسرائيل في قوله تعالى :

{ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً } [الإسراء : 2] .

ففي هذه العبارة خلاصة الهُدى ، وتركيز المنهج وجِمَاعه .

والوكيل : هو الذي يتولَّى أمرك ، وأنت لا تُولِّي أحداً أمرك إلا إذا كنتَ عاجزاً عن القيام به ، وكان مَنْ تُوكِّله أحكمَ منك وأقوى ، فإذا كنت ترى الأغيار تنتاب الناس من حولك وتستولي عليهم ، فالغني يصير فقيراً ، والقوي يصير ضعيفاً ، والصحيح يصير سقيماً .

وكذلك ترى الموت يتناول الناس واحداً تِلْو الآخر ، فاعلم أن هؤلاء لا يصلحون لِتولِّي أمرك والقيام بشأنك ، فربما وَكَّلْتَ واحداً منهم ففاجأك خبر موته .

إذن : إذا كنتَ لبيباً فوكِّل مَنْ لا تنتابه الأغيار ، ولا يدركه الموت؛ ولذلك فالحق سبحانه حينما يُعلمنا أن نكون على وعي وإدراك لحقائق الأمور ، يقول : { وَتَوَكَّلْ عَلَى الحي الذي لاَ يَمُوتُ } [الفرقان : 58] .

وما دام الأمر كذلك ، فإياك أنْ تتخذَ من دون الله وكيلاً ، حتى لو كان هذا الوكيل هو الواسطة

بينك وبين ربك كالأنبياء؛ لأنهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم ، بل يناولونك ويُبلِّغونك عن الله سبحانه .

ولذلك الحق سبحانه يقول : { وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ . . } [الإسراء : 86] .

ولو شئنا ما أوحينا إليك أبداً ، فمن أين تأتي بالمنهج إذن؟

وقد تحدث العلماء طويلاً في (أن) في قوله :

{ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً } [الإسراء : 2] .

فمنهم مَنْ قال : إنها ناهية . ومنهم من قال : نافية ، وأحسن ما يُقال فيها : إنها مُفسّرة لما قبلها من قوله تعالى :

{ وَآتَيْنَآ مُوسَى الكتاب وَجَعَلْنَاهُ هُدًى . . } [الإسراء : 2] .

ففسرت الكتاب والهدى وخَّصته ، كما في قوله تعالى : { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ ياآدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد وَمُلْكٍ لاَّ يبلى } [طه : 120] .

فقوله : { قَالَ ياآدم } تُفسّر لنا مضمون وسوسة الشيطان .

ومثله قوله تعالى : { وَأَوْحَيْنَآ إلى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ . . } [القصص : 7] .

(فأنْ) هنا مُفسِّرة لما قبلها . وكأن المعنى : وأوحينا إليه ألاَّ تتخذوا من دوني وكيلاً .

أو نقول : إن فيها معنى المصدرية ، وأنْ المصدرية قد تُجرّ بحرف جر كما نقول : عجبت أنْ تنجحَ ، أي : من أنْ تنجح ، ويكون معنى الآية هنا : وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لنبي إسرائيل لأنْ لا تتخذوا من دوني وكيلاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا . . } .

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (3)

(ذرية) منصوبة هنا على الاختصاص لِقصْد المدح ، فالمعنى : أخصّكم أنتم يا ذرية نوح ، ولكن لماذا ذرية نوح بالذات؟

ذلك لأننا نَجَّيْنَا الذين آمنوا معه من الطوفان والغرق ، وحافظنا على حياتهم ، وأنتم ذريتهم ، فلا بُدَّ لكم أنْ تذكروا هذه النعمة لله تعالى ، أن أبقاكم الآن من بقاء آبائكم .

فكأن الحق سبحانه يمتنّ عليهم بأنْ نَجَّى آباءهم مع نوح ، فليستمعوا إلى منهج الله الذي جَرَّبه آباؤهم ، ووجدوا أن مَنْ يؤمن بالله تكون له النجاة والأمن من عذاب الله .

ويقول تعالى :

{ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً } [الإسراء : 3] .

أي : أن الحق سبحانه أكرم ذريته؛ لأنه كان عبداً شكوراً ، والعمل الصالح ينفع ذرية صاحبه؛ ولذلك سنلاحظ ذرية نوح بعنايتنا ، ولن نتركهم يتخبّطون في متاهات الحياة ، وسنرسل لهم الهدى الذي يرسم لهم الطريق القويم ، ويُجنّبهم الزَّلل والانحراف .

ودائماً ما ينشغل الآباء بالأبناء ، فإذا ما توفّر للإنسان قُوت يومه تطلّع إلى قُوت العام كله ، فإذا توفّر له قوت عامه قال : أعمل لأولادي ، فترى خير أولاده أكثر من خَيْره ، وتراه ينشغل بهم ، ويُؤثِرهم على نفسه ، ويترقّى في طلب الخير لهم ، ويودُّ لو حمل عنهم كل تعب الحياة ومشاقها .

ومع ذلك ، فالإنسان عُرْضَة للأغيار ، وقد يأتيه أجله فيترك وراءه كل شيء؛ ولذلك فالحق سبحانه يدلّنا على وَجْه الصواب الذي ينفع الأولاد ، فيقول تعالى : { وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } [النساء : 9] .

والحق تبارك وتعالى حينما يُعلّمنا أن تقوى الله تتعدَّى بركتها إلى أولادك من بعدك ، يعطينا مثلاً واقعياً في قصة موسى والخضر عليهما السلام التي حكاها لنا القرآن الكريم .

والشاهد فيها أنهما حينما مرّا على قرية ، واستطعما أهلها فأبَوْا أنْ يُضيّفوهما ، وسؤال الطعام يدل على صِدْق الحاجة ، فلو طلب منك السائل مالاً فقد تتهمه بكَنْزِه ، أما إذا طلب منك رغيفاً يأكله فلا شكّ أنه صادق في سؤاله ، فهذا دليل على أنها قرية لِئَام لا يقومون بواجب الضيافة ، ولا يُقدِّرون حاجة السائل .

ومن هنا تعجَّبَ موسى عليه السلام من مبادرة الخِضْر إلى بناء الجدار الذي أوشك على السقوط دون أنْ يأخذ أَجْره من هؤلاء اللئام : { فانطلقا حتى إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ استطعمآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً } [الكهف : 77] .

وهنا يكشف الخضر لموسى حقيقة الأمر ، ويُظهِر له ما أطلعه الله عليه من بواطن الأمور التي لا يدركها موسى عليه السلام ، فيقول : { وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . . } [الكهف : 82] .

فالجدار مِلْك لغلامين صغيرين لا يقدران على حماية مالهما من هؤلاء اللئام ، ولأن أباهما كان صالحاً سخّر الله لهما مَنْ يخدمهما ، ويحافظ على مالهما .

إذن : فِعلّة هذا العمل أن أباهما كان صالحاً ، فأكرمهم الله من أجله ، وجعلهما في حيازته وحفظه .

وهنا قد يسأل سائل : ومن أين للغلامين أن يعلما بأمر هذا الكنز عند بلوغهما؟

والظاهر أن الخضر بما أعطاه الله من الحكمة بنى هذا الجدار بناءً موقوتاً ، بحيث ينهدم بعد بلوغ الغلامين ، فيكونان قادريْنِ على حمايته والدفاع عنه .

والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا هذه القضية في آية أخرى فيقول سبحانه : { والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ } [الطور : 21] .

فكرامةً للآباء نلحق بهم الأبناء ، حتى وإنْ قَصَّروا في العمل عن آبائهم ، فنزيد في أجر الأبناء ، ولا ننقص من أجر الآباء .

وقوله : { إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً } [الإسراء : 3] .

وشكور صيغة مبالغة في الشكر ، فلم يقل شاكر؛ لأن الشاكر الذي يشكر مرة واحدة ، أما الشكور فهو الدائب على الشكر المداوم عليه ، وقالوا عن نوح عليه السلام : إنه كان لا يتناول شيئاً من مُقوّمات حياته إلا شكر الله عليها . ولا تنعَّم بنعمة من ترف الحياة إلا حمد الله عليها ، فإذا أكل قال : الحمد لله الذي أطعمني من غير حول مني ولا قوة ، وإذا شرب قال : الحمد لله الذي سقاني من غير حول مني ولا قوة ، وهكذا في جميع أمره .

ويقول بعض العارفين : ما أكثر ما غفل الإنسان عن شكر الله على نعمه .

ونرى كثيراً من الناس قصارى جَهْدهم أن يقولوا : بسم الله في أول الطعام والحمد لله في آخره ، ثم هم غافلون عن نعم كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، تستوجب الحمد والشكر .

لذلك حينما يعقل الإنسان ويفقه نِعَم الله عليه ، ويعلم أن الحمد قَيْد للنعمة ، تجده يعمل ما نُسميّه حَمْد القضاء مثل الصلاة القضاء أي : حمد الله على نعم فاتت لم يحمده عليها ، فيقول : الحمد لله على كل نعمة أنعمتَها عليَّ يا ربّ ، ونسيت أنْ أحمدَك عليها ، ويجعل هذا الدعاء دَأَبه وديدنه .

وقد يتعدى حمدَ الله لنفسه ، فيحمد الله عن الناس الذين أنعم الله عليهم ولم يحمدوه ، فيقول : الحمد لله عن كل ذي نعمة أنعمتَ عليه ، ولم يحمدك عليها .

ولذلك يقولون : إن النعمة التي تحمد الله عليها لا تُسأل عنها يوم القيامة؛ لأنك أدَّيْتَ حقها من حَمْد الله والثناء عليه .

والحمد والشكر وإنْ كان شكراً للمنعم سبحانه وثناء عليه ، فهو أيضاً تجارة رابحة للشاكر؛ لأن الحق سبحانه يقول : { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ } [إبراهيم : 7] .

فمَنْ أراد الخير لنفسه وأحب أن نواصل له النعم فليداوم على حمدنا وشكرنا .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ . . } .

وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (4)

قوله تعالى :

{ وَقَضَيْنَآ . . } [الإسراء : 4] .

أي : حكمنا حُكْماً لا رجعةَ فيه ، وأعلنَّا به المحكوم عليه ، والقاضي الذي حكم هنا هو الحق سبحانه وتعالى .

والقضاء يعني الفَصْل في نزاع بين متخاصمين ، وهذا الفَصْل لا بُدَّ له من قاضٍ مُؤهَّل ، وعلى علم بالقانون الذي يحكم به ، ويستطيع الترجيح بين الأدلة .

إذن : لا بُدَّ أن يكون القاضي مُؤهّلاً ، ولو عُرْف المتنازعين ، ويمكن أن يكونوا جميعاً أميّين لا يعرفون عن القانون شيئاً ، ولكنهم واثقون من شخص ما ، ويعرفون عنه قَوْل الحق والعدل في حكومته ، فيرتضونه قاضياً ويُحكّمونه فيما بينهم .

ثم إن القاضي لا يحكم بعلمه فحسب ، بل لا بُدَّ له من بينة على المدعي أن يُقدّمها أو اليمين على مَنْ أنكر ، والبينة تحتاج إلى سماع الشهود ، ثم هو بعد أن يحكم في القضية لا يملك تنفيذ حكمه ، بل هناك جهة أخرى تقوم بتنفيذ حكمه ، ثم هو في أثناء ذلك عُرْضة للخداع والتدليس وشهادة الزور وتلاعب الخصوم بالأقوال والأدلة .

وقد يستطيع الظالم أنْ يُعمِّي عليه الأمر ، وقد يكون لبقاً متكلماً يستميل القاضي ، فيحوّل الحكم لصالحه ، كل هذا يحدث في قضاء الدنيا .

فما بالك إذا كان القاضي هو رب العزة سبحانه وتعالى؟

إنه سبحانه وتعالى القاضي العدل الذي لا يحتاج إلى بيّنة ولا شهود ، ولا يقدر أحد أنْ يُعمِّي عليه أو يخدعه ، وهو سبحانه صاحب كل السلطات ، فلا يحتاج إلى قوة أخرى تنفذ ما حكم به ، فكل حيثيات الأمور موكولة إليه سبحانه .

وقد حدث هذا فعلاً في قضاء قضاه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهل القضاة أفضل من رسول الله؟!

ففي الحديث الشريف : « إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إليَّ ، ولعل أحدكم أن يكون ألحنَ بحجته فأقضي له ، فمَنْ قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه؛ فإنما أقطع له قطعة من النار » .

فردَّ صلى الله عليه وسلم الحكم إلى ذات المحكوم له ، ونصحه أنْ يراجعَ نفسه وينظر فيما يستحق ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بشر يقضي كما يقضي البشر ، ولكن إنْ عمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّي على قضاء السماء .

ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم فيمَنْ يستفتي شخصاً فيفتيه فتوى تخالف الحق وتجانب الصواب : « استفتِ قلبك ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ ، وإنْ أفتوْكَ » .

قالها ثلاثاً ليلفتنا إلى ضرورة أن يكون الإنسان واعياً مُميّزاً بقلبه بين الحلال والحرام ، وعليه أن

يُراجع نفسه ويتدبر أمره .

وقوله : { فِي الكتاب . . } [الإسراء : 4] .

أي : في التوراة ، كتابهم الذي نزل على نبيهم ، وهم محتفظون به وليس في كتاب آخر ، فالحق سبحانه قضى عليهم . أي : حكم عليهم حُكْماً وأعلمهم به ، حيث أوحاه إلى موسى ، فبلّغهم به في التوراة ، وأخبرهم بما سيكون منهم من ملابسات استقبال منهج الله على ألسنة الرسل ، أَيُنفذونه وينصاعون له ، أم يخرجون عنه ويفسدون في الأرض؟

إذا كان رسولهم عليه السلام قد أخبرهم بما سيحدث منهم ، وقد حدث منهم فعلاً ما أخبرهم به الرسول وهم مختارون ، فكان عليهم أنْ يخجلوا من ربهم عز وجل ، ولا يتمادوا في تصادمهم بمنهج الله وخروجهم عن تعاليمه ، وكان عليهم أن يصدقوا رسولهم فيما أخبرهم به ، وأنْ يُطيعوا أمره .

وقوله تعالى :

{ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ . . } [الإسراء : 4] .

جاءتْ هذه العبارة هكذا مُؤكّدة باللام ، وهذا يعني أن في الآية قَسَماً دَلَّ عليه جوابه ، فكأن الحق سبحانه يقول : ونفسي لتفسدن في الأرض ، لأن القسَم لا يكون إلا بالله .

أو نقول : إن المعنى : ما دُمْنا قد قضينا وحكمنا حُكْماً مُؤكّداً ، لا يستطيع أحد الفِكَاك منه ، ففي هذا معنى القسَم ، وتكون هذه العبارة جواباً ل « قضينا »؛ لأن القسَم يجيء للتأكيد ، والتأكيد حاصل في قوله تعالى :

{ وَقَضَيْنَآ . . . } [الإسراء : 4] .

فما هو الإفساد؟

الإفساد : أن تعمد إلى الصالح في ذاته فتُخرجه عن صلاحه ، فكُلُّ شيء في الكون خلقه الله تعالى لغاية ، فإذا تركتَه ليؤديَ غايته فقد أبقيته على صلاحه ، وإذا أخللْتَ به يفقد صلاحه ومهمته ، والغاية التي خلقه الله من أجلها .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يخلقنا على هذه الأرض خلق لنا مُقوّمات حياتنا في السماء والأرض والشمس والهواء . . الخ وليس مقومات حياتنا فحسب ، بل وأعدَّ لنا في كَوْنه ما يُمكِّن الإنسان بعقله وطاقته أن يَزيدَ الصالح صلاحاً ، فعلى الأقل إنْ لم تستطع أن تزيد الصالح صلاحاً فأبْقِ الصالح على صلاحه .

فمثلاً ، عندك بئر محفورة تخرج لك الماء ، فإما أنْ تحتفِظَ بها على حالها فلا تطمسها ، وإما أنْ تزيدَ في صلاحها بأنْ تبنيَ حولها ما يحميها من زحف الرمال ، أو تجعل فيها آلة رفع للماء تضخُّه في مواسير لتسهِّل على الناس استعمال ، وغير ذلك من أَوْجُه الصلاح .

ولذلك الحق سبحانه وتعالى يقول : { هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } [هود : 61] .

أي : أنشأكم من الأرض ، وجعل لكم فيها مُقوّمات حياتكم ، فإنْ أحببتَ أنْ تُثري حياتك فأعمِلْ عقلك المخلوق لله ليفكر ، والطاقة المخلوقة في أجهزتك لتعمل في المادة المخلوقة لله في الكون ، فأنت لا تأتي بشيء من عندك ، فقط تُعمِل عقلك وتستغل الطاقة المخلوقة لله ، وتتفاعل مع الأرض المخلوقة لله ، فتعطيك كل ما تتطلع إليه وكل ما يُثرِي حياتك ، ويُوفِّر لك الرفاهية والترقي .

فالذين اخترعوا لنا صهاريج المياه أعملُوا عقولهم ، وزادوا الصالح صلاحاً ، وكم فيها من مَيْزات وفَّرت علينا عناء رفع المياه إلى الأدوار العليا ، وقد استنبط هؤلاء فكرة الصهاريج من ظواهر الكون ، حينما رأوا السيل ينحدر من أعلى الجبال إلى أسفل الوديان ، فأخذوا هذه الفكرة ، وأفلحوا في عمل يخدم البشرية .

وكما يكون الإفساد في الماديات كمَنْ أفسدوا علينا الماء والهواء بالملوِّثات ، كذلك يكون في المعنويات ، فالمنهج الإلهي الذي أنزله الله تعالى لهداية الخلق وألزمنا بتنفيذه ، فكوْنُك لا تنفذ هذا المنهج ، أو تكتمه ، أو تُحرِّف فيه ، فهذا كله إفساد لمنهج الله تعالى .

ويقول تعالى لبني إسرائيل :

{ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ . . } [الإسراء : 4] .

وهل أفسد بنو إسرائيل في الأرض مرتين فقط؟

والله إنْ كانوا كذلك فقد خلاهم ذم ، والأمر إذن هَيِّن ، لكنهم أفسدوا في الأرض إفساداً كثيراً متعدداً ، فلماذا قال تعالى : مرتين؟

تحدّث العلماء كثيراً عن هاتين المرتين ، وفي أيّ فترات التاريخ حدثتا ، وذهبوا إلى أنهما قبل الإسلام ، والمتأمل لسورة الإسراء يجدها قد ربطتهم بالإسلام ، فيبدو أن المراد بالمرتين أحداثٌ حدثتْ منهم في حضْن الإسلام .

فالحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الإسراء ذكر قصة بني إسرائيل ، فدلّ ذلك على أن الإسلام تعدّى إلى مناطق مُقدّساتهم ، فأصبح بيت المقدس قِبْلة للمسلمين ، ثم أُسْرِي برسول الله صلى الله عليه وسلم إليه ، وبذلك دخل في حَوْزة الإسلام؛ لأنه جاء مهيمناً على الأديان السابقة ، وجاء للناس كافة .

إذن : كان من الأوْلى أن يُفسِّروا هاتين المرتين على أنهما في حضن الإسلام؛ لأنهم أفسدوا كثيراً قبل الإسلام ، ولا دَخْلَ للإسلام في إفسادهم السابق؛ لأن الحق سبحانه يقول :

{ وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً } [الإسراء :

. [4]

فإنْ كان الفساد مُطْلقاً . أي : قبل أن يأتي الإسلام فقد تعدَّد فسادهم ، وهل هناك أكثر من قولهم بعد أن جاوز بهم البحر فرأوا جماعة يعكفون على عبادة العجل ، فقالوا لموسى عليه السلام : { اجعل لَّنَآ إلها كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ } [الأعراف : 138] .

هل هناك فساد أكثر من أنْ قتلوا الأنبياء الذين جعلهم الله مُثُلاً تكوينية وأُسْوة سلوكية ، وحرّفوا كتاب الله؟

والناظر في تحريف بني إسرائيل للتوراة يجد أنهم حرَّفوها من وجوه كثيرة وتحريفات متعددة ، فمن التوراة ما نسوه ، كما قال تعالى : { وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ . . } [المائدة : 13] .

والذي لم ينسَوْهُ لم يتركوه على حاله ، بل كتموا بعضه ، والذي لم يكتموه لم يتركوه على حاله ، بل حرَّفوه ، كما قال تعالى : { يُحَرِّفُونَ الكلم عَن مَّوَاضِعِهِ . . } [المائدة : 13] .

ولم يقف الأمر بهم عند هذا النسيان والكتمان والتحريف ، بل تعدَّى إلى أن أَتَوا بكلام من عند أنفسهم ، وقالوا هو من عند الله ، قال تعالى : { فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكتاب بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً . . } [البقرة : 79] .

فهل هناك إفساد في منهج الله أعظم من هذا الإفساد؟

ومن العلماء مَنْ يرى أن الفساد الأول ما حدث في قصة طالوت وجالوت في قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإ مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال أَلاَّ تُقَاتِلُواْ . . }

[البقرة : 246] .

فقد طلبوا القتال بأنفسهم وارتضَوْه وحكموا به ، ومع ذلك حينما جاء القتال تنصَّلوا منه ولم يقاتلوا .

ويرون أن الفساد الثاني قد حدث بعد أن قويَتْ دولتهم ، واتسعتْ رقعتها من الشمال إلى الجنوب ، فأغار عليهم بختنصَّر وهزمهم ، وفعل بهم ما فعل .

وهذه التفسيرات على أن الفساديْن سابقان للإسلام ، والأَوْلى أن نقول : إنهما بعد الإسلام ، وسوف نجد في هذا رَبْطاً لقصة بني إسرائيل بسورة الإسراء .

كيف ذلك؟

قالوا : لأن الإسلام حينما جاء كن يستشهد بأهل الكتاب على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ، ونفس أهل الكتاب كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فكان أهل الكتاب إذا جادلوا الكفار والمشركين في المدينة كانوا يقولون لهم : لقد أظلَّ زمان نبي يأتي فنتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم .

لذلك يقول الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : إنهم ينكرون عليك أن الله يشهد ومَنْ عنده علم الكتاب ، فمَنْ عنده علم الكتاب منهم يعرف بمجيئك ، وأنك صادق ، ويعرف علامتك ، بدليل أن الصادقين منهم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ويقول أحدهم : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ، ومعرفتي لمحمد أشد ، لأنه قد يشك في نسبة ولده إليه ، ولكنه لا يشك في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم لِمَا قرأه في كتبهم ، وما يعلمه من أوصافه ، لأنه صلى الله عليه وسلم موصوف في كتبهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

إذن : كانوا يستفتحون برسول الله على الذين كفروا ، وكانوا مستشرفين لمجيئه ، وعندهم مُقدِّمات لبعثته صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك : { فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ . . } [البقرة : 89] .

فلما كفروا به ، ماذا كان موقفه صلى الله عليه وسلم بعد أن هاجر إلى المدينة؟

في المدينة أبرم رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم معاهدة يتعايشون بموجبها ، ووفّى لهم رسول الله ما وفّوا ، فلما غدروا هم ، واعتدوا على حرمات المسلمين وأعراضهم ، جاس رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال ديارهم ، وقتل منهم مَنْ قَتل ، وأجلاهم عن المدينة إلى الشام وإلى خيبر؛ وكان هذا بأمر من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : { هُوَ الذي أَخْرَجَ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الحشر مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وظنوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ الله فَأَتَاهُمُ الله مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار } [الحشر : 2] .

وهذا هو الفساد الأول الذي حدث من يهود بني النضير ، وبني قَيْنقاع ، وبني قريظة ، الذين خانوا العهد مع رسول الله ، بعد أن كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، ونصُّ الآية القادمة يُؤيِّد ما نذهب إليه من أن الإفسادتين كانتا بعد الإسلام .

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (5)

معلوم أن (إذَا) ظرف لما يستقبل من الزمان ، كما تقول : إذا جاء فلان أكرمته ، فهذا دليل على أن أولى الإفسادتين لم تحدث بعد ، فلا يستقيم القول بأن الفساد الأول جاء في قصة طالوت وجالوت ، وأن الإفساد الثاني جاء في قصة بختنصر .

وقوله : { وَعْدُ } . والوعد كذلك لا يكون بشيء مضى ، وإنما بشيء مستقبل . و { أُولاهُمَا } أي : الإفساد الأول .

وقوله : { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ . . . } [الإسراء : 5]

وفي هذه العبارة دليل آخر على أن الإفسادتين كانتا في حضن الإسلام؛ لأن كلمة { عِبَاداً } لا تطلق إلا على المؤمنين ، أما جالوت الذي قتله طالوت ، وبختنصر فهما كافران .

وقد تحدّث العلماء في قوله تعالى : { عِبَاداً لَّنَآ . . } [الإسراء : 5] فمنهم من رأى أن العباد والعبيد سواء ، وأن قوله (عِبَاداً) تُقَال للمؤمن وللكافر ، وأتوا بالأدلة التي تؤيد رأيهم حَسْب زعمهم .

ومن أدلتهم قول الحق سبحانه وتعالى في قصة عيسى عليه السلام : { وَإِذْ قَالَ الله ياعيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الغيوب * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعبدوا الله رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم } [المائدة : 116-118]

والشاهر في قوله تعالى : { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ . . } [المائدة : 118]

فأطلق كلمة « عبادي » على الكافرين ، وعلى هذا القول لا مانع يكون جالوت وبختنصر ، وهما كافران قد سُلِّطا على بني إسرائيل .

ثم استدلوا بآية أخرى تحكي موقفاً من مواقف يوم القيامة ، يقول تعالى للشركاء الذين اتخذوهم من دون الله : { أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ . . } [الفرقان : 17]

فأطلق كلمة (عباد) على الكافرين أيضاً .

إذن : قوله تعالى : { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ . . . } [الإسراء : 5]

ليس من الضروري أن يكونوا مؤمنين ، فقد يكونون من الكفار ، وهنا نستطيع أن نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن ينتقم منهم ، ويُسلِّط عليهم أمثالهم من الكفرة والظالمين ، فإذا أراد سبحانه أن ينتقم من الظالم سلّط عليه مَنْ هو أكثر منه ظلماً ، وأشدّ منه بطشاً ، كما قال سبحانه : { وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } [الأنعام : 129]

وإذا كان أصحاب هذا الرأي لديهم من الأدلة ما يثبت أن كلمة عباد تُطلَق على المؤمنين وعلى الكافرين ، فسوف نأتي بما يدل على أنها لا تُطلَق إلا على المؤمنين .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَعِبَادُ الرحمن الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَماً * وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * والذين يَقُولُونَ رَبَّنَا اصرف عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً * والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً }

[الفرقان : 63-67]

إلى آخر ما ذكرت الآيات من صفا المؤمنين الصادقين ، فأطلق عليهم « عباد الرحمن » .

دليل آخر في قول الحق سبحانه في نقاشه لإبليس : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ . . } [الحجر : 42]

والمراد هنا المؤمنون . . وقد قال إبليس : { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين } [ص : 82-83]

إذن : هنا إشكال ، حيث أتى كُلٌ بأدلّته وما يُؤيّد قوله ، وللخروج من هذا الإشكال نقول : كلمة « عباد » و « عبيد » كلاهما جمع ومفردهما واحد (عبد) . فما الفرق بينهما؟

لو نظرتَ إلى الكون كله مؤمنه وكافره لوجدتهم جميعاً لهم اختيارات في أشياء ، ومقهورين في أشياء أخرى ، فهم جميعاً عبيد بهذا المعنى يستوي في القهر المؤمن والكافر ، إذن : كل الخَلْق عبيد فيما لا اختيارَ لهم فيه .

ثم بعد ذلك نستطيع أن نُقسّمهم إلى قْسمين : عبيد يظلون عبيداً لا يدخلون في مظلة العباد ، وعبيد تسمو بهم أعمالهم وانصياعهم لأمر الله فيدخلون في مظلة عباد الله . كيف ذلك؟

لقد جعل الله تعالى لك في أفعالك منطقة اختيار ، فجعلك قادراً على الفِعْل ومقابله ، وخلقك صالحاً للإيمان وصالحاً للكفر ، لكنه سبحانه وتعالى يأمرك بالإيمان تكليفاً .

ففي منطقة الاختيار هذه يتمايز العبيد والعباد ، فالمؤمنون بالله يخرجون عن اختيارهم إلى اختيار ربهم ، ويتنازلون عن مُرادهم إلى مُراد ربهم في المباحات ، فتراهم يُنفِّذون ما أمرهم الله به ، ويجعلون الاختيار كالقهر . ولسان حالهم يقول لربهم : سمعاً وطاعة .

وهؤلاء هم العباد الذين سَلّموا جميع أمرهم لله في منطقة الاختيار ، فليس لهم إرادة أمام إرادة الله عز وجل .

إذن : كلمة عباد تُطلق على مَنْ تنازل عن منطقة الاختيار ، وجعل نفسه مقهوراً لله حتى في المباحات .

أما الكفار الذين اختاروا مُرادهم وتركوا مُراد الله ، واستعملوا اختيارهم ، ونسوا اختيار ربهم ، حيث خَيَّرهم : تُؤمن أو تكفر قال : أكفر ، تشرب الخمر أو لا تشرب قال : أشرب ، تسرق أو لا تسرق ، قال : أسرق . وهؤلاء هم العبيد ، ولا يقال لهم « عباد » أبداً؛ لأنهم لا يستحقون شرف هذه الكلمة .

ولكي نستكمل حَلَّ ما أشكل في هذه المسألة لا بُدَّ لنا أن نعلم أن منطقة الاختيار هذه لا تكون إلا في الدنيا في دار التكليف؛ لأنها محل الاختيار ، وفيها نستطيع أن نُمَيِّز بين العباد الذين انصاعوا لربهم وخرجوا عن مرادهم لمراده سبحانه ، وبين العبيد الذين تمرَّدوا واختاروا غير مراد الله عز وجل في الاختياريات ، أما في القهريات فلا يستطيعون الخروج عنها .

فإذا جاءت الآخرة فلا محلَّ للاختيار والتكليف ، فالجميع مقهور لله تعالى ، ولا مجالَ فيها للتقسيم السابق ، بل الجميع عبيد وعباد في الوقت ذاته .

إذن : نستطيع أن نقول : إن الكل عباد في الآخرة ، وليس الكل عباداً في الدنيا . وعلى هذا نستطيع فهم معنى (عباد) في الآيتين : { إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ . . } [المائدة : 118]
وقوله : { أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ . . } [الفرقان : 17]
فسمّاهم الحق سبحانه عباداً؛ لأنه لم يَعُدْ لهم اختيار يتمردون فيه ، فاستوَوْا مع المؤمنين في عدم الاختيار مع مرادات الله عز وجل .
إذن : فقول الحق سبحانه : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ . . } [الإسراء : 5]
المقصود بها الإفساد الأول الذي حدث من اليهود في ظِلّ الإسلام ، حيث نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والعباد هم رسول الله والذين آمنوا معه عندما جَاسُوا خلال ديارهم ، وأخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم مَنْ قتلوه ، وسَبَوْا مَنْ سَبَوْه .
وقوله : { أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . . } [الإسراء : 5]
أي : قوة ومنَعة ، وهذه كانت حال المؤمنين في المدينة ، بعد أن أصبحت لهم دولة وشوكة يواجهون بها أهل الباطل ، وليس حال ضعفهم في مكة .
وقوله سبحانه : { فَجَاسُواْ خِلاَلَ الديار . . } [الإسراء : 5]
جاسُوا من جاسَ أي : بحث واستقصى المكان ، وطلب مَنْ فيه ، وهذا المعنى هو الذي يُسمّيه رجال الأمن « تمشيط المكان » .
وهو اصطلاح يعني دِقّة البحث عن المجرمين في هذا المكان ، وفيه تشبيه لتمشيط الشعر ، حيث يتخلل المشط جميع الشعر ، وفي هذا ما يدل على دِقّة البحث ، فقد يتخلل المشط تخلُّلاً سطحياً ، وقد يتخلل بعمق حتى يصل إلى البشرة فيخرج ما لصق بها .
إذن : جاسُوا أي : تتبعوهم تتبعاً بحيث لا يخفي عليهم أحد منهم ، وهذا ما حدث مع يهود المدينة : بني قينقاع ، وبني قريظة ، وبني النضير ، ويهود خيبر .
ونلاحظ هنا أن القرآن آثر التعبير بقوله : { بَعَثْنَا . . } [الإسراء : 5]
والبعث يدل على الخير والرحمة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن في حال اعتداء ، بل في حالة دفاع عن الإسلام أمام مَنْ خانوا العهد ونقضوا الميثاق .
وكلمة : { عَلَيْكُمْ } تفيد العلو والسيطرة .
وقوله : { وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً } [الإسراء : 5]
أي : وَعْد صدق لابد أن يتحقق؛ لأنه وعد من قادر على الإنفاذ ، ولا توجد قوة تحول بينه وبين

إنفاذ ما وعد به ، وإياك أن تظن أنه كأي وَعْد يمكن أنْ يَفِي به صاحبه أو لا يفي به؛ لأن الإنسان إذا وعد وَعْداً : سألقاك غداً مثلاً .

فهذا الوعد يحتاج في تحقيقه أن يكون لك قدرة على بقاء طاقة الإنفاذ ، لكن قد يطرأ عليك من العوارض ما يحول بينك وبين إنفاذ ما وعدت به ، إنما إذا كان الوعد ممَّنْ يقدر على الإنفاذ ، ولا تجري عليه مِثْل هذه العوارض ، فوعْدُه مُتَحقِّق النفاذ .

فإذا قال قائل : الوعد لا تُقال إلا في الخير ، فكيف سَمَّى القرآن هذه الأحداث : { بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ .

. } [الإسراء : 5]

قالوا : الوعيد يُطلَق على الشر ، والوعد يُطلَق على الخير وعلى الشر ، ذلك لأن الشيء قد يكون شراً في ظاهره ، وهو خير في باطنه ، وفي هذا الموقف الذي نحن بصدده ، إذا أراد الحق سبحانه أنْ يُؤدِّبَ هؤلاء الذين انحرفوا عن منهجه ، فقد نرى أن هذا شر في ظاهره ، لكنه في الحقيقة خير بالنسبة لهم ، إنْ حاولوا هم الاستفادة منه .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الذي يعاقبه والده على إهماله أو تقصيره ، فيقسو عليه حِرْصاً على ما يُصلحه ، وصدق الشاعر حين قال :

فَقَسَا لِيزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِماً ... فَلْيَقْسُ أَحْيَاناً على مَنْ يَرْحَمُ

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ . . . }

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (6)

الخطاب في هذه الآية مُوجَّه لبني إسرائيل ، والآية تمثل نقطة تحوُّل وانقلاب للأوضاع ، فبعد أن تحدثنا عنه من غلبة المسلمين ، وأن الله سلّطهم لتأديب بني إسرائيل ، نرى هنا أن هذا الوضع لم يستمر؛ لأن المسلمين تخلَّوْا عن منهج الله الذي ارتفعوا به ، وتَنصَّلوا من كَوْنهم عباداً لله ، فدارت عليهم الدائرة ، وتسلّط عليهم اليهود ، وتبادلوا الدور معهم؛ لأن اليهود أفاقوا لأنفسهم بعد أن أدبهم رسول الله والمسلمون في المدينة ، فأخذوا ينظرون في حالهم وما وقعوا فيه من مخالفات .

ولا بُدّ أنه قد حدث منهم شبه استقامة على منهج الله ، أو على الأقل حدث من المسلمين انصراف عن المنهج وتنكُّب للطريق المستقيم ، فانحلَّتْ الأمور الإيمانية في نفوس المسلمين ، وانقسموا دُوَلاً ، لكل منها جغرافياً ، ولكل منها نظام حاكم ينتسب إلى الإسلام ، فانحلّتْ عنهم صِفَة عباد الله .

فبعد قوتهم واستقامتهم على منهج الله ، وبعد أن استحقوا أن يكونوا عباداً لله بحق تراجعت

كِفتهم وتخلَّوْا عن منهج ربهم ، وتحاكموا إلى قوانين وضعية ، فسلَّط عليهم عدوهم ليؤدّبهم ، فأصبحتْ الغلبة لليهود؛ لذلك يقول تعالى : { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ . . } [الإسراء : 6]

و { ثُمَّ } حرف عطف يفيد الترتيب مع التراخي ، على خلاف الفاء مثلاً التي تفيد الترتيب مع التعقيب ، ومن ذلك قوله تعالى : { ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ } [عبس : 21-22]

فلم يَقُل الحق سبحانه : فرددنا ، بل { ثُمَّ رَدَدْنَا } ذلك لأن بين الكَرَّة الأولى التي كانت للمسلمين في عهد رسول الله ، وبين هذه الكَرَّة التي كانت لليهود وقتاً طويلاً .

فلم يحدث بيننا وبينهم حروب لعدة قرون ، منذ عصر الرسول إلى أن حدث وَعْد بلفور ، الذي أعطى لهم الحق في قيام دولتهم في فلسطين ، وكانت الكَرَّة لهم علينا في عام 1967 ، فناسب العطف ب « ثم » التي تفيد التراخي .

والحق سبحانه يقول : { ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكرة عَلَيْهِمْ . . } [الإسراء : 6]

أي : جعلنا لبني إسرائيل الغَلَبَة والقوة والنصر على المسلمين وسلّطناهم عليهم؛ لأنهم تخلوْا عن منهج ربهم ، وتنازلوا عن الشروط التي جعلتْهم عباداً لله .

و (الكَرَّة) أي : الغلبة من الكَرّ والفَرّ الذي يقوم به الجندي في القتال ، حيث يُقدم مرة ، ويتراجع أخرى .

وقوله تعالى : { وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً } [الإسراء : 6]

وفعلاً أمدّهم الله بالمال حتى أصبحوا أصحاب رأس المال في العالم كله ، وأمدّهم بالبنين الذين يُعلِّمونهم ويُثقّفونهم على أعلى المستويات ، وفي كل المجالات .

ولكن هذا كله لا يعطيهم القدرة على أن تكون لهم كَرَّة على المسلمين ، فهم في ذاتهم ضعفاء رغم ما في أيديهم من المال والبنين ، ولا بُدَّ لهم لكي تقوم لهم قائمة من مساندة أنصارهم وأتباعهم من الدول الأخرى ، وهذا واضح لا يحتاج إلى بيان منذ الخطوات الأولى لقيام دولتهم ووطنهم القومي المزعوم في فلسطين ، وهذا معنى قوله تعالى : { وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً } [الإسراء : 6]

فالنفير مَنْ يستنفره الإنسان لينصره ، والمراد هنا الدول الكبرى التي ساندت اليهود وصادمت المسلمين .

ومازالت الكَرَّة لهم علينا ، وسوف تظل إلى أنْ نعود كما كُنَّا ، عباداً لله مُسْتقيمين على منهجه ، مُحكِّمين لكتابه ، وهذا وَعْد سيتحقّق إنْ شاء الله ، كما ذكرتْ الآية التالية : { إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا . . . } .

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (7)

ومازال الخطاب مُوجّهاً إلى بني إسرائيل ، هاكم سُنّة من سنن الله الكونية التي يستوي أمامها المؤمن والكافر ، وهي أن مَنْ أحسن فله إحسانه ، ومَنْ أساء فعليه إساءته .

فها هم اليهود لهم الغَلبة بما حدث منهم من شبه استقامة على المنهج ، أو على الأقل بمقدار ما تراجع المسلمون عن منهج الله؛ لأن هذه سُنّة كونية ، مَنِ استحق الغلبة فهي له؛ لأن الحق سبحانه وتعالى مُنزّه عن الظلم ، حتى مع أعداء دينه ومنهجه .

والدليل على ذلك ما أمسى فيه المسلمون بتخليهم عن منهج الله .

وقوله تعالى : { إِنْ أَحْسَنْتُمْ . . } [الإسراء : 7]

فيه إشارة إلى أنهم في شَكٍّ أنْ يُحسِنوا ، وكأن أحدهم يقول للآخر : دَعْكَ من قضية الإحسان هذه .

فإذا كانت الكَرَّة الآن لليهود ، فهل ستظل لهم على طول الطريق؟ لا . . لن تظل لهم الغَلبة ، ولن تدوم لهم الكرّة على المسلمين ، بدليل قول الحق سبحانه وتعالى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة . . } [الإسراء : 7]

أي : إذا جاء وقت الإفسادة الثانية لهم ، وقد سبق أنْ قال الحق سبحانه عنهم : { لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ . . } [الإسراء : 4]

وبيّنا الإفساد الأول حينما نقضوا عهدهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة .

وفي الآية بشارة لنا أننا سنعود إلى سالف عهدنا ، وستكون لنا يقظة وصَحْوة نعود بها إلى منهج الله وإلى طريقه المستقيم ، وعندها ستكون لنا الغَلبة والقوة ، وستعود لنا الكَرَّة على اليهود .

وقوله تعالى : { لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ . . } [الإسراء : 7]

أي : نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم؛ لأن الوجه هو السِّمة المعبرة عن نوازع النفس الإنسانية ، وعليه تبدو الانفعالات والمشاعر ، وهو أشرف ما في المرء ، وإساءته أبلغ أنواع الإساءة .

وقوله تعالى : { وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } [الإسراء : 7] أي : أن المسلمين سيدخلون المسجد الأقصى وسينقذونه من أيدي اليهود .

{ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } [الإسراء : 7]

المتأمل في هذه العبارة يجد أن دخولَ المسلمين للمسجد الأقصى أول مرة كان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يكن الأقصى وقتها في أيدي اليهود ، بل كان في أيدي الرومان المسيحيين .

فدخوله الأول لم يكُنْ إساءةً لليهود ، وإنما كان إساءة للمسيحيين ، لكن هذه المرة سيكون دخول الأقصى ، وهو في حوزة اليهود ، وسيكون من ضمن الإساءة لوجوههم أن ندخل عليهم المسجد الأقصى ، ونُطهّره من رِجْسهم .

ونلحظ كذلك في قوله تعالى : { كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } [الإسراء : 7] أن القرآن لم يقُلْ ذلك إلا إذا كان بين الدخولين خروج .

إذن : فخروجنا الآن من المسجد الأقصى تصديق لِنُبوءَة القرآن ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا : إنْ أردتُمْ أنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى ، فعودوا إلى منهج ربكم وتصالحوا معه .

وقوله تعالى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة . . } [الإسراء : 7]

كلمة الآخرة تدلُّ على أنها المرة التي لن تتكرر ، ولكن يكون لليهود غَلَبة بعدها .

وقوله تعالى : { وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً . . } [الإسراء : 7]

يتبروا : أي : يُهلكوا ويُدمِّروا ، ويُخرِّبوا ما أقامه اليهود وما بنَوْهُ وشيَّدوه من مظاهر الحضارة التي نشاهدها الآن عندهم .

لكن نلاحظ أن القرآن لم يقُلْ : ما علوتُم ، إنما قال { مَا عَلَوْاْ } ليدل على أن ما أقاموه وما شيدوه ليس بذاتهم ، وإنما بمساعدة من وراءهم من أتباعهم وأنصارهم ، فاليهود بذاتهم ضعفاء ، لا تقوم لهم قائمة ، وهذا واضح في قَوْل الحق سبحانه عنهم : { ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلة أَيْنَ مَا ثقفوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ الله وَحَبْلٍ مِّنَ الناس . . } [آل عمران : 112]

فهم أذلاء أينما وُجدوا ، ليس لهم ذاتية إلا بعهد يعيشون في ظِلِّه ، كما كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، أو عهد من الناس الذين يدافعون عنهم ويُعاونونهم .

واليهود قوم منعزلون لهم ذاتية وهُويّة لا تذوب في غيرهم من الأمم ، ولا ينخرطون في البلاد التي يعيشون فيها؛ لذلك نجد لهم في كل بلد يعيشون به حارة تسمى « حارة اليهود » ، ولم يكن لهم ميْلٌ للبناء والتشييد؛ لأنهم كما قال تعالى عنهم : { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . } [الأعراف : 168]

كل جماعة منهم في أمة تعيش عيشة انعزالية ، أما الآن ، وبعد أنْ أصبح لهم وطن قومي في فلسطين على حَدِّ زعمهم ، فنراهم يميلون للبناء والتعمير والتشييد .

ونحن الآن ننتظر وَعْد الله سبحانه ، ونعيش على أمل أن تنصلح أحوالنا ، ونعود إلى ساحة ربنا ، وعندها سينجز لنا ما وعدنا من دخول المسجد الأقصى ، وتكون لنا الكرّة الأخيرة عليهم ، سيتحقق لنا هذا عندما ندخل معهم معركة على أسس إسلامية وإيمانية ، لا على عروبة وعصبية سياسية ، لتعود لنا صِفَة العباد ، ونكون أَهْلاً لِنُصْرة الله تعالى :

إذن : طالما أن الحق سبحانه قال : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة . . } [الإسراء : 7]

فهو وَعْد آتٍ لا شَكَّ فيه ، بدليل أن هذه العبارة جاءت بنصِّها في آخر السورة في قوله تعالى : { وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسكنوا الأرض فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } [الإسراء : 104]

والمتأمل لهذه الآية يجد بها بشارة بتحقُّق وَعْد الله ، ويجد أن ما يحدث الآن من تجميع لليهود في أرض فلسطين آية مُرادة لله تعالى .

ومعنى الآية أننا قُلْنا لبني إسرائيل من بعد موسى :

اسكنوا الأرض وإذا قال لك واحد : اسكُنْ فلا بُدَّ أن يُحدد لك مكاناً من الأرض تسكن فيه فيقول لك : اسكن بورسعيد . . اسكن القاهرة . . اسكن الأردن .

أما أن يقول لك : اسكن الأرض!! فمعنى هذا أن الله تعالى أراد لهم أنْ يظلُّوا مبعثرين في جميع الأنحاء ، مُفرّقين في كل البلاد ، كما قال عنهم :

{ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأرض أُمَماً . . } [الأعراف : 168]

فتجدهم منعزلين عن الناس منبوذين بينهم ، كثيراً ما تُثار بسببهم المشاكل ، فيشكو الناس منهم ويقتلونهم ، وقد قال تعالى : { وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القيامة مَن يَسُومُهُمْ سواء العذاب } [الأعراف : 167]

وهكذا سيظل اليهود خميرة عكننة ونكَدٍ بين سكان الأرض إلى يوم القيامة ، وهذه الخميرة هي في نفس الوقت عنصر إثارة وإهاجة للإيمان والخير؛ لأن الإسلام لا يلتفت إليه أهله إلا حين يُهَاج الإسلام ، فساعة أنْ يُهَاجَ تتحرك النزعة الإيمانية وتتنبّه في الناس .

إذن : فوجود اليهود كعنصر إثارة له حكمة ، وهي إثارة الحيوية الإيمانية في النفوس ، فلو لم تُثَر الحيوية الإيمانية لَبهتَ الإسلام .

وهذه هي رسالة الكفر ورسالة الباطل ، فلوجودهما حكمة؛ لأن الكفر الذي يشقي الناس به يُلفِت الناس إلى الإيمان ، فلا يروْنَ راحة لهم إلا في الإيمان بالله ، ولو لم يكُنْ الكفر الذي يؤذي الناس ويُقلق حياتهم ما التفتوا إلى الإيمان .

وكذلك الباطل في الكون بعض الناس ويُزعجهم ، فيلتفتون إلى الحق ويبحثون عنه .

وبعد أن أسكنهم الله الأرض وبعثرهم فيها ، أهاج قلوب أتباعهم من جنود الباطل ، فأوحَوْا إليهم بفكرة الوطن القومي ، وزيَّنُوا لهم أولى خطوات نهايتهم ، فكان أن اختاروا لهم فلسطين ليتخذوا منها وطناً يتجمعون فيه من شتى البلاد .

وقد يرى البعض أن في قيام دولة إسرائيل وتجمّع اليهود بها نكاية في الإسلام والمسلمين ، ولكن الحقيقة غير هذا ، فالحق سبحانه وتعالى حين يريد أن نضربهم الضربة الإيمانية من جنود موصوفين بأنهم : { عِبَاداً لَّنَآ . . } [الإسراء : 5]

يلفتنا إلى أن هذه الضربة لا تكون وهم مُفرّقون مُبعْثرون في كل أنحاء العالم ، فلن نحارب في العالم كله ، ولن نرسل عليهم كتيبة إلى كل بلد لهم فيها حارة أو حي ، فكيف لنا أن نتتبعهم وهم مبعثرون ، في كل بلد شِرْذمة منهم؟

إذن : ففكرة التجمُّع والوطن القومي التي نادى بها بلفور وأيَّدتْها الدول الكبرى المساندة لليهود والمعادية للإسلام ، هذه الفكرة في الحقيقة تمثل خدمة لقضية الإسلام ، وتُسهِّل علينا تتبعهم وتُمكّننا من القضاء عليهم؛ لذلك يقول تعالى : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً } [الإسراء : 104]

أي : أتينا بكم جميعاً ، نضمُّ بعضكم إلى بعض ، فهذه إذن بُشرى لنا معشر المسلمين بأن الكَرَّة ستعود لنا ، وأن الغلبة ستكون في النهاية للإسلام والمسلمين ، وليس بيننا وبين هذا الوعد إلا أن نعود إلى الله ، ونتجه إليه كما قال سبحانه : { فلولا إِذْ جَآءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ } [الأنعام : 43]

والمراد بقوله هنا : { وَعْدُ الآخرة . . } [الإسراء : 7]

هو الوعد الذي قال الله عنه : { فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ المسجد كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . } [الإسراء : 7]

ثم يقول الحق سبحانه : { عسى رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً } .

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (8)

و (عَسَى) حَرْف يدلّ على الرجاء ، وكأن في الآية إشارةً إلى أنهم سيظلون في مذلّة ومَسْكنة ، ولن ترتفع لهم رأس إلا في ظِلّ حبل من الله وعَهْد منه ، وحبل من الناس الذين يُعاهدونهم على النُّصْرة والتأييد والحماية .

وقوله : { رَبُّكُمْ . . } [الإسراء : 8]

انظر فيه إلى العظمة الإلهية ، ورحمة الرب سبحانه الذي ما يزال يخاطب الكافرين الملحدين المعاندين لرسوله ، وهو آخر رسول يأتي من السماء ، ومع ذلك كله يخاطبهم بقوله : { رَبُّكُمْ . . } [الإسراء : 8]

لأن الربّ هو المتولّي للتربية والمتكفّل بضمان مُقومات الحياة ، لا يضنّ بها حتى وإنْ كان العبد كافراً ، فالكلُّ أمام عطاء الربوبية سواء : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .

الجميع يتمتع بِنعَم الله : الشمس والهواء والطعام والشراب ، فهو سبحانه لا يزال ربهم مع كل ما حدث منهم .

وقوله تعالى : { أَن يَرْحَمَكُمْ . . } [الإسراء : 8]

والرحمة تكون للإنسان إذا كان في موقف يستحق فيه الرحمة ، واليهود لن تكون لهم دولة ، ولن يكون لهم كيان ، بل يعيشون في حِضْن الرحمة الإيمانية الإسلامية التي تُعطي لهم فرصة التعايش مع الإسلام معايشة ، كالتي كانت لهم في مدينة رسول الله ، يوم أن أكرمهم وتعاهد معهم .

وقد وصلتْ هذه المعايشة لدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أنْ يقترضَ لا يقترض من مسلم ، بل كان يقترض من اليهود ، وفي هذا حكمة يجب أنْ نعيهَا ، وهي أن المسلم قد يستحي أن يطالب رسول الله إذا نسى مثلاً ، أما اليهودي فسوف يُلِحّ في طلب حقِّه وإذا نسى رسول الله سَيُذكّره .

لذلك كان اليهود كثيراً ما يجادلون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُغالطونه مِرَاراً ، وقد حدث أن وفَّى رسول الله لأحدهم دَيْنه ، لكنه أنكره وأتى يطالب به من جديد ، وأخذ يراجع رسول الله ويغالطه وينكر ويقول : ابْغِني شاهداً .

ولم يكن لرسول الله شاهد وقت السداد ، وهكذا تأزّم الموقف في حضور أحد الصحابة ، واسمه خزيمة ، فهَبَّ خزيمة قائلاً : أنا يا رسول الله كنت شاهداً ، وقد أخذ هذا اليهودي دَيْنه ، فسكت اليهودي ولم يرد ولم يجادل ، فَدل ذلك على كذبه . ويكاد المريب أن يقول : خذوني .

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما اختلى بخزيمة بعد أن انصرف الدائن قال : يا خزيمة ما حملك على هذا القول ، ولم يكن أحد معنا ، وأنا أقضي لليهودي دَيْنه؟ فضحك خزيمة وقال : يا رسول الله أَأُصدِّقُك في خبر السماء ، وأُكذِّبك في عِدّة دراهم؟

فَسُرَّ رسول الله من اجتهاد الرجل ، وقال : « مَنْ شهد له خزيمة فحَسْبه » .

ثم يُهدِّد الحق سبحانه بني إسرائيل ، فيقول : { وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا . . } [الإسراء : 8]

إنْ عُدتُّم للفساد ، عُدْنا ، وهذا جزاء الدنيا ، وهو لا ينجيكم من جزاء الآخرة ، فهذه مسألة وتلك أخرى حتى لا يفهموا أن العقاب على الذنوب في الدنيا يُبرّئهم من عذاب الآخرة .

فالعقوبة على الذنب التي تُبرّئ المذنب من عذاب الآخرة ما كان في حِضْن الإسلام ، وإلاَّ لاَسْتوى مَنْ أقيم عليه الحدّ مع مَنْ لم يُقمْ عليه الحد .

فلو سرق إنسان وقُطِعَتْ يده ، وسرق آخر ولم تُقطع يده ، فلو استَوَوْا في عقوبة الآخرة ، فقد زاد أحدهما عن الآخر في العقوبة ، وكيف يستوي الذي قُطِعَتْ يده . وعاش بِذلّتها طوال عمره مع مَنْ أفلت من العقوبة؟

هذا إنْ كان المذنب مؤمناً .

أما إذا كان المذنب غير مؤمن فالأصل الذي بنينا عليه هذا الحكم ضائع لا وجودَ له ، وعقوبة الدنيا هنا لا تُعفي صاحبها من عقوبة الآخرة؛ لذلك يقول تعالى بعدها : { وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً } [الإسراء : 8]

{ جَعَلْنَا } فِعْل يفيد التحويل ، كأن تقول : جعلت العجين خبزاً ، وجعلت القطن ثوباً ، أي : صيَّرْتُه وحوَّلْتُه . فماذا كانت جهنم أولاً فيُحوّلها الحق سبحانه حصيراً؟

قوله تعالى : { جَعَلْنَا } في هذه الآية لا تفيد التحويل ، إنما هي بمعنى خَلَقْنا ، أي : خلقناها هكذا ، كما نقول : سبحان الذي جعل اللبن أبيض ، فاللبن لم يكن له لون آخر فحوَّله الله تعالى إلى البياض ، بل خلقه هكذا بداية .

ومعنى : { حَصِيراً . . } [الإسراء : 8]

الحصير فراش معروف يُصنع من القَشّ أو من نبات يُسمى السَّمُر ، والآن يصنعونه من خيوط البلاستيك ، وسُمِّي حصيراً ، لأن كلمة حصير مأخوذة من الحَصْر ، وهو التضييق في المكان للمكين ، وفي صناعة الحصير يضمُّون الأعواد بعضها إلى بعض إلى أنْ تتماسكَ ، ولا توجد مسافة بين العود والآخر .

لكن لماذا نفرش الحصير؟ نفرش الحصير؛ لأنه يحبس عَنّا القذَر والأوساخ ، فلا تصيب ثيابنا .

إذن : الحصر معناه المنع والحبس والتضييق .

والمتتبع لمادة (حصر) في القرآن الكريم يجدها بهذه المعاني ، يقول تعالى : { فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم . . } [التوبة : 5]

أي : ضَيِّقوا عليهم .

وقال تعالى في فريضة الحج : { فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا استيسر مِنَ الهدي . . } [البقرة : 196]

أي : حُبِسْتم ومَنعْتم من أداء الفريضة .

إذن : فقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً } [الإسراء : 8]

أي : تحبسهم فيها وتحصرهم ، وتمنعهم الخروج منها ، فهي لهم سجن لا يستطيعون الفرار منه؛ لأنها تحيط بهم من كل ناحية ، كما قال تعالى : { إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا . . } [الكهف : 29]

فلا يستطيعون الخروج ، فإنْ حاولوا الخروج رُدُّوا إليها ، كما قال تعالى : {كُلَّمَآ أرادوا أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا . . } [السجدة : 20]

وفي قوله تعالى : { وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً } [الإسراء : 8]

إشارة إلى أنهم كانوا إذا أجرموا في الدنيا يحتمُون في أنصارهم وأتباعهم من الأقوياء ، ويدخلون في حضانة أهل الباطل ، أما في الآخرة فلن يجدوا ناصراً أو مدافعاً .

يقول تعالى : { مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ }

[الصافات : 25-26]

وبعد أن تكلّم الحق سبحانه عن الإسراء بالرسول الخاتم الرحمة ، وجَعْله آيةً يمكن إقامة الدليل

عليها ، حيث خرق له الناموس في أمور يعلمها قومه ، فإذا جاءت آية المعراج وخرَق له الناموس فيها لا يعلمه القوم كان أَدْعى إلى تصديقه .

ثم أوضح الحق سبحانه أن عبودية محمد صلى الله عليه وسلم لربه هي التي أعطتْه هذه المنزلة ، وكذلك كان نوح عليه السلام عبداً شكوراً ، فهناك فَرْق بين عبودية الخَلْق للخالق ، وعبودية الخَلْق للخَلْق؛ لأن العبودية للخَلْق مذمومة ، حيث يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله فالعبد يأخذ خَيْر سيده .

ثم تحدَّث الحق سبحانه عن بني إسرائيل ، وما وقعوا فيه من إفساد في الأرض ، فأعطانا بذلك نماذج للأعمال لمن أحسن ولمن أساء ، وكُلٌّ له عمله دون ظُلْم أو جَوْر .

لذلك ينقلنا السياق القرآني إلى بيان المنهج الإلهي المنزّل من السماء ليوضح عبودية الإنسان لربه ، وكيف يكون عبداً مُخْلِصاً لله تعالى ، فيقول الحق سبحانه : { إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤمنين . . } .

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)

فمَنْ كان يريد الأُسْوة الطيبة في عبودية الرسول لربه ، هذه العبودية التي جعلتْه يسري به إلى بيت المقدس ، ثم يصعد به إلى السماء ، ومَنْ كان يريد أن يكون مثل نوح في عبوديته لربه فأكرم ذريته من أجله ، فعليه أنْ يسيرَ على دَرْبهم ، وأنْ يقتديَ بهم في عبوديتهم لله تعالى ، وليحذر أن يكون مثل اليهود الذين أفسدوا في الأرض مرتين .

والذي يرسم لنا الطريق ويُوضّح لنا الحق من الباطل هو القرآن الكريم : { إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . . } [الإسراء : 9]

قول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّ هذا القرآن . . } [الإسراء : 9]

هل عند نزول هذه الآية كان القرآن كله قد نزل ، ليقول : إن هذا القرآن؟

نقول : لم يكن القرآن كله قد نزل ، ولكن كل آية في القرآن تُسمّى قرآناً ، كما قال تعالى : { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ } [القيامة : 18]

فليس المراد القرآن كله ، بل الآية من القرآن قرآن . ثم لما اكتمل نزول القرآن ، واكتملتْ كل المسائل التي تضمن لنا استقامة الحياة ، قال تعالى : { اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلام دِيناً . . } [المائدة : 3]

فإن استشرف مُسْتشرف أنْ يستزيد على كتاب الله ، أو يأتي بجديد فليعلم أن منهج الله مُنزَّه عن النقص ، وفي غِنىً عن زيادتك ، وما عليك إلا أن تبحث في كتاب الله ، وسوف تجد فيه ما تصبو إليه من الخير .

قوله : { يَهْدِي . . } [الإسراء : 9]

الهداية هي الطريق الموصِّل للغاية من أقرب وَجْه ، وبأقل تكلفة وهي الطريق المستقيم الذي لا التواءَ فيه ، وقلنا : إن الحق سبحانه يهدي الجميع ويرسم لهم الطريق ، فمن اهتدى زاده هُدى ، كما قال سبحانه : { والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ } [محمد : 17]

ومعنى : { أَقْوَمُ . . } [الإسراء : 9]

أي : أكثر استقامة وسلاماً . هذه الصيغة تُسمّى أفعل التفضيل ، إذن : فعندنا (أقوم) وعندنا أقل منه منزلة (قَيّم) كأن نقول : عالم وأعلم .

فقوله سبحانه : { إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . . } [الإسراء : 9]

يدل على وجود (القيّم) في نُظم الناس وقوانينهم الوضعية ، فالحق سبحانه لا يحرم البشر من أن يكون لهم قوانين وشرائع حينما تعضُّهم المظالم ويشْقُون بها ، فيُقنّنون تقنيات تمنع هذا الظلم . ولا مانع من ذلك إذا لم ينزل لهم منهج من السماء ، فما وضعوه وإنْ كان قَيّماً فما وضعه الله أقوم ، وأنت لا تضع القيم إلا بعد أن تُعضَّ بشيء مُعوج غير قيّم ، وإلا فماذا يلفتُك للقيم؟

أما منهج السماء فإنه يضع الوقاية ، ويمنع المرض من أساسه ، فهناك فَرْق بين الوقاية من المرض وبين العلاج للمرض ، فأصحاب القوانين الوضعية يُعدّلون نُظمهم لعلاج الأمراض التي يَشْقَون بها .

أما الإسلام فيضع لنا الوقاية ، فإن حَدثْت غفلة من المسلمين ، وأصابتهم بعض الداءات نتيجة انصرافهم عن منهج ربهم نقول لهم : عودوا إلى المنهج : { إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .

. } [الإسراء : 9]

ولتوضيح أن منهج الحق سبحانه أقوم نرى ما حدث معنا في مدينة « سان فرانسيسكو » فقد سألنا أحدُ المستشرقين عن قول الحق تبارك وتعالى : { يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ الله بِأَفْوَاهِهِمْ ويأبى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون } [التوبة : 32]

وفي آية أخرى يقول : { هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون } [التوبة : 33]

فكيف يقول القرآن : { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ . . } [التوبة : 33]

في حين أن الإسلام محصور ، وتظهر عليه الديانات الأخرى؟ فقلتُ له : لو تأملتَ الآية لوجدت فيها الردّ على سؤالك ، فالحق سبحانه يقول : { وَلَوْ كَرِهَ الكافرون } [التوبة : 32]

ويقول : { وَلَوْ كَرِهَ المشركون } [التوبة : 33]

إذن : فالكافرون والمشركون موجودون ، فالظهور هنا ليس ظهور اتّباع ، ولم يقُل القرآن : إن

الناس جميعاً سيؤمنون .

ومعنى الظهور هنا ظهور حُجّة وظهور حاجة ، ظهور نظم وقوانين ، ستضرهم أحداث الحياة ومشاكلها إلى التخلّي عن قوانينهم والأخذ بقوانين الإسلام؛ لأنهم وجدوا فيها ضَالّتهم .

فنظام الطلاق في الإسلام الذي كثيراً ما هاجموه وانتقدوه ، ورأوا فيه ما لا يليق بالعلاقة الزوجية ، ولكن بمرور الزمن تكشفت لهم حقائق مؤلمة ، وشقي الكثيرون منهم لعدم وجود هذا الحل في قوانينهم ، وهكذا ألجاتهم مشاكل الحياة الزوجية لأنْ يُقنّنوا للطلاق .

ومعلوم أن تقنينهم للطلاق ليس حُباً في الإسلام أو اقتناعاً به ، بل لأن لديهم مشاكل لا حَلَّ لها إلا بالطلاق ، وهذا هو الظهور المراد في الآيتين الكريمتين ، وهو ظهور بشهادتكم أنتم؛ لأنكم ستلجأون في حل قضاياكم لقوانين الإسلام ، أو قريباً منها .

ومن هذه القضايا أيضاً قضية تحريم الربا في الإسلام ، فعارضوه وأنكروا هذا التحريم ، إلى أن جاء « كِنز » وهو زعيم اقتصادي عندهم ، يقول لهم : انتبهوا ، لأن المال لا يؤدي وظيفته كاملة في الحياة إلا إذا انخفضتْ الفائدة إلى صفر .

سبحان الله ، ما أعجب لجَجَ هؤلاء في خصومتهم مع الإسلام ، وهل تحريم الربا يعني أكثر من أن تنخفض الفائدة إلى صفر؟ إنهم يعودون لمنهج الله تعالى رَغْماً عنهم ، ومع ذلك لا يعترفون به .

ولا يخفي ما في التعامل الربوي من سلبيات ، وهل رأينا دولة اقترضت من أخرى ، واستطاعت على مَرّ الزمن أنْ تُسدد حتى أقساط الفائدة؟ ثم نراهم يغالطوننا يقولون : ألمانيا واليابان أخذت قروضاً بعد الحروب العالمية الثانية ، ومع ذلك تقدمت ونهضت .

نقول لهم : كفاكم خداعاً ، فألمانيا واليابان لم تأخذ قروضاً ، وإنما أخذت معونة لا فائدة عليها ، تسمى معونة (مارشال) .

وأيضاً من هذه القضايا التي ألجأتهم إليها مشاكل الحياة قضية ميراث المرأة ، فلما عَضَّتهم قَنَّنُوا لها .

فظهور دين الله هنا يعني ظهورَ نُظم وقوانين ستضطرهم ظروف الحياة إلى الأخذ بها ، وليس المقصود به ظهور اتّباع .

إذن : فمنهج الله أقوم ، وقانون الحق سبحانه أعظم من قوانين البشر وأَهْدى ، وفي القرآن الكريم ما يُوضّح أن حكم الله وقانونه أقوم حتى من حكم رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا في قصة مولاه « زيد بن حارثة » ، وزيد لم يكن عبداً إلى أن خطفه بعض تجار الرقيق وباعوه ، وانتهى به المطاف إلى السيدة خديجة رضي الله عنها التي وهبتْه بدورها لخدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فكان زيد في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن علم أهله بوجوده في مكة فأتوا

ليأخذوه ، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أن خَيَّره بين البقاء معه وبين الذهاب إلى أهله ، فاختار زيد البقاء في خدمة رسول الله وآثره على أهله . فقال صلى الله عليه وسلم : « فما كنت لأختار على مَنِ اختاريني شيئاً » .

وفي هذه القصة دليل على أن الرقَّ كان مباحاً في هذا العصر ، وكان الرقّ حضانةَ حنانٍ ورحمة ، يعيش فيها العبد كما يعيش سيده ، يأكل من طعامه ، ويشرب من شرابه ، يكسوه إذا اكتسى ، ولا يُكلّفه ما لا يطيق ، وإنْ كلّفه أعانه ، فكانت يده بيده .

وهكذا كانت العلاقة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين زيد؛ لذلك آثره على أهله ، وأحب البقاء في خدمته ، فرأى رسول الله أن يُكافئ زيداً على إخلاصه له وتفضيله له على أهله ، فقال : « لا تقولوا زيد بن حارثة ، قولوا زيد بن محمد » .

وكان التبني شائعاً في ذلك الوقت . فلما أراد الحق سبحانه أنْ يُحرّم التبني ، وأنْ يُحرّم نسبة الولد إلى غير أبيه بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : { ادعوهم لآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله فَإِن لَّمْ تعلموا آبَاءَهُمْ فَإِخوَانُكُمْ فِي الدين وَمَوَالِيكُمْ } [الأحزاب : 5]

والشاهد هنا : { هُوَ أَقْسَطُ عِندَ الله } [الأحزاب : 5]

فكأن الحكم الذي أنهى التبني ، وأعاد زيداً إلى زيد بن حارثة هو الأقسط والأعدل ، إذن : حكم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن جَوْراً ، بل كان قِسْطاً وعدلاً ، لكنه قسط بشري يَفْضُله ما كان من عند الحق سبحانه وتعالى .

وهكذا عاد زيد إلى نسبة الأصلي ، وأصبح الناس يقولون « زيد ابن حارثة » ، فحزن لذلك زيد ، لأنه حُرِم من شرف الانتساب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعوَّضه الله تعالى عن ذلك وساماً لم يَنَلْه صحابي غيره ، هذا الوسام هو أن ذُكِر اسمه في القرآن الكريم ، وجعل الناس يتلونه ، ويتعبدون به في قوله تعالى : { فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا . . } [الأحزاب : 37]

إذن : عمل الرسول قسط ، وعمل الله أقسط .

قوله تعالى : { يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ . . } [الإسراء : 9]

لأن المتتبع للمنهج القرآني يجده يُقدّم لنا الأقوم والأعدل والأوسط في كل شيء .

في العقائد ، وفي الأحكام ، وفي القصص .

ففي العقائد مثلاً ، جاء الإسلام ليجابه مجتمعاً متناقضاً بين مَنْ ينكر وجود إله في الكون ، وبين مَنْ يقول بتعدُّد الآلهة ، فجاء الإسلام وَسَطاً بين الطرفين ، جاء بالأقوم في هذه المسألة ، جاء ليقول بإله واحد لا شريك له .

فإذا ما تحدّث عن صفات هذا الإله سبحانه اختار أيضاً ما هو أقوم وأوسط ، فللحق سبحانه صفات تشبه صفات البشر ، فَلَه يَدٌ وسمع وبصر ، لكن ليست يده كيدنا ، وليس سمعه كسمعنا

، وليس بصره كبصرنا : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير . . } [الشورى : 11] وبهذا المنهج الحكيم خرجنا مما وقع فيه المشبِّهة الذين شبّهوا صفات الله بصفات البشر ، وخرجنا مما وقع فيه المعطّلة الذين أنكروا أن يكون لله تعالى هذه الصفات وأوّلوها على غير حقيقتها .

وكذلك في الخلق الاجتماعي العام ، يلفتنا المنهج القرآني في قوله تعالى : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105] يلفتنا إلى ما في الكون من عجائب نغفل عنها ، ونُعرِض عن تدبُّرها والانتفاع بها ، ولو نظرنا إلى هذه الآيات بعين المتأمل لوجدنا فيها منافع شتى منها : أنها تُذّكرنا بعظمة الخالق سبحانه ، ثم هي بعد ذلك ستفتح لنا الباب الذي يُثري حياتنا ، ويُوفّر لنا ترف الحياة ومتعتها .

فالحق سبحانه أعطانا مُقوّمات الحياة ، وضمن لنا برحمته ضروريات البقاء ، فمَنْ أراد الكماليات فعليه أنْ يُعمِل عقله فيما أعطاه الله ليصل إلى ما يريد .

والأمثلة كثيرة على مشاهدات متأملة في ظواهر الكون ، اهتدى بها أصحاب إلى اكتشافات واختراعات خدمت البشرية ، وسَهَّلَتْ عليها كثيراً من المعاناة .

فالذي اخترع العجلة في نقل الأثقال بنى فكرتها على ثِقل وجده يتحرك بسهولة إذا وُضع تحته شيء قابل للدوران ، فتوصل إلى استخدام العجلات التي مكَّنَتْهُ من نقل أضعاف ما كان يحمله .

والذي أدخل العالم عصر البخار استنبط فكرة البخار ، وأنه يمكن أن يكون قوةً مُحرِّكة عندما شاهد القِدْر وهو يغلي ، ولاحظ أن غطاءه يرتفع إلى أعلى ، فاهتدى إلى استخدام البخار في تسيير القطارات والعربات .

والعالِم الذي اكتشف دواء « البنسلين » اهتدى إليه عندما شاهد طبقة خضراء نسميها « الريم » تتكون في أماكن استخدام الماء ، وكان يشتكي عينه ، فعندما وصلت هذه المادة إلى عينه ربما مصادفة ، لاحظ أن عينه قد برئت ، فبحث في هذه المسألة حتى توصّل إلى هذا الدواء .

إلى غير ذلك من الآيات والعجائب في كون الله ، التي يغفل عنها الخَلْق ، ويمرُّون عليها وهم معرضون .

أما هؤلاء العلماء الذين أثروا حياة البشرية بنظرتهم الثاقبة ، فقد استخدموا عقولهم في المادة التي خلقها الله ، ولم يأتوا بشيء من عند أنفسهم؛ لأن الحق سبحانه حينما استخلف الإنسان في الأرض أعدَّ له كُلَّ متطلبات حياته ، وضمن له في الكون جنوداً إن أعمل عقله وطاقته يستطيع أن يستفيد منها ، وبعد ذلك طلب منه أن يعمر الأرض :

{ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الأرض واستعمركم فِيهَا } [هود : 61]

والاستعمار أنْ تجعلها عامرة ، وهذا الإعمار يحتاج إلى مجهود ، وإلى مواهب متعددة تتكاتف ، فلا تستقيم الأمور إنْ كان هذا يبني وهذا يهدم ، إذن : لا بد أنْ تُنظم حركة الحياة تنظيماً يجعل

المواهب في الكون تتساند ولا تتعاند ، وتتعاضد ولا تتعارض .
ولا يضمن لنا هذا التنظيم إلا منهج من السماء ينزل بالتي هي أقوم ، وأحكم ، وأعدل ، كما قال تعالى في آية أخرى : { الله الذي أَنزَلَ الكتاب بالحق والميزان } [الشورى : 17]
وإنْ كان الحق سبحانه وتعالى قد دعانا إلى النظر في ظواهر الكون ، والتدبُّر في آيات الله في كونه ، والبحث فيها لنصل إلى أسرار ما غُيّب عنا ، فإنه سبحانه نهانا أن نفعل هذا مع بعضنا البعض ، فقد حرَّم علينا التجسُّس وتتبُّع العورات ، والبحث في أسرار الآخرين وغَيْبهم .
وفي هذا الأدب الإلهي رحمة بالخلق جميعاً؛ لأن الله تعالى يريد أن يُثري حياة الناس في الكون ، وهَبْ أن إنساناً له حسنات كثيرة ، وعنده مواهب متعددة ، ولكن له سيئة واحدة لا يستطيع التخلّي عنها ، فلو تتبعتَ هذه السيئة الواحد فربما أزهدتْك في كل حسناته ، حرمتْك الانتفاع به ، والاستفادة من مواهبه ، أما لو تغاضيت عن هذه السيئة فيه لأمكنك الانتفاع به .
وهَبْ أن صانعاً بارعاً في صنعته وقد احتجْتَه ليؤديَ لك عملاً ، فإذا عرفت عنه ارتكاب معصية ما ، أو اشتهر عنه سيئة ما لأزهدك هذا في صَنْعته ومهارته ، ولرغبت عنه إلى غيره ، وإنْ كان أقلّ منه مهارة .
وهذا قانون عام للحق سبحانه وتعالى ، فالذي نهاك عن تتبُّع غيب الناس ، والبحث عن أسرارهم نهاهم أيضاً عن تتبُّع غَيْبك والبحث عن أسرارك؛ ولذلك ما أنعم الله على عبيده نعمة أعظمَ من حِفْظ الغيب عنده هو؛ لأنه ربّ ، أما البشر فليس فيهم ربوبية ، أمر البشر قائم على العبودية ، فإذا انكشف لأحدهم غَيْبُ أخيه أو عيبٌ من عيوبه أذاعه وفضحه به .
إذن : فالحق تبارك وتعالى يدعونا إلى أن نكون طُلَعة في استنباط أسرار الكون والبحث عن غيبه ، وفي الوقت نفسه ينهانا أن نكون طُلَعة في تتبّع أسرار الناس والبحث عن غيبهم؛ لأنك إنْ تتبعتَ غيب الناس والتمسْتَ عيوبهم حرمْتَ نفسك من مصادر يمكن أنْ تنتفع بها .
فالحق سبحانه يريد في الكون حركة متبادلة ، وهذه الحركة المتبادلة لا تنشأ إلا بوجود نوع من التنافس الشريف البنّاء ، التنافس الذي يُثري الحياة ، ولا يثير شراسة الاحتكاك ، كما قال تعالى : { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون . . } [المطففين : 26]
كما يتنافس طالب العلم مع زميله المجدّ ليكون مِثْله أو أفضل منه ، وكأن الحق سبحانه يعطينا حافزاً للعمل والرُّقي ، فالتنافس المقصود ليس تنافس الغِلّ والحقد والكراهية ، بل تنافس مَنْ يحب للناس ما يحب لنفسه ، تنافس مَنْ لا يشمت لفشل الآخرين .

وقد يجد الإنسان هذا الحافز للمنافسة حتى في عدوه ، ونحن نرى الكثير منا يغضب وتُثَار حفيظته إنْ كان له عدو ، ويراه مصدر شرٍّ وأذى ، ويتوقع منه المكروه باستمرار .
وهو مع ذلك لو استغل حكمة الله في إيجاد هذا العدو لا تنفع به انتفاعاً لا يجده في الصديق ،

لأن صديقك قد يُنافقك أو يُداهنك أو يخدعك .

أما عدوك فهو لك بالمرصاد ، يتتبع سقطاتك ، ويبحث عن عيوبك ، وينتظر منك كَبْوة ليذيعها ويُسمّع بك ، فيحملك هذا من عدوك على الاستقامة والبعد عما يشين .

ومن ناحية أخرى تخاف أن يسبقك إلى الخير ، فتجتهد أنت في الخير حتى لا يسبقك إليه .

وما أجمل ما قاله الشاعر في هذا المعنى :

عِدَايَ لَهُمْ فَضْلٌ عليَّ ومِنَّةٌ ... فَلاَ أبعَدَ الرحْمَنُ عَنّي الأعَادِيَا

هُمُو بحثُوا عَنْ زَلّتي فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نَافَسُوني فاكْتَسبْتُ المعَالِيا

وهكذا نجد لكل شيء في منهج الله فائدة ، حتى في الأعداء ، ونجد في هذا التنافس المثمر الذي يُثري حركة الحياة دليلاً على أن منهج السماء هو الأقوم والأنسب لتنظيم حركة الحياة .

أيضاً لكي يعيش المجتمع آمناً سالماً لا بُدّ له من قانون يحفظ توازنه ، قانون يحمي الضعيف من بطش القوي ، فجاء منهج الله تعالى لِيُقنّن لكل جريمة عقوبتها ، ويضمن لصاحب الحق حَقّه ، وبعد ذلك ترك الباب مفتوحاً للعفو والتسامح بين الناس .

ثم حذَّر القوي أنْ تُطغيه قوته ، وتدعوه إلى ظلم الضعيف ، وذكّره أن قوته ليست ذاتية فيه ، بل هي عَرَضٌ سوف يزول وسوف تتبدل قوته في يوم ما إلى ضَعْف يحتاج معه إلى العون والمساعدة والحماية .

وكأن الحق تبارك وتعالى يقول لنا : أنا أحمي الضعيف من قوتك الآن ، لأحمي ضعفك من قوة غيرك غداً .

أليس في هذا كله ما هو أقوم؟

ونقف على جانب آخر من جوانب هذه القوامة لمنهج الله في مجال الإنفاق ، وتصرُّف المرء في ماله ، والمتأمل في هذا المنهج الأقوم يجده يختار لنا طريقاً وسطاً قاصداً لا تبذيرَ فيه ولا تقتير .

ولاشك أن الإنسان بطبعه يُحب أن يُثري حياته ، وأن يرتقي بها ، ويتمتع بترفها ، ولا يُتاح له ذلك إنْ كان مُبذّراً لا يُبقي من دخله على شيء ، بل لا بُدّ له من الاعتدال في الإنفاق حتى يجد في جعبته ما يمكنه أن يُثري حياته ويرتقي بها ويُوفّر لأسرته كماليات الحياة ، فضلاً عن ضرورياتها .

جاء هذا المنهج الأقوم في قول الحق تبارك وتعالى : { والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [الفرقان : 67]

وفي قوله تعالى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً } [الإسراء : 29]

فللإنسان في حياته طموحات تتتابع ولا تنتهي ، خاصة في عصر كثُرت فيه المغريات ، فإنْ وصل إلى هدف تطلع لما هو أكبر منه ، فعليه إذن ألاّ يُبدّد كل طاقته ، وينفق جميع دَخْله .

وكما نهى الإسلام عن التبذير نهى أيضاً عن البُخْل والإمساك؛ لأن البُخْل مذموم ، والبخيل مكروه من أهله وأولاده ، كما أن البُخْل سبب من أسباب الركود والبطالة والكساد التي تصيب المجتمع ، فالممسك لا يتعامل مع المجتمع في حركة البيع والشراء ، فيسهم ببُخْله في تفاقم هذه المشاكل ، ويكون عنصراً خاملاً يَشْقى به مجتمعه .

إذنْ : فالتبذير والإمساك كلاهما طرف مذموم ، والخير في أوسط الأمور ، وهذا هو الأقوم الذي ارتضاته لنا المنهج الإلهي .

وكذلك في مجال المأكل والمشرب ، يرسم لنا الطريق المعتدل الذي يحفظ للمرء سلامته وصحته ، ويحميه من أمراض الطعام والتُّخْمة ، قال تعالى : { وكُلُواْ واشربوا وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين } [الأعراف : 31]

فقد علَّمنا الإسلام أن الإنسان إذا أكل وشرب على قَدْر طاقة الوقود الذي يحتاجه جسمه لا يشتكي ما يشتكيه أصحاب الإسراف في المأكل والمشرب .

والمتأمل في حال هؤلاء الذين يأكلون كلّ مَا لَذَّ وطاب ، ولا يَحْرمون أنفسهم مما تشتهيه ، حتى وإن كان ضاراً ، نرى هؤلاء عند كِبَرهم وتقدُّم السِّنِّ بهم يُحْرمون بأمر الطبيب من تناول هذه الملذّات ، فترى في بيوت الأعيان الخادم يأكل أطيب الطعام ويتمتع بخير سيده ، في حين يأكل سيده أنواعاً محددة لا يتجاوزها ، ونقول له :

لأنك أكلتها وأسرفتَ فيها في بداية الأمر ، فلا بُدَّ أنْ تُحرَم منها الآن .

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « كُلُوا واشربوا وتصدقوا ، والبسوا في غير إسراف ولا مخيلة »

وأيضاً من أسباب السلامة التي رسمها لنا المنهج القرآني ، ألاَّ يأكل الإنسان إلا على جوع ، فالطعام على الطعام يرهق المعدة ، ويجرُّ على صاحبه العطب والأمراض ، ونلاحظ أن الإنسان يجد لذة الطعام وحلاوته إذا أكل بعد جوع ، فمع الجوع يستطيب كل شيء ولو كان الخبز الجاف .

وهكذا نجد المنهج الإلهي يرسم لنا الطريق الأقوم الذي يضمن لنا سلامة الحياة واستقامتها ، فلو تدبرْتَ هذا المنهج لوجدته في أيّ جانب من جوانب الحياة هو الأقوم والأنسب .

في العقائد ، في العبادات ، في الأخلاق الاجتماعية العامة ، في العادات والمعاملات ، إنه منهج ينتظم الحياة كلها ، كما قال الحق سبحانه : { مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ } [الأنعام : 38]

هذا المنهج الإلهي هو أَقْوم المناهج وأصلحها؛ لأنه منهج الخالق سبحانه الذي يعلم مَنْ خلق ، ويعلم مَا يصلحهم ، كما قلنا سابقاً : إن الصانع من البشر يعلم صَنْعته ، ويضع لها من تعليمات التشغيل والصيانة ما يضمن لها سلامة الأداء وأمن الاستعمال .

فإذا ما استعملْتَ الآلة حَسبْ قانون صانعها أدَّتْ مهمتها بدقة ، وسلَمتْ من الأعطال ، فالذي خلق الإنسان أعلم بقانون صيانته ، فيقول له : افعل كذا ولا تفعل كذا :

{ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [الملك : 14]

فآفة الناس في الدنيا أنهم وهم صَنْعة الحق سبحانه يتركون قانونه ، ويأخذون قانون صيانتهم من أمثالهم ، وهي قوانين وضعية قاصرة لا تسمو بحال من الأحوال إلى قانون الحق سبحانه ، بل لا وَجْهَ للمقارنة بينهما . إذن : لا تستقيم الحياة إلا بمنهج الله عز وجل .

ثم يقول تعالى : { وَيُبَشِّرُ المؤمنين الذين يَعْمَلُونَ الصالحات أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً } [الإسراء : 9]

فالمنفذ لهذا المنهج الإلهي يتمتع باستقامة الحياة وسلامتها ، وينعم بالأمن الإيماني ، وهذه نعمة في الدنيا ، وإن كانت وحدها لكانت كافية ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُبشِّرنا بما هو أعظم منها ، وبما ينتظرنا من نعيم الآخرة وجزائها ، فجمع لنا ربنا تبارك وتعالى نَعيمَيْ الدنيا والآخرة .

نعيم الدنيا لأنك سِرْتَ فيها على منهج معتدل ونظام دقيق ، يضمن لك فيها الاستقامة والسلام والتعايش الآمن مع الخَلْق .

ومن ذلك قول الحق سبحانه : { فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ } [البقرة : 38]

وقوله تعالى في آية أخرى : { فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى } [طه : 123]

ويقول تعالى : { مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النحل : 97]

وفي الجانب المقابل يقول الحق سبحانه : { وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القيامة أعمى * قَالَ رَبِّ لِمَ حشرتني أعمى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كذلك أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وكذلك اليوم تنسى } [طه : 124-126]

فكما أن الحق تبارك وتعالى جمع لعباده الصالحين السائرين على منهجه خيري الدنيا والآخرة ، ففي المقابل جمع لأعدائه المعرضين عن منهجه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لا ظُلْماً منه ، فهو سبحانه مُنَزَّه عن الظلم والجَوْر ، بل عَدْلاً وقِسطاً بما نَسُوا آيات الله وانصرفوا عنها .

ومعنى : { يَعْمَلُونَ الصالحات } [الإسراء : 9]

وعمل الصالحات يكون بأن تزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل تبقي الصالح على صلاحه ، ولا تتدخل فيه بما يُفسده .

وقوله : { أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً } [الإسراء : 9]

نلاحظ هنا أن الحق سبحانه وصف الأجر بأنه كبير ، ولم يَأْتِ بصيغة أفعل التفضيل منها (أكبر) ، فنقول : لأن كبير هنا أبلغ من أكبر ، فكبير مقابلها صغير ، فَوَصْف الأجر بأنه كبير يدل

على أن غيره أصغر منه ، وفي هذا دلالة على عِظَم الأجر من الله تعالى .
أما لو قال : أكبر فغيره كبير ، إذن : فاختيار القرآن أبلغ وأحكم .
كما قلنا سابقاً : إن من أسماء الحق تبارك وتعالى (الكبير) ، وليس من أسمائه أكبر ، إنما هي وصف له سبحانه . ذلك لأن (الكبير) كل ما عداه صغير ، أما (أكبر) فيقابلها كبير .
ومن هنا كان نداء الصلاة (الله أكبر) معناه أن الصلاة وفَرْض الله علينا أكبر من أي عمل دنيويّ ، وهذا يعني أن من أعمال الدنيا ما هو كبير ، كبير من حيث هو مُعين على الآخرة .

فعبادة الله تحتاج إلى طعام وشراب وإلى مَلْبس ، والمتأمل في هذه القضية يجد أن حركة الحياة كلها تخدم عمل الآخرة ، ومن هنا كان عمل الدنيا كبيراً ، لكن فَرْض الله أكبر من كل كبير .
ولأهمية العمل الدنيوي في حياة المسلم يقول تعالى عن صلاة الجمعة : { يأيها الذين آمنوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الجمعة فاسعوا إلى ذِكْرِ الله وَذَرُواْ البيع ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِي الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله واذكروا الله كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الجمعة : 9-10]
والمتأمل في هذه الآيات يجد الحق تبارك وتعالى أمرنا قبل الجمعة أن نترك البيع ، واختار البيع دون غيره من الأعمال؛ لأنه الصفقة السريعة الربح ، وهي أيضاً الصورة النهائية لمعظم الأعمال ، كما أن البائع يحب دائماً البيع ، ويحرص عليه ، بخلاف المشتري الذي ربما يشتري وهو كاره ، فتجده غير حريص على الشراء؛ لأنه إذا لم يشْتَرِ اليوم سيشتري غداً .
إذن : فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع ، فتَرْك غيره من الأعمال أَوْلَى .
فإن ما قُضِيَت الصلاة أمرنا بالعودة إلى العمل والسعي في مناكب الأرض ، فأخرجنا للقائه سبحانه في بيته من عمل ، وأمرنا بعد الصلاة بالعمل .
إذن : فالعمل وحركة الحياة (كبير) ، ولكن نداء ربك (أكبر) من حركة الحياة؛ لأن نداء ربك هو الذي سيمنحك القوة والطاقة ، ويعطيك الشحنة الإيمانية ، فتُقبِل على عملك بِهِمّة وإخلاص .
ثم يقول الحق سبحانه : { وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً } .

وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (10)

وهذه الآية امتداد للآية السابقة ، ومعطوفة عليها؛ لأن الله تعالى ذكر فعلاً واحداً : { وَيُبَشِّرُ المؤمنين . . } [الإسراء : 9]
ثم عطف عليه : { وأَنَّ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة . . } [الإسراء : 10]
إذن : فالآية داخلة في البشارة السابقة ، ولكن كيف ذلك ، والبشارة السابقة تُبشّر المؤمنين بأن

لهم أجراً كبيراً ، والبشارة إخبار بخيْر يأتي في المستقبل ، فكيف تكون البشارة بالعذاب؟

قالوا : نعم ، هذه بشارة على سبيل التهكُّم والاستهزاء بهم ، كما قال تعالى في آية أخرى : { فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة : 34]

وكما قال الحق سبحانه متهكماً : { ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم } [الدخان : 49]

وكما تقول للولد الذي أهمل فأخفق في الامتحان : مبروك عليك الفشل ، أو تقول : بشِّر فلاناً بالرسوب .

وقد تكون البشارة للمؤمن بالجنة ، وللكافر بالعذاب ، كلاهما بشارة للمؤمن ، فبشارة المؤمن بالجنة تسرُّه وتُسعده ، وتجعله يستشرف ما ينتظره من نعيم الله في الآخرة .

وبشارة الكافر بالعذاب تسُرُّ المؤمن؛ لأنه لم يقع في مصيدة الكفر ، وتزجر مَنْ لم يقع فيه وتُخيفه ، وهذا رحمة به وإحسان إليه .

وهذا المعنى واضح في قول الحق سبحانه في سورة الرحمن : { رَبُّ المشرقين وَرَبُّ المغربين * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ البحرين يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الجوار المنشئات فِي البحر كالأعلام * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 17-25]

فهذه كلها نِعَم من نعَم الله تعالى علينا ، فناسب أن تُذيَّل بقوله تعالى : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 18]

أما قوله تعالى : { يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } [الرحمن : 35-36]

فأيُّ نعمة في أنْ يُرسل الله عليهما شواظ من نار ونحاس فلا ينتصران؟

نعم ، المتأمل في هذه الآية يجد فيها نعمة من أعظم نِعَم الله ، ألا وهي زَجْر العاصي عن المعصية ، ومسرّة للطائع .

ثم يقول الحق سبحانه عن طبيعة الإنسان البشرية : { وَيَدْعُ الإنسان بالشر دُعَآءَهُ بالخير وَكَانَ الإنسان عَجُولاً } .

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (11)

(يَدْعُ) الدعاء : طلَب ما تعجز عنه من قادر عليه .

وأهل النحو يقولون . إن الفعل : ماضٍ ومضارع وأمر . فالأمر : طَلَبٌ من الأعلى إلى الأدنى ، فكلّ طلب من الله لخلْقه فهو أمر ، أو من الأعلى من البشر للأدنى . أما إنْ كان الطلب من مُسَاوٍ لك فهو التماس أو رجاء . فإنْ كان الطلب من الأدنى للأعلى ، كطلب العبد من ربه فهو دعاء .

لذلك نجد التدقيق في الإعراب يحفظ لله تعالى مكانته ويُعظّمه ، فنقول للطالب : أعرب : رب اغفر لي ، فيقول : اغفر ، فِعْل دالّ على الدعاء ، لأنه لا يجوز في حَقِّ المَوْلَى تبارك وتعالى أن نقول : فعل أمر ، فالله لا يأمره أحد .

فأوَّل ما يُفهم من الدعاء أنه دَلَّ على صفة العجز والضعف في العبد ، وأنه قد اندكتْ فيه ثورة الغرور ، فعَلِم أنه لا يقدر على هذا إلا الله فتوجه إليه بالدعاء .

(بِالشَّرِّ) بالمكروه ، والإنسان لا يدعو على نفسه ، أو على ولده ، أو على ماله بالشر إلا في حالة الحنَق والغضب وضيق الأخلاق ، الذي يُخرِج الإنسان عن طبيعته ، ويُفقِده التمييز ، فيتسرّع في الدعاء بالشر ، ويتمنى أن يُنّفذ الله له مَا دعا به .

ومن رحمة الله تعالى بعباده ألاَّ يستجيب لهم هذا الدعاء الذي إنْ دلَّ فإنما يدل على حُمْق وغباء من العبد .

وكثيراً ما نسمع أماً تدعو على ولدها بما لو استجاب الله له لكانت قاصمة الظهر لها ، أو نسمع أباً يدعو على ولده أو على ماله ، إذن : فمن رحمة الله بنا أنْ يفوت لنا هذا الحمق ، ولا يُنفّذ لنا ما تعجّلناه من دُعاءٍ بالشر . قال تعالى : { وَلَوْ يُعَجِّلُ الله لِلنَّاسِ الشر استعجالهم بالخير لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ } [يونس : 11]

أي : لو استجاب الله لهم في دعائهم بالشر لكانت نهايتهم .

وإن كنت تُسَرّ وتسعد بأن ربك سبحانه وتعالى فوّتَ لك دعوة بالشر فلم يَسْتجب لها ، وأن لعدم استجابته سبحانه حكمةً بالغةً .

فاعلم أن لله حكمة أيضاً حينما لا يستجيب لك في دعوة الخير ، فلا تقُلْ : دعوتُ فلم يستجِبْ لي ، واعلم أن لله حكمة في أن يمنعك خيراً تُريده ، ولعله لو أعطاك هذا الخير لكان وبالاً عليك .

إذن : عليك أن تقيسَ الأمريْن بمقياس واحد ، وترضى بأمر الله في دعائك بالخير ، كما رضيت بأمره حين صرف عنك دعاء الشر ، ولم يستجب لك فيه . فكما أن له سبحانه حكمة في الأولى ، فلَه حكمة في الثانية .

وقد دعا الكفار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنفسهم ، فقالوا : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء . . } [الأنفال : 32]

وقالوا : { أَوْ تُسْقِطَ السمآء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً . . } [الإسراء : 92]

ولو استجاب الله لهم هذا الدعاء لَقَضى عليهم ، وقطع دابرهم ، لكن لله تعالى حكمة في تفويت هذا الدعاء لهؤلاء الحَمْقى ، وها هم الكفار باقون حتى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة .

وكان المنتظر منهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدنا إليه ، لكن المسألة عندهم ليست مسألة كفر وإيمان ، بل مسألة كراهية لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولما جاء به ، بدليل أنهم قَبلوا الموت في سبيل الكفر وعدم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن طبيعة الإنسان العجلة والتسرُّع ، كما قال تعالى : { خُلِقَ الإنسان مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءاياتي فَلاَ تَسْتَعْجِلُونِ } [الأنبياء : 37]

فكثيراً ما يدعو الإنسان بالخير لنفسه أو بما يراه خيراً ، فلا يجد وراءه إلا الشر والتعب والشقاء ، وفي المقابل قد يُنزل الله بك ما تظنه شراً ، ويسوق الله الخير من خلاله .

إذن : أنت لا تعلم وَجْه الخير على حقيقته ، فدع الأمر لربك عز وجل ، واجعل حظك من دعائك لا أنْ تُجابَ إلى ما دعوت ، ولكن أن تظهر ضراعة عبوديتك لِعزّة ربك سبحانه وتعالى .

ومعنى : { دُعَآءَهُ بالخير . . } [الإسراء : 11]

أي : أن الإنسان يدعو بالشر في إلحاح ، وكأنه يدعو بخير .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ آيَةَ اليل وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً . . } .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12)

الحق سبحانه وتعالى جعل الزمن ليلاً ونهاراً ظرفاً للأحداث ، وجعل لكل منهما مهمة لا تتأتّى مع الآخر ، فهما متقابلان لا متضادان ، فليس الليل ضد النهار أو النهار ضد الليل؛ لأن لكل منهما مهمة ، والتقابل يجعلهما متكاملين .

ولذلك أراد الله تعالى أن يُنظِّر بالليل والنهار في جنس الإنسان من الذكورة والأنوثة ، فهما أيضاً متكاملان لا متضادان ، حتى لا تقوم عداوة بين ذكورة وأنوثة ، كما نرى البعض من الجنسين يتعصَّب لجنسه تعصبُّاً أعمى خالياً من فَهْم طبيعة العلاقة بين الذكر والأنثى .

فالليل والنهار كجنس واحد لهما مهمة ، أما من حيث النوع فلكل منهما مهمة خاصة به ، وإياك أن تخلط بين هذه وهذه .

وتأمل قول الحق سبحانه : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى } [الليل : 1-4]

فلا تجعل الليل ضِداً للنهار ، ولا النهار ضداً لليل ، وكذلك لا تجعل الذكورة ضِداً للأنوثة ، ولا الأنوثة ضداً للذكورة .

قوله تعالى : { وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ . . } [الإسراء : 12]

جعلنا : بمعنى خلقنا ، والليل والنهار هما المعروفان لنا بالمعايشة والمشاهدة ، ومعرفتنا هذه أوضح

من أنْ نعرِّفهما ، فنقول مثلاً : الليل هو مَغِيب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار هو شروق الشمس على نصف الكرة الأرضية .

إذن : قد يكون الشي أوضح من تعريفه .

والحق سبحانه خلق لنا الليل والنهار ، وجعل لكل منهما حكمة ومهمة ، وحينما يتحدّث عنهما ، يقول تعالى : { والضحى * والليل إِذَا سجى } [الضحى : 1-2]

ويقول : { والليل إِذَا يغشى * والنهار إِذَا تجلى } [الليل : 1-2] فبدأ بالليل .

ومرة يتحدث عن اللازم لهما ، فيقول : { وَجَعَلَ الظلمات والنور } [الأنعام : 1]

لأن الحكمة من الليل تكمن في ظُلْمته ، والحكمة من النهار تكمُن في نوره ، فالظُّلْمة سكَنٌ واستقرار وراحة . وفي الليل تهدأ الأعصاب من الأشعة والضوء ، ويأخذ البدن راحته؛ لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم » .

في حين نرى الكثيرين يظنون أن الأضواء المبهرة التي نراها الآن مظهر حضاري ، وهم غافلون عن الحكمة من الليل ، وهي ظلمته .

والنور للحركة والعمل والسَّعْي ، فمَن ارتاح في الليل يُصبح نشيطاً للعمل ، ولا يعمل الإنسان إلا إذا أخذ طاقة جديدة ، وارتاحت أعضاؤه ، ساعتها تستطيع أن تطلب منه أن يعمل .

لذلك قال الحق سبحانه : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار . . } [القصص : 73]

لماذا؟ { لِتَسْكُنُواْ فِيهِ . . } [القصص : 73]

أي : في الليل . { وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . } [القصص : 73] أي : في النهار .

إذن : لليل مهمة ، وللنهار مهمة ، وإياك أنْ تخلط هذه بهذه ، وإذا ما وُجد عمل لا يُؤدِّي إلا بالليل كالحراسة مثلاً ، نجد الحق سبحانه يفتح لنا باباً لنخرج من هذه القاعدة العامة .

فيقول تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بالليل والنهار . . } [الروم : 23]

فجعل النهار أيضاً محلاً للنوم ، فأعطانا فُسْحة ورُخْصة ، ولكن في أضيق نطاق ، فَمَنْ لا يقومون بأعمالهم إلا في الليل ، وهي نسبة ضئيلة لا تخرق القاعدة العامة التي ارتضاها الحق سبحانه لتنظيم حركة حياتنا .

فإذا خرج الإنسان عن هذه القاعدة ، وتمرَّد على هذا النظام الإلهي ، فإن الحق سبحانه يَردعه بما يكبح جماحه ، ويحميه من إسرافه على نفسه ، وهذا من لُطْفه تعالى ورحمته بخَلْقه .

هذا الردْع إما رَدْع ذاتيّ اختياري ، وإما رَدْع قَهْريّ الردع الذاتي يحدث للإنسان حينما يسعى في حركة الحياة ويعمل ، فيحتاج إلى طاقة ، هذه الطاقة تحتاج إلى دم متدفق يجري في أعضائه ، فإنْ زادتْ الحركة عن طاقة الإنسان يلهث وتتلاحق أنفاسه ، وتبدو عليه أمارات التعب والإرهاق ، لأن الدم المتوارد إلى رئته لا يكفي هذه الحركة .

وهذا نلاحظه مثلاً في صعود السُّلَّم ، حيث حركة الصعود مناقضة لجاذبية الأرض لك ، فتحتاج إلى قوة أكثر ، وإلى دم أكثر وتنفس فوق التنفس العادي .

فكأن الحق سبحانه وتعالى جعل التعب والميل إلى الراحة رادعاً ذاتياً في الإنسان ، إذا ما تجاوز حَدّ الطاقة التي جعلها الله فيه .

أما الردْع القهري فهو النوم ، يلقيه الله على الإنسان إذا ما كابر وغالط نفسه ، وظن أنه قادر على مزيد من العمل دون راحة ، فهنا يأتي دور الرادع القَسْري ، فينام رغماً عنه ولا يستطيع المقاومة ، وكأن الطبيعة التي خلقها الله فيه تقول له : ارحم نفسك ، فإنك لم تَعُدْ صالحاً للعمل .

فالحق تبارك وتعالى لا يُسلِم الإنسان لاختياره ، بل يُلقي عليه النوم وفقدان الوعي والحركة ليحميه من حماقته وإسرافه على نفسه .

لذلك نرى الواحد مِنّا إذا ما تعرّض لمناسبة اضطرته لعدم النوم لمدة يومين مثلاً ، لا بُدَّ له بعد أن ينتهي من مهمته هذه أنْ ينَام مثل هذه المدة التي سهرها؛ ليأخذ الجسم حَقَّه من الراحة التي حُرم منها .

وقوله تعالى : { آيَتَيْنِ . . } [الإسراء : 12]

قلنا : إن الآية هي الشيء العجيب الذي يدعو إلى التأمل ، ويُظهِر قدرة الخالق وعظمته سبحانه ، والآية تُطلَق على ثلاثة أشياء :

تُطلَق على الآيات الكونية التي خلقها الله في كونه وأبدعها ، وهذه الآيات الكونية يلتقي بها المؤمن والكافر ، ومنها كما قال تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ اليل والنهار والشمس والقمر } [فصلت : 37]

{ وَمِنْ آيَاتِهِ الجوار فِي البحر كالأعلام } [الشورى : 32]

وهذه الآيات تلفتنا إلى قدرة الخالق سبحانه وتعالى .

– وتُطلق الآيات على المعجزات التي تصاحب الرسل ، وتكون دليلاً على صدْقهم ، فكل رسول يُبعَث ليحمل رسالة الخالق لهداية الخَلْق ، لا بُدَّ أن يأتي بدليل على صِدْقه وأمارة على أنه رسول .

وهذه هي المعجزة ، وتكون مما نبغ فيه قومه ومهروا؛ لتكون أوضح في إعجازهم وأدْعَى إلى تصديقهم .

قال تعالى : { وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بالآيات إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأولون . . } [الإسراء : 59]

وتُطلق الآيات على آيات القرآن الكريم الحاملة للأحكام .

إذن : هذه أنواع ثلاثة في كل منها عجائب تدعوك للتأمل ، ففي الأولى : هندسة الكون ونظامه العجيب البديع الدقيق ، وفي الثانية : آيات الإعجاز ، حيث أتى بشيء نبغ فيه القوم ، ومع

ذلك لم يستطيعوا الإتيان بمثله ، وفي الثالثة : آيات القرآن وحاملة الأحكام؛ لأنها أقوم نظام لحركة الحياة .

فقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا اليل والنهار آيَتَيْنِ . . } [الإسراء : 12]

أي : كونيتين ، ولا مانع أنْ تفسر الآياتُ الكونية آيات القرآن .

وقوله : { فَمَحَوْنَآ آيَةَ اليل . . } [الإسراء : 12]

أي : بعد أنْ كان الضوء غابت الشمس فَحَلَّ الظلام ، أو مَحَوْناهَا : أي جعلناها هكذا ، كما قلنا : سبحان مَنْ بيَّض اللبن .

أي خلقه هكذا ، فيكون المراد : خلق الليل هكذا مظلماً .

{ وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً . . } [الإسراء : 12]

أي : خلقنا النهار مضيئاً ، ومعنى مبصرة أو مضيئة أي : نرى بها الأشياء؛ لأن الأشياء لا تُرى في الظلام ، فإذا حَلَّ الضياء والنور رأيناها ، وعلى هذا كان ينبغي أن يقول : وجعلنا آية النهار مُبْصَراً فيها ، وليست هي مبصرة .

وهذه كما في قوله تعالى في قصة موسى وفرعون : { فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً . . } [النمل : 13]

فنسب البصر إلى الآيات ، كما نسب البصر هنا إلى النهار .

وهذه مسألة حيَّرتْ الباحثين في فلسفة الكون وظواهره ، فكانوا يظنون أنك ترى الأشياء إذا انتقل الشعاع من عينك إلى المرئي فتراه . إلى أن جاء العالم الإسلامي « ابن الهيثم » الذي نَوَّر الله بصيرته ، وهداه إلى سِرِّ رؤية الأشياء ، فأوضح لهم ما وقعوا فيه من الخطأ ، فلو أن الشعاع ينتقل من العين إلى المرئي لأمكنك أن ترى الأشياء في الظُّلمة إذا كنتَ في الضوء .

إذن : الشعاع لا يأتي من العين ، بل من الشيء المرئي ، ولذلك نرى الأشياء إنْ كانت في الضوء ، ولا نراها إن كانت في الظلام .

وعليه يكون الشيء المرئيّ هو الذي يبصرك من حيث هو الذي يتضح لك ، ويساعدك على رؤيته ، ولذلك نقول : هذا شيء يُلفت النظر أي : يرسل إليك مَا يجعلك تلتفت إليه .

إذن : التعبير القرآني : { وَجَعَلْنَآ آيَةَ النهار مُبْصِرَةً . . } [الإسراء : 12]

على مستوى عال من الدقة والإعجاز ، وصدق الله تعالى حين قال : { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاق وفي أَنفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحق } [فصلت : 53]

وقوله تعالى : { لِتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ . . } [الإسراء : 12]

وهذه هي العلة الأولى لآية الليل والنهار .

أي : أن السعي وطلب الرزق لا يكون إلا في النهار؛ لذلك أتى طلب فضل الله ورزقه بعد آية النهار ، ومعلوم أن الإنسان لا تكون له حركة نشاطية وإقبال على السَّعي والعمل إلا إذا كان

مرتاحاً ولا تتوفر له الراحة إلا بنوم الليل .
وبهذا نجد في الآية الكريمة نفس الترتيب الوارد في قوله تعالى : { وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اليل والنهار لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . }

[القصص : 73]
فالترتيب في الآية يقتضي أن نقول : { لِتَسْكُنُواْ فِيهِ . . } [القصص : 73]
أي : في الليل ، { وَلِتَبتَغُواْ مِن فَضْلِهِ . . } [القصص : 73] أي : في النهار ، وعمل النهار لا يتم إلا براحة الليل ، فهما إذن متكاملان .
والحق سبحانه وتعالى جعل النهار مَحلاً للحركة وابتغاء فضل الله؛ لأن الحركة أمرٌ ماديّ وتفاعل ماديّ بين الإنسان ومادة الكون من حوله ، كالفلاح وتفاعله مع أرضه ، والعامل تفاعله مع آلته .
هذا التفاعل المادي لا يتم إلا في ضوء؛ لأن الظلمة تغطي الأشياء وتُعميها ، وهذا يتناسب مع الليل حيث ينام الناس ، أما في السعي والحركة فلا بُدَّ من ضوء أتبين به الفاعل والمنفعل له ، ففي الظلمة قد تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه .
إذن : فأول خطوات ابتغاء فضل الله أن يتبيّن الإنسان المادة التي يتفاعل معها . لذلك ، فالحق سبحانه جعل الظلمة سابقة للضياء . فقال تعالى : { وَجَعَلَ الظلمات والنور } [الأنعام : 1] لأن النور محلٌّ للحركة ، ولا يمكن للإنسان أن يعمل إلا بعد راحة ، والراحة لا تكون إلا في ظُلْمة الليل .
وقوله تعالى : { وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب . . } [الإسراء : 12]
وهذه هي العِلَّة الأخرى لليل والنهار ، حيث بمرورهما يتمّ حساب السنين .
وكلمة { عَدَدَ } تقتضي شيئاً له وحدات ، ونريد أن نعرف كمية هذه الوحدات؛ لأن الشيء إنْ لم تكُنْ له كميات متكررة فهو واحد .
وقوله : { السنين والحساب . . } [الإسراء : 12]
لأنها من لوازم حركتنا في الحياة ، فعن طريق حساب الأيام نستطيع تحديد وقت الزراعات المختلفة ، أو وقت سقوط المطر ، أو هبوب الرياح . وفي العبادات نحدد بها أيام الحج ، وشهر الصوم ، ووقت الصلاة ، ويوم الجمعة ، هذه وغيرها من لوازم حياتنا لا نعرفها إلا بمرور الليل والنهار .
ولو تأملتَ عظمة الخالق سبحانه لوجدتَ القمر في الليل ، والشمس في النهار ، ولكل منهما مهمة في حساب الأيام والشهور والسنين ، فالشمس لا تعرف بها إلا اليوم الذي أنت فيه ، حيث يبدأ اليوم بشروقها وينتهي بغروبها ، أما بالقمر فتستطيع حساب الأيام والشهور؛ لأن

الخالق سبحانه جعل فيه علامة ذاتية يتم الحساب على أساسها ، فهو في أول الشهر هلال ، ثم يكبر فيصير إلى تربيع أول ، ثم إلى تربيع ثان ، ثم إلى بدر ، ثم يأخذ في التناقص إلى أن يصل إلى المحاق آخر الشهر .

إذن : نستطيع أن نحدد اليوم بالشمس والشهور بالقمر ، ومن هنا تثبت مواقيت العبادة بالليل دون النهار ، فتثبت رؤية رمضان ليلاً أولاً ، ثم يثبت نهاراً ، فنقول : الليلة أول رمضان ، لذلك قال تعالى : { هُوَ الذي جَعَلَ الشمس ضِيَآءً والقمر نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السنين والحساب } [يونس : 5]

فقوله : { وَقَدَّرَهُ . . } [يونس : 5] أي : القمر؛ لأن به تتبين أوائل الشهور ، وهو أدقّ نظام حسابي يُعتمد عليه حتى الآن عند علماء الفلك وعلماء البحار وغيرهم .

و { مَنَازِلَ . . } [يونس : 5] هي البروج الاثنى عشر للقمر التي أقسم الله بها في قوله تعالى : { والسمآء ذَاتِ البروج * واليوم الموعود * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ } [البروج : 1-3]

ولأن حياة الخَلْق لا تقوم إلا بحساب الزمن ، فقد جعل الخالق سبحانه في كَوْنه ضوابط تضبط لنا الزمن ، وهذه الضوابط لا تصلح لضبط الوقت إلا إذا كانت هي في نفسها منضبطة ، فمثلاً أنت لا تستطيع أن تضبط مواعيدك على ساعتك إذا كانت غير منضبطة (تُقدّم أو تُأخّر) .

لذلك يقول الخالق المبدع سبحانه عن ضوابط الوقت في كَوْنه : { الشَّمْسُ والقمر بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : 5]

أي : بحساب دقيق لا يختلّ ، وطالما أن الخالق سبحانه خلقها بحساب فاجعلوها ضوابط لحساباتكم .

وقوله تعالى : { وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً . . } [الإسراء : 12]

معنى التفصيل أن تجعل بَيْناً بين شيئين ، وتقول : فصلْتُ شيئاً عن شيء ، فالحق سبحانه فصَّل لنا كل ما يحتاج إلى تفصيل ، حتى لا يلتبس علينا الأمر في كل نواحي الحياة .

ومثال ذلك في الوضوء مثلاً يقول سبحانه : { يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المرافق } [المائدة : 6]

فأطلق غَسْل الوجه؛ لأنه لا يختلف عليه أحد ، وحدَّد الأيدي إلى المرافق ، لأن الأيدي يُختلف في تحديدها ، فاليد قد تكون إلى الرُّسْغ ، أو إلى المرفق ، أو إلى الكتف ، لذلك حددها الله تعالى ، لأنه سبحانه يريدها على شكل مخصوص .

وكذلك في قوله تعالى : { وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكعبين } [المائدة : 6]

فالرأس يناسبها المسْح لا الغَسْل ، والرِّجْلاَن كاليد لا بُدَّ أنْ تُحَدَّد . فإذا لم يوجد الماء أو تعذَّر استعماله شرع لنا سبحانه التيمم ، فقال تعالى : { فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيداً طَيِّباً فامسحوا

بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ . . } [النساء : 43]

والتيمم يقوم مقام الوضوء ، من حيث هو استعداد للصلاة ولقاء الحق سبحانه وتعالى ، وقد يظن البعض أن الحكمة من الوضوء الطهارة والنظافة ، وكذلك التيمُّم؛ لذلك يقترح بعضهم أن نُنظّف أنفسنا بالكولونيا مثلاً .

نقول : ليس المقصود بالوضوء أو التيمم الطهارة أو النظافة ، بل المراد الاستعداد للصلاة وإظهار الطاعة والانصياع لشرع الله تعالى ، وإلا كيف تتم الطهارة أو النظافة بالتراب؟

هذا الاستعداد للصلاة هو الذي جعل سيدنا علي زين العابدين رضي الله عنه يَصْفرّ وجهه عند الوضوء ، وعندما سُئِل عن ذلك قال : أتعلمون على مَنْ أنا مُقبل الآن؟

فللقاء الحق سبحانه وتعالى رهبة يجب أن يعمل لها المؤمن حساباً ، وأنْ يستعدّ للصلاة بما شرعه له ربه سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ . . . } .

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (13)

كلمة (طائره) أي : عمله وأصلها أن العرب كانوا في الماضي يزجرون الطير ، أي : إذا أراد أحدهم أنْ يُمضيَ عملاً يأتي بطائر ثم يطلقه ، فإنْ مَرَّ من اليسار إلى اليمين يسمونه « السانح » ويتفاءلون به ، وإنْ مَرّ من اليمين إلى اليسار يسمونه « البارح » ويتشاءمون به ، ثم يتهمون الطائر وينسبون إليه العمل ، ولا ذنب له ولا جريرة .

إذن : كانوا يتفاءلون باليمين ، ويتشاءمون باليسار ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الحسن ، ولا يحب التشاؤم؛ لأن الفَأْل الطيب يُنشّط أجهزة الجسم انبساطاً للحركة ، أما التشاؤم فيدعو للتراجع والإحجام ، ويقضي على الحركة والتفاعل في الكون .

والحق سبحانه هنا يُوضّح : لا تقوّلوا الطائر ولا تتهموه ، بل طائرك أي : عملك في عنقك يلازمك ولا ينفكّ عنك أبداً ، ولا يُسأل عنه غيره ، كما أنه لا يُسأل عن عمل الآخرين ، كما قال تعالى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى . . } [الإسراء : 15]

فلا تُلقي بتبعة أفعالك على الحيوان الذي لا ذنب له .

وقوله تعالى : { وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القيامة كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً } [الإسراء : 13]

وهو كتاب أعماله الذي سجَّلتْه عليه الحفظة الكاتبون ، والذي قال الله عنه : { وَيَقُولُونَ ياويلتنا مَالِ هذا الكتاب لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً } [الكهف : 49]

هذا الكتاب سيلقاه يوم القيامة منشوراً . أي : مفتوحاً مُعدَّاً للقراءة .

ثم يقول الحق سبحانه : { اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } .

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)

الحق تبارك وتعالى يُصوّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبد بين يديْ ربه عزَّ وجل ، فيدعوه إلى أن يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حجة على نفسه ، ويُقِر بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

فهذا موقف لا مجالَ فيه للعناد أو المكابرة ، ولا مجالَ فيه للجدال أو الإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل الله عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقها الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : { يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ } [النور : 24]

ويقول سبحانه : { وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ } [فصلت : 21]

وقد جعل الخالق سبحانه للإنسان سيطرةً على جوارحه في الدنيا ، وجعلها خاضعة لإرادته لا تعصيه في خير أو شر ، فبيده يضرب ويعتدي ، وبيده يُنفق ويقيل عثرة المحتاج ، وبرجْله يسعى إلى بيت الله أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

وجوارحه في كل هذا مُسخَّرة طائعة لا تتأبى عليه ، حتى وإن كانت كارهة للفعل؛ لأنها منقادة لمراداتك ، ففِعْلها لك ليس دليلاً على الرضى عنك؛ لأنه قد يكون رضى انقياد .

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية ، فأمره نافذ على جنوده ، حتى وإن كان خطئاً ، فإذا ما فقد هذا القائد السيطرة وأصبح الجنود أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء .

كذلك في الدنيا جعل الله للإنسان إرادة على جوارحه ، فلا تتخلف عنه أبداً ، لكنها قد تفعل وهي كارهة وهي لاعنةٌ له ، وهي مُبغِضة له ولِفعْله ، فإذا كان القيامة وانحلَّت من إرادته ، وخرجتْ من سجن سيطرته ، شهدتْ عليه بما كان منه . { كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14]

أي : كفانا أن تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ . . } .

مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (15)

قوله تعالى : { مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ . . } [الإسراء : 15]

لأن الحق سبحانه لا تنفعه طاعة ، ولا تضره معصية ، وهو سبحانه الغنيّ عن عباده ، وبصفات كماله وضع منهج الهداية للإنسان الذي جعله خليفة له في أرضه ، وقبل أنْ يخلقه أعدَّ له مُقوّمات الحياة كلها من أرض وسماء ، وشمس وقمر ، وهواء وجبال ومياه .

فصفات الكمال ثابتة له سبحانه قبل أن يخلق الخَلْق ، إذن : فطاعتهم لن تزيده سبحانه شيئاً ، كما أن معصيتهم لن تضره سبحانه في شيء .

وهنا قد يسأل سائل : فلماذا التكليفات إذن؟

نقول : إن التكليف من الله لعباده من أجلهم وفي صالحهم ، لكي تستمر حركة حياتهم ، وتتساند ولا تتعاند؛ لذلك جعل لنا الخالق سبحانه منهجاً نسير عليه ، وهو منهج واجب التنفيذ لأنه من الله ، من الخالق الذي يعلم من خلق ، ويعلم ما يصلحهم ويُنظم حياتهم ، فلو كان منهج بشر لبشر لكان لك أنْ تتأبّى عليه ، أما منهج الله فلا ينبغي الخروج عليه .

لذلك نسمع في الأمثال الدارجة عند أهل الريف يقولون : الأصبع الذي يقطعه الشرع لا ينزف ، والمعنى أن الشرع هو الذي أمر بذلك ، فلا اعتراض عليه ، ولو كان هذا بأمر البشر لقامت الدنيا ولم تقعُدْ .

ومن كماله سبحانه وغِنَاهُ عن الخَلْق يتحمل عنهم ما يصدر عنهم من أحكام أو تجنٍّ أو تقصير؛ ذلك لأن كل شيء عنده بمقدار ، ولا يُقضى أمر في الأرض حتى يُقضى في السماء ، فإذا كلَّفْتَ واحداً بقضاء مصلحة لك ، فقصّر في قضائها ، أو رفض ، أو سعى فيها ولم يُوفّق نجدك غاضباً عليه حانقاً .

وهنا يتحمّل الخالق سبحانه عن عباده ، ويُعفيهم من هذا الحرج ، ويعلمهم أن الحاجات بميعاد وبقضاء عنده سبحانه ، فلا تلوموا الناس ، فلكل شيء ميلاد ، ولا داعيَ لأنْ نسبق الأحداث ، ولننتظر الفرج وقضاء الحوائج من الله تعالى أولاً .

ومن هنا يُعلّمنا الإسلام قبل أن نَعِد بعمل شيء لا بُدَّ أنْ نسبقه بقولنا : إنْ شاء الله لنحمي أنفسنا ، ونخرج من دائرة الحرج أو الكذب إذا لم نستطع الوفاء ، فأنا إذن في حماية المشيئة الإلهية إنْ وُفِّقْتُ فبها ونِعمت ، وإن عجزت فإن الحق سبحانه لم يشأ ، وأخرج أنا من أوسع الأبواب .

إذن : تشريعات الله تريد أن تحمي الناس من الناس ، تريد أن تجتث أسباب الضِّغن على الآخر ، إذا لم تقض حاجتك على يديه ، وكأن الحق سبحانه يقول لك : تمهل فكل شيء وقته ، ولا تظلم الناس ، فإذا ما قضيتَ حاجتك فاعلم أن الذي كلَّفْته بها ما قضاها لك في الحقيقة ، ولكن صادف سَعْيُه ميلادَ قضاء هذه الحاجة ، فجاءت على يديه ، فالخير في الحقيقة من الله ، والناس أسباب لا غير .

وتتضح لنا هذه القضية أكثر من مجال الطب وعلاج المرضى ، فالطبيب سبب ، والشفاء من الله ، وإذا أراد الله لأحد الأطباء التوفيق والقبول عند الناس جعل مجيئه على ميعاد الشفاء فيلتقيان .

ومن هنا نجد بعض الأطباء الواعين لحقيقة الأمر يعترفون بهذه الحقيقة ، فيقول أحدهم : ليس لنا إلا في (الخضرة) .

والخضرة معناها : الحالة الناجحة التي حان وقت شفائها .

وصدق الشاعر حين قال :

والناسُ يلْحون الطَّبيبَ وإنَّما ... خَطأُ الطَّبِيبِ إصَابَةُ الأَقْدَارِ

فقول الحق تبارك وتعالى : { مَّنِ اهتدى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ . . } [الإسراء : 15] أي : لصالح نفسه .

والاهتداء : يعني الالتزام بمنهج الله ، والتزامك عائد عليك ، وكذلك التزام الناس بمنهج الله عائد عليك أيضاً ، وأنت المنتفع في كل الأحوال بهذا المنهج؛ لذلك حينما ترى شخصاً مستقيماً عليك أن تحمد الله ، وأن تفرحَ باستقامته ، وإياك أن تهزأ به أو تسخر منه؛ لأن استقامته ستعود بالخير عليك في حركة حياتك .

وفي المقابل يقول الحق سبحانه : { وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا . . } [الإسراء : 15] أي : تعود عليه عاقبةُ انصرافه عن منهج الله؛ لأن شرَّ الإنسان في عدم التزامه بمنهج الله يعود عليك ويعود على الناس من حوله ، فيشقى هو بشرّه ، ويشقى به المجتمع .

ومن العجب أن نرى بعض الحمقى إذا رأى مُنحرفاً أو سيء السلوك ينظر إليه نظرة بُغْض وكراهية ، ويدعو الله عليه ، وهو لا يدري أنه بهذا العمل يزيد الطين بلة ، ويُوسِّع الخُرْق على الراقع كما يقولون .

فهذا المنحرف في حاجة لمَنْ يدعو الله له بالهداية ، حتى تستريح أولاً من شرِّه ، ثم لتتمتع بخير هدايته ثانياً . أما الدعاء عليه فسوف يزيد من شرِّه ، ويزيد من شقاء المجتمع به .

ومن هذا المنطلق علَّمنا الإسلام أن مَنْ كانت لديه قضية علمية تعود بالخير ، فعليه أنْ يُعديها إلى الناس؛ لأنك حينما تُعدّي الخير إلى الناس ستنتفع بأثره فيهم ، فكما انتفعوا هم بآثار خِلاَلك الحميدة ، فيمكنك أنت أيضاً الانتفاع بآثار خلالهم الحميدة إن نقلتها إليهم .

لذلك حرّم الإسلام كَتْم العلم لما يُسبِّبه من أضرار على الشخص نفسه وعلى المجتمع .

يقول صلى الله عليه وسلم : « من كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » .

وكذلك من الكمال الذي يدعونا إليه المنهج الإلهي أن يُتقِن كل صاحب مهنة مهنته ، وكل صاحب صَنْعة صَنْعته ، فالإنسان في حركة حياته يُتقِن عملاً واحداً ، لكن حاجاته في الحياة كثيرة ومتعددة .

فالخياط مثلاً الذي يخيط لنا الثياب لا يتقن غير هذه المهنة ، وهو يحتاج في حياته إلى مِهَن وصناعات كثيرة ، يحتاج إلى : الطبيب والمعلم والمهندس والحداد والنجار والفلاح . . الخ .

فلو أتقن عمله وأخلص فيه لَسخّر الله له مَنْ يتقن له حاجته ، ولو رَغْماً عنه ، أو عن غير قصد

، أو حتى بالمصادفة .

إذن : من كمالك أن يكون الناس في كمال ، فإنْ أتقنتَ عملك فأنت المستفيد حتى إنْ كان الناس من حولك أشراراً لا يتقنون شيئاً فسوف يُيسِّر الله لهم سبيل إتقان حاجتك ، من حيث لا يريدون ولا يشعرون .

وقوله تعالى : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى . . } [الإسراء : 15]

أي : لا يحمل أحدٌ ذنبَ أحدٍ ، ولا يُؤاخَذ أحدٌ بجريرة غيره ، وكلمة : { تَزِرُ وَازِرَةٌ . . } [الإسراء : 15]

من الوزر : وهو الحِمْل الثقيل ، ومنها كلمة الوزير : أي الذي يحمل الأعباء الثقيلة عن الرئيس ، أو الملك أو الأمير .

فعدْلُ الله يقتضي أنْ يُحاسب الإنسان بعمله ، وأنْ يُسأل عن نفسه ، فلا يرمي أحد ذنبه على أحد ، كما قال تعالى : { لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً . . } [لقمان : 33]

وحول هذه القضية تحدَّث كثير من المستشرقين الذين يبحثون في القرآن عن مأخذ ، فوقفوا عند هذه الآية : { وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى . . } [الإسراء : 15]

وقالوا : كيف نُوفِّق بينها وبين قوله : { وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ . . } [العنكبوت : 13]

وقوله تعالى : { لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القيامة وَمِنْ أَوْزَارِ الذين يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَآءَ مَا يَزِرُونَ } [النحل : 25]

ونقول : التوفيق بين الآية الأولى والآيتين الأخيرتين هيّن لو فهموا الفرق بين الوِزْر في الآية الأولى ، والوِزْر في الآيتين الأخيرتين .

ففي الأولى وزر ذاتيٌّ خاص بالإنسان نفسه ، حيث ضَلَّ هو في نفسه ، فيجب أنْ يتحمّل وزْر ضلاله . أما في الآية الثانية فقد أضلَّ غيره ، فتحمَّل وِزْره الخاص به ، وتحمَّل وِزْر مَنْ أضلَّهم .

ويُوضِّح لنا هذه القضية الحديث النبوي الشريف : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

وقوله تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15]

العذاب : عقوبة على مخالفة ، لكن قبل أنْ تُعاقبني عليها لا بُدَّ أن تُعلِّمني أن هذه مخالفة أو جريمة (وهي العمل الذي يكسر سلامة المجتمع) ، فلا جريمة إلا بنصٍّ ينصُّ عليها ويُقنّنها ، ويُحدِّد العقاب عليها ، ثم بعد ذلك يجب الإعلام بها في الجرائد الرسمية لكي يطلع عليها الناس ،

وبذلك تُقام عليهم الحجة إنْ خالفوا أو تعرَّضوا لهذه العقوبة .
لذلك حتى في القانون الوضعي نقول : لا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .
فإذا ما اتضحت هذه الأركان في أذهان الناس كان للعقوبة معنى ، وقامت الحجة على المخالفين ، أما أنْ نعاقب شخصاً على جريمة هو لا يعلم بها ، فله أن يعترضَ عليك من منطلق هذه الآية .
أما أنْ يُجرَّم هذا العمل ، ويُعلَن عنه في الصحف الرسمية ، فلا حجة لمَنْ جهله بعد ذلك؛ لأن الجهل به بعد الإعلام عنه لا يُعفِي من العقوبة .

فكأن قول الله تعالى : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15] يجمع هذه الأركان السابقة : الجريمة ، والعقوبة ، والنص ، والإعلام ، حيث أرسل الله الرسول يُعلِّم الناس منهج الحق سبحانه ، ويُحدّد لهم ما جرمه الشرع والعقوبة عليه .
لذلك يقول تعالى في آية أخرى : { وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ } [فاطر : 24]
ويقول : { يَا أَهْلَ الكتاب قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ على فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ . . } [المائدة : 19]
إذن : قد انقطعت حجتكم برسالة محمد البشير النذير صلى الله عليه وسلم .
وقد وقف العلماء أمام هذه القضية فقالوا : إن كانت الحجة قد قامت على مَن آمن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فما بال الكافر الذي لم يؤمن ولم يعلم منهج الله؟ وكأنهم يلتمسون له العذر بكفره .
نقول : لقد عرف الإنسان ربه عز وجل أولاً بعقله ، وبما ركّبه فيه خالقه سبحانه من ميزان إيماني هو الفطرة ، هذه الفطرة هي المسئولة عن الإيمان بقوة قاهرة وراء الوجود ، وإنْ لم يأتِ رسول ، والأمثلة كثيرة لتوضيح هذه القضية :
هَبْ أنك قد انقطعتْ بك السُّبل في صحراء واسعة شاسعة لا تجد فيها أثراً لحياة ، وغلبك النومُ فنمْتَ ، وعندما استيقظتَ فوجئت بمائدة منصوبة لك عليها أطايب الطعام والشراب .
بالله أَلاَ تفكِّر في أمرها قبل أن تمتدّ يدُك إليها؟ ألاَ تلفت انتباهك وتثير تساؤلاتك عَمَّنْ أتى بها إليك؟
وهكذا الإنسان بعقله وفطرته لا بُدَّ أنْ يهتديَ إلى أن للكون خالقاً مُبْدِعاً ، ولا يمكن أن يكون هذا النظام العجيب المتقن وليدَ المصادفة ، وهل عرف آدم ربه بغير هذه الأدوات التي خلقها الله فينا؟
لقد جئنا إلى الحياة فوجدنا عالماً مستوفياً للمقوِّمات والإمكانيات ، وجدنا أمام أعيننا آياتٍ كثيرة

دالّة على الخالق سبحانه ، كل منها خيط لو تتبعته لأوصلك . خذ مثلاً الشمس التي تنير الكون على بُعْدها تطلع في الصباح وتغرب في المساء ، ما تخلَّفتْ يوماً ، ولا تأخرت لحظة عن موعدها ، أَلاَ تسترعي هذه الآية الكونية انتباهك؟

وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً ب « أديسون » الذي اكتشف الكهرباء ، وكم أخذ من الاهتمام والدراسة في حين أن الإضاءة بالكهرباء تحتاج إلى أدوات وأجهزة وأموال ، وهي عُرْضة للأعطال ومصدر للأخطار ، فما بالنا نغفل عن آية الإضاءة الربانية التي لا تحتاج إلى مجهود أو أموال أو صيانة أو خلافه؟

والعربي القُحُّ الذي ما عرف غير الصحراء حينما رأى بَعْر البعير وآثار الأقدام استدلَّ بالأثر على صاحبه ، فقال في بساطة العرب : البَعْرة تدلّ على البعير ، والقدم تدلّ على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

إذن : بالفطرة التكوينية التي جعلها الله في الإنسان يمكن له أن يهتدي إلى أن للكون خالقاً ، وإنْ لم يعرف مَنْ هو ، مجرد أن يعرف القوة الخفية وراء هذا الكون .

وحينما يأتي رسول من عند الله يساعده في الوصول إلى ما يبحث عنه ، ويدلّه على ربه وخالقه ، وأن هذه القوة الخفية التي حيَّرتْك هي (الله) خالقك وخالق الكون كله بما فيه ومَن فيه .

وهو سبحانه واحد لا شريك له ، شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو ولم يعارضه أحد ولم يَدَّعِ أحد أنه إله مع الله ، وبذلك سَلِمَتْ له سبحانه هذه الدعوى؛ لأن صاحب الدعوة حين يدَّعيها تسلم له إذا لم يوجد معارض لها .

وهذه الفطرة الإيمانية في الإنسان هي التي عنَاهَا الحق سبحانه في قوله تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى . . } [الأعراف : 172]

وهذا هو العَهْد الإلهي الذي أخذه الله على خَلْقه وهم في مرحلة الذَّرّ ، حيث كانوا جميعاً في آدم عليه السلام فالأنْسَال كلها تعود إليه ، وفي كل إنسان إلى يوم القيامة ذرة من آدم ، هذه الذرة هي التي شهدتْ هذا العهد ، وأقرَّتْ أنه لا إله إلا الله ، ثم ذابتْ هذه الشهادة في فطرة كل إنسان؛ لذلك نسميها الفطرة الإيمانية .

ونقول للكافر الذي أهمل فطرته الإيمانية وغفل عنها ، وهي تدعوه إلى معرفة الله : كيف تشعر بالجوع فتطلب الطعام؟ وكيف تشعر بالعطش فتطلب الماء؟ أرأيت الجوع أو لمسْتَه أو شَمَمْته؟ إنها الفطرة والغريزة التي جعلها الله فيك ، فلماذا استخدمت هذه ، وأغفلت هذه؟

والعجيب أن ينصرف الإنسان العاقل عن ربه وخالقه في حين أن الكون كله من حوله بكل ذراته

يُسبّح بحمد ربّه ، فذراتُ الكون وذراتُ التكوين في المؤمن وفي الكافر تُسبّح بحمد ربها ، كما قال تعالى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . } [الإسراء : 44] فكيف بك يا سيد الكون تغفل عن الله والذرات فيك مُسبّحة ، فإن كانت ذرات المؤمن حدث بينه وبين ذرات تكوينه انسجام واتفاق ، وتجاوب تسبيحه مع تسبيح ذراته وأعضائه وتوافقت إرادته الإيمانية مع إيمان ذراته ، فترى المؤمن مُنْسجماً مع نفسه مع تكوينه المادي .

ويظهر هذا الانسجام بين إرادة الإنسان وبين ذرّاته وأعضائه في ظاهرة النوم ، فالمؤمن ذرّاته وأعضائه راضية عنه تُحبه وتُحب البقاء معه لا تفارقه؛ لأن إرادته في طاعة الله ، فترى المؤمن لا ينام كثيراً مجرد أن تغفل عينه ساعةً من ليل أو نهار تكفيه ذلك؛ لأن أعضاءه في انسجام مع إرادته ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : { كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ . . } [الذاريات : 17]

وكان النبي صلى الله عليه وسلم تنام عينه ولا ينام قلبه ، لأنه في انسجام تام مع إرادته صلى الله عليه وسلم .

وما أشبه الإنسان في هذه القضية بسيد شرس سيء الخُلق ، لديه عبيد كثيرون ، يعانون من سُوء معاملته ، فيلتمسون الفرصة للابتعاد عنه والخلاص من معاملته السيئة .

على خلاف الكافر ، فذراته مؤمنة وإرادته كافرة ، فلا انسجام ولا توافق بين الإرادة والتكوين المادي له ، لذا ترى طبيعته قلقة ، ليس هناك تصالح بينه وبين ذراته ، لأنها تبغضه وتلعنه ، وتود مفارقته .

ولولا أن الخالق سبحانه جعلها مُنْقادةً له لما طاوعتْه ، وإنها لتنتظر يوم القيامة يوم أنْ تفكّ من إرادته ، وتخرج من سجنه ، لتنطق بلسان مُبين ، وتشهد عليه بما اقترف في الدنيا من كفر وجحود؛ لذلك ترى الكافر ينام كثيراً ، وكأن أعضاءه تريد أن ترتاح من شره .

ولا بُدّ أن نعلم أن ذرات الكون وذرات الإنسان في تسبيحها للخالق سبحانه ، أنه تسبيح فوق مدارك البشر؛ لذلك قال تعالى : { ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . } [الإسراء : 44]

فلا يفقهه ولا يفهمه إلا مَنْ منحه الله القدرة على هذا ، كما منح هذه الميزة لداود عليه السلام فقال : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبّحْنَ والطير وَكُنَّا فَاعِلِينَ } [الأنبياء : 79]

وهنا قد يقول قائل : ما الميزة هنا ، والجبال والطير تُسبّح الله بدون داود؟

والميزة هنا لداود عليه السلام أن الله تعالى أسمعه تسبيح الجبال وتسبيح الطير ، وجعلها تتجاوب معه في تسبيحه وكأنه (كورس) أو نشيد جماعي تتوافق فيه الأصوات ، وتتناغم بتسبيح الله تعالى ، ألم يقل الحق سبحانه في آية أخرى : { ياجبال أَوّبِي مَعَهُ والطير . . } [سبأ : 10]

أي : رَجّعي معه وردّدي التسبيح .

ومن ذلك أيضاً ما وهبه الله تعالى لنبيه سليمان عليه السلام من معرفة منطق الطير أي لغته ، فكان يسمع النملة وهي تخاطب بني جنسها ويفهم ما تريد ، وهذا فضل من الله يهبه لِمَنْ يشاء من عباده ، لذلك لما فهم سليمان عليه السلام لغة النملة ، وفهم ما تريده من تحذير غيرها تبسم ضاحكاً : { وَقَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ . . } [النمل : 19]

إذن : لكل مخلوق من مخلوقات الله لغة ومنطق ، لا يعلمها ولا يفهمها إلا مَنْ يُيسِّر الله له هذا العلم وهذا الفهم .

وحينما نقرأ عن هذه القضية نجد بعض كُتَّاب السيرة مثلاً يقولون : سبَّح الحصى في يد النبي صلى الله عليه وسلم نقول لهم : تعبيركم هذا غير دقيق ، لأن الحصى يُسبِّح في يده صلى الله عليه وسلم كما يُسبِّح في يد أبي جهل ، لكن الميزة أنه صلى الله عليه وسلم سمع تسبيح الحصى في يده ، وهذه من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

والحق سبحانه يريد أنْ يلفتنا إلى حقيقة من حقائق الكون ، وهي كما أن لك حياة خاصة بك ، فاعلم أن لكل شيء دونك حياة أيضاً ، لكن ليستْ كحياتك أنت ، بدليل قول الحق سبحانه : { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . } [القصص : 88]

فكل ما يُطلق عليه شيء مهما قَلَّ فهو هالك ، والهلاك ضد الحياة؛ لأن الله تعالى قال : { لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . } [الأنفال : 42] فدلَّ على أن له حياة تُناسبه .

ونعود إلى قوله الحق سبحانه : { وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتى نَبْعَثَ رَسُولاً } [الإسراء : 15]

فإن اهتدى الإنسان بفطرته إلى وجود الخالق سبحانه ، فمن الذي يُعْلِمه بمرادات الخالق سبحانه منه ، إذن : لا بُدَّ من رسول يُبلِّغ عن الله ، ويُنبِّه الفطرة الغافلة عن وجوده تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً } .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16)

الحق تبارك وتعالى في هذه الآية يعطينا مثالاً لعاقبة الخروج عن منهج الله تعالى؛ لأنه سبحانه حينما يُرسل رسولاً ليُبلِّغ منهجه إلى خَلْقه ، فلا عُذْرَ للخارجين عنه؛ لأنه منهج من الخالق الرازق المنعم ، الذي يستحق منا الطاعة والانقياد . وكيف يتقلب الإنسان في نعمة ربه ثم يعصاه؟ إنه رَدٌّ غير لائق للجميل ، وإنكار للمعروف الذي يسوقه إليك ليل نهار ، بل في كل نَفَسٍ من أنفاسك .

ولو كان هذا المنهج من عند البشر لكان هناك عُذْر لِمَنْ خرج عنه ، ولذلك يقولون : « من

يأكل لقمتي يسمع كلمتي » .

كما أن هذا المنعم سبحانه لم يفاجئك بالتكليف ، بل كلفك في وقَت مناسب ، في وقت استوت فيه ملكاتُكَ وقدراتُكَ ، وأصبحتَ بالغاً صالحاً لحمل هذا التكليف ، فتركك خمسة عشر عاماً تربع في نعمه وتتمتع بخيره ، فكان الأَوْلَى بك أن تستمع إلى منهج ربك ، وتُنفِّذه أمراً ونهياً؛ لأنه سبحانه أوجدك من دم وأمدَّك من عُدم .

والمتأمل في قضية التكليف يرى أن الحق سبحانه أمر بعضنا أن يُكلِّف بعضاً ، كما قال تعالى : { وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا . . } [طه : 132]

وقد شرح لنا النبي صلى الله عليه وسلم هذه القضية فقال : « مُرُوا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر » .

وهذا التكليف وإنْ كان في ظاهره من الأهل لأولادهم ، إلا أنه في حقيقته من الله تعالى فهو الآمر للجميع ، ولكن أراد الحق سبحانه أن يكون التكليف الأول في هذه السن من القريب المباشر المحسّ أمام الطفل ، فأبوه هو صاحب النعمة المحسّة حيث يوفر لولده الطعام والشراب ، وكل متطلبات حياته ، فإذا ما كلفه أبوه كان أَدْعَى إلى الانصياع والطاعة؛ لأن الولد في هذه السن المبكرة لا تتسع مداركه لمعرفة المنعم الحقيقي ، وهو الله تعالى .

لذلك أمر الأب أن يعوّد ولده على تحمُّل التكليف وأن يعاقبه إنْ قصَّر؛ لأن الآمر بالفعل هو الذي يُعاقب على الإهمال فيه . حتى إذا بلغ الولد سِنَّ التكليف الحقيقي من المنعم الأعلى سبحانه كان عند الولد أُنْس بالتكليف وتعودٌ عليه ، وبذَلك يأتي التكليف الإلهي خفيفاً على النفس مألوفاً عندها .

أما إن أخذتَ نِعم الله وانصرفتَ عن منهجه فطغيْتَ بالنعمة وبغيتَ فانتظر الانتقام ، انتظر أَخْذه سبحانه وسنته التي لا تتخلف ولا تُردُّ عن القوم الظالمين في الدنيا قبل الآخرة .

واعلم أن هذا الانتقام ضروري لحفظ سلامة الحياة ، فالناس إذا رأوا الظالمين والعاصين والمتكبرين يرتعُونَ في نعَم الله في أمن وسلامة ، فسوف يُغريهم هذا بأن يكونوا مثلهم ، وأنْ يتخذوهم قدوة ومثلاً ، فيهم الفساد والظلم وينهار المجتمع من أساسه .

أما إنْ رَأَوْا انتقام الحق سبحانه من هؤلاء ، وشاهدوهم أذلاّء منكسِرينَ ، فسوف يأخذون منهم عبرة وعظة ، والعاقل مَنِ اعتبر بغيره ، واستفاد من تجارب الآخرين .

فالانتقام من الله تعالى لحكمة أرادها سبحانه وتعالى ، وكم رأينا من أشخاص وبلاد حاقَ بهم سوء أعمالهم حتى أصبحوا عِبرةً ومُثْلة ومَنْ لم يعتبر كان عبرة حتى لمَنْ لم يؤمن ، وبذلك تعتدل حركة الحياة ، حيث يشاهد الجميع ما نزل بالمفسدين من خراب ودمار ، وإذا استقرأت البلاد في نواحي العالم المختلفة لتيسَّر لك الوقوف على هذه السُّنة الإلهية في بلاد بعينها ، ولاستطعْتَ أن

تعزو ما حدث لها إلى أسباب واضحة من الخروج عن منهج الحق سبحانه .

وصدق الله حين قال : { وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ } [النحل : 112]

وإياك أن تظن أن الحق سبحانه يمكن أن يهمل الفسقة والخارجين عن منهجه ، فلابد أن يأتي اليوم الذي يأخذهم فيه أخْذَ عزيز مُقْتدر ، وإلاَّ لكانت أُسْوة سيئة تدعو إلى الإفساد في حركة الحياة .

قال تعالى : { وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القول فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً } [الإسراء : 16]

الآفة أن الذين يستقبلون نصَّ القرآن يفهمون خطأ أن { فَفَسَقُواْ } مترتبة على الأمر الذي قبلها ، فيكون المعنى أن الله تعالى هو الذي أمرهم بالفسق ، وهذا فهم غريب لمعنى الآية الكريمة ، وهذا الأمر صادر من الحق سبحانه إلى المؤمنين ، فتعالوا نَرَ أوامر الله في القرآن : { وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين . . } [البينة : 5]

{ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة . . } [النمل : 91]

{ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المسلمين } [يونس : 72]

فأمْر الله تعالى لا يكون إلا بطاعة وخير ، ولا يأمر سبحانه بفسق أو فحشاء ، كما ذكر القرآن الكريم ، وعلى هذا يكون المراد من الآية : أمرنا مترفيها بطاعتنا وبمنهجنا ، ولكنهم خالفوا وعَصَوْا وفسقوا؛ لذلك حَقَّ عليهم العذاب .

والأمر : طَلَب من الأعلى ، وهو الله تعالى إلى الأدنى ، وهم الخَلْق طلب منهم الطاعة والعبادة ، فاستغلُّوا فرصة الاختيار ففسقوا وخالفوا أمر الله .

قوله : { وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً . . } [الإسراء : 16]

من الخطأ أن نفهم المعنى على أن الله أراد أولاً هلاكهم ففسقوا؛ لأن الفهم المستقيم للآية أنهم فسقوا فأراد الله إهلاكهم . و { قَرْيَةً } أي أهل القرية .

وقوله : { فَحَقَّ عَلَيْهَا القول . . } [الإسراء : 16]

أي : وجب لها العذاب ، كما قال تعالى : { كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الذين فسقوا . . } [يونس : 33]

وقد أوجب الله لها العذاب لتسلَم حركة الحياة ، وليحمي المؤمنين من أذى الذين لا يؤمنون بالآخرة .

وقوله تعالى : { فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً . . } [الإسراء : 16]

أي : خربناها ، وجعلناها أثراً بعد عَيْن ، وليستْ هذه هي الأولى ، بل إذا استقرأتَ التاريخ خاصة تاريخ الكفرة والمعاندين فسوف تجد قرى كثيرة أهلكها الله ولم يبقى منها إلا آثاراً شاخصة

شاهدة عليهم ، كما قال تعالى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِن بَعْدِ نُوحٍ وكفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17)

فأيْن عاد وثمود وقوم لوط وقوم صالح؟ إذن : فالآية قضية قولية ، لها من الواقع ما يُصدِّقها .

وقوله : { مِن بَعْدِ نُوحٍ . . } [الإسراء : 17]

دَلَّ على أن هذا الأخذ وهذا العذاب لم يحدث فيما قبل نوح؛ لأن الناس كانوا قريبي عَهْد بخَلْق الله لآدم عليه السلام كما أنه كان يلقنهم معرفة الله وما يضمن لهم سلامة الحياة ، أما بعد نوح فقد ظهر الفساد والكفر والجحود ، فنزل بهم العذاب . الذي لم يسبق له مثيل .

قال تعالى : { والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * والليل إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد } [الفجر : 1-14]

ولنا وَقْفة سريعة مع هذه الآيات من سورة الفجر ، فقد خاطب الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ } [الفجر : 6]

و { أَلَمْ تَرَ } بمعنى : ألم تعلم؛ لأن النبي لم ير ما فعله الله بعاد ، فلماذا عدل السياق القرآني عن : تعلم إلى تَرَ؟

قالوا : لأن إعلام الله لرسوله أصدق من عينه ورؤيته ، ومثلها قوله تعالى : { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل } [الفيل : 1]

حيث وُلِد رسول الله في عام الفيل ، ولم يكن رأى شيئاً .

وفي آيات سورة (الفجر) ما يدلُّنا على أن حضارة عاد التي لا نكاد نعرف عنها شيئاً كانت أعظمَ من حضارة الفراعنة التي لفتتْ أنظار العالم كله؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عن عاد : { التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد } [الفجر : 8]

أي : لا مثيلَ لها في كل حضارات العالم ، في حين قال عن حضارة الفراعنة : { وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد } [الفجر : 10] مجرد هذا الوصف فقط . وقوله تعالى : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ القرون . . } [الإسراء : 17]

كَمْ : تدل على كثرة العدد .

والقرون : جمع قرن ، وهو في الاصطلاح الزمني مائة عام ، ويُطلَق على القوم المقترنين معاً في الحياة ، ولو على مبدأ من المبادئ ، وتوارثه الناس فيما بينهم .

وقد يُطلَق القرن على أكثر من مائة عام كما نقول : قرن نوح ، قرن هود ، قرن فرعون . أي :

الفترة التي عاشها .

وقوله : { وكفى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً . . } [الإسراء : 17]

أي : أنه سبحانه غنيّ عن إخبار أحد بذنوب عباده ، فهو أعلم بها ، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء : { يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعين وَمَا تُخْفِي الصدور } [غافر : 19] فلا يحتاج لمَنْ يخبره؛ لأنه خبير وبصير ، هكذا بصيغة المبالغة .

وهنا قد يقول قائل : طالما أن الله تعالى يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية ، فلماذا يسأل الناس يوم القيامة عن أعمالهم؟

نقول : لأن السؤال يَرِدُ لإحدى فائدتين :

الأولى : كأنْ يسألَ الطالب أستاذه عن شيء لا يعلمه ، فالهدف أنْ يعلم ما جهل .

والأخرى : كأن يسأل الأستاذ تلميذه في الامتحان ، لا ليعلم منه ، ولكن ليقرره بما علم .

وهكذا الحق سبحانه ولله المثل الأعلى يسأل عبده يوم القيامة عن أعماله ليقرره بها ، وليجعله شاهداً على نفسه ، كما قال : { اقرأ كتابك كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً } [الإسراء : 14]

وقوله تعالى : { وكفى بِرَبِّكَ . . } [الإسراء : 17]

كما تقول : كفى بفلان كذا ، أي : أنك ترتضيه وتثقُ به ، فالمعنى : يكفيك ربك فلا تحتاج لغيره ، وقد سبق أنْ أوضحنا أن الله تعالى في يده كل السلطات حينما يقضي : السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية ، والسلطة التنفيذية ، وهو سبحانه غنيّ عن الشهود والبينة والدليل .

إذن : كفى به سبحانه حاكماً وقاضياً وشاهداً . ولأن الحق سبحانه خبير بصير بذنوب عباده ، فعقابه عَدْل لا ظلمَ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه : { مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً } .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18)

الحق تبارك وتعالى قبل أن يخلق الإنسان الذي جعله خليفة له في أرضه ، خلق له الكون كُلّه بما فيه ، وخلق له جميع مُقوّمات حياته ، ووالى عليه نِعَمه إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدم ، وجعل من مُقوّمات الحياة ما ينفعل له وإنْ لم يُطلب منه ، كالشمس والقمر والهواء والمطر . . الخ فهذه من مُقوّمات حياتك التي تُعطيك دون أنْ تتفاعلَ معها .

ومن مُقوّمات الحياة مَا لا ينفعل لك ، إلا إذا تفاعلتَ معه ، كالأرض مثلاً لا تعطيك إلا إذا

حرثتها ، وبذرت فيها البذور فتجدها قد انفعلتْ لك ، وأعطتْك الإنتاج الوفير .
والمتأمل في حضارات البشر وارتقاءاتهم في الدنيا يجدها نتيجة لتفاعل الناس مع مُقوّمات الحياة بجوارحهم وطاقاتهم ، فتتفاعل معهم مُقوِّمات الحياة ، ويحدث التقدم والارتقاء .
وقد يرتقي الإنسان ارتقاءً آخر ، بأن يستفيد من النوع الأول من مُقوّمات الحياة ، والذي يعطيه دون أنْ يتفاعل معه ، استفادة جديدة ، ومن ذلك ما توصّل إليه العلماء من استخدام الطاقة الشمسية استخدامات جديدة لم تكن موجودة من قبل .
إذن : فهذه نواميس في الكون ، الذي يُحسِن استعمالها تُعطيه النتيجة المرجوة ، وبذلك يُثري الإنسان حياته ويرتقي بها ، وهذا ما أَسْمَيناه سابقاً عطاء الربوبية الذي يستوي فيه المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي .
لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : { مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة . . } [الإسراء : 18]
أي : عطاء الدنيا ومتعها ورُقيها وتقدّمها .
{ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ . . } [الإسراء : 18]
أجبْنَاهُ لما يريد من متاع الدنيا .
ولا بُدَّ لنا أنْ نتنبه إلى أن عطاء الربوبية الذي جعله الله للمؤمن والكافر ، قد يغفل عنه المؤمن ويترك مُقوّمات الحياة وأسبابها يستفيد منها الكافر ويتفاعل معها ويرتقي بها ، ويتقدم على المؤمن ، ويمتلك قُوته ورغيف عيشه ، بل وجميع متطلبات حياتهم ، ثم بالتالي تكون لهم الكلمة العليا والغلبة والقهر ، وقد يفتنونك عن دينك بما في أيديهم من أسباب الحياة .
وهذا حال لا يليق بالمؤمن ، ومذلة لا يقبلها الخالق سبحانه لعباده ، فلا يكفي أن نأخذ عطاء الألوهية من أمر ونهي وتكليف وعبادة ، ونغفل أسباب الحياة ومُقوّماتها المادية التي لا قِوامَ للحياة إلا بها .
في حين أن المؤمن أَوْلَى بمقوّمات الحياة التي جعلها الخالق في الكون من الكافر الذي لا يؤمن بإله .
إذن : فمن الدين ألاَّ تمكّن أعداء الله من السيطرة على مُقوِّمات حياتك ، وألاَّ تجعلَهم يتفوقون عليك .
وقوله : { مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ . . } [الإسراء : 18]
أي : أن تفاعل الأشياء معك ليس مُطْلقاً ، بل للمشيئة تدخُّلٌ في هذه المسألة ، فقد تفعل ، ولكن لا تأخذ لحكمة ومراد أعلى ، فليس الجميع أمام حكمة الله سواء ، وفي هذا دليل على طلاقة القدرة الإلهية .
ومعنى { مَا نَشَآءُ . . } للمعجَّل و { لِمَن نُّرِيدُ } للمعجَّل له .

وما دام هذا يريد العاجلة ، ويتطلع إلى رُقيِّ الحياة الدنيا وزينتها ، إذن : فالآخرة ليستْ في باله ، وليست في حُسْبانه؛ لذلك لم يعمل لها ، فإذا ما جاء هذا اليوم وجد رصيده صِفْراً لا نصيب له فيها؛ لأن الإنسان يأخذ أجره على ما قدّم ، وهذا قدَّم للدنيا وأخذ فيها جزاءه من الشهرة والرقيّ والتقدّم والتكريم .

قال تعالى : { والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب } [النور : 39]

والسراب ظاهرة طبيعية يراها مَنْ يسير في الصحراء وقت الظهيرة ، فيرى أمامه شيئاً يشبه الماء ، حتى إذا وصل إليه لم يجدْهُ شيئاً ، كذلك إنْ عمل الكافرُ خيراً في الدنيا فإذا أتى الآخرة لم يجدْ له شيئاً من عمله؛ لأنه أخذ جزاءه في الدنيا .

ثم تأتي المفاجأة : { وَوَجَدَ الله عِندَهُ } [النور : 39]

وفي آية أخرى يصفه القرآن بقوله : { مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ذلك هُوَ الضلال البعيد } [إبراهيم : 18]

فمرة يُشبِّه عمل الكافر بالماء الذي يبدو في السراب ، ومرة يُشبِّهه بالرماد؛ لأن الماء إذا اختلط بالرماد صار طيناً ، وهو مادة الخِصْب والنماء ، وهو مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة .

ووصفه بقوله تعالى : { كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ على شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين } [البقرة : 264]

والحق تبارك وتعالى في هذه الآية يُجسِّم لنا خَيْبة أمل الكافر في الآخرة في صورة مُحسَّة ظاهرة ، فمثَلُ عمل الكافر كحجر أملس أصابه المطر ، فماذا تنتظر منه؟ وماذا وراءه من الخير؟

ثم يقول الحق سبحانه : { ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً } [الإسراء : 18]

أي : أعددناها له ، وخلقناها من أجله يُقاسي حرارتها { مَذْمُوماً } أي : يذمُّه الناس ، والإنسان لا يُذَمّ إلا إذا ارتكب شيئاً ما كان يصحّ له أنْ يرتكبه .

و { مَّدْحُوراً } [الإسراء : 18] وبعد أنْ أعطانا الحق سبحانه صورة لمن أراد العاجلة وغفل عن الآخرة ، وما انتهى إليه من العذاب ، يعطينا صورة مقابلة ، صورة لمن كان أعقل وأكيس ، ففضَّل الآخرة .

يقول الحق سبحانه : { وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً } .

وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19)

المتأمل في أسلوب القرآن الكريم يجده عادة يُعطي الصورة ومقابلها؛ لأن الشيء يزداد وضوحاً بمقابله ، والضِّد يظهر حُسْنه الضّد ، ونرى هذه المقابلات في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى

كما في : { إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفجار لَفِي جَحِيمٍ } [الانفطار : 13-14]

وهنا يقول تعالى : { وَمَنْ أَرَادَ الآخرة . . } [الإسراء : 19] في مقابل : { مَّن كَانَ يُرِيدُ العاجلة . . } [الإسراء : 18]

قوله تعالى : { وَمَنْ أَرَادَ الآخرة وسعى لَهَا سَعْيَهَا . . } [الإسراء : 19]

أي : أراد ثوابها وعمل لها .

{ وَهُوَ مُؤْمِنٌ . . } [الإسراء : 19]

لأن الإيمان شَرْط في قبول العمل ، وكُلُّ سعي للإنسان في حركة الحياة لا بُدَّ فيه من الإيمان ومراعاة الله تعالى لكي يُقبَل العمل ، ويأخذ صاحبه الأجر يوم القيامة ، فالعامل يأخذ أجره ممَّنْ عمل له .

فالكفار الذين خدموا البشرية باختراعاتهم واكتشافاتهم ، حينما قدّموا هذا الإنجازات لم يكُنْ في بالهم أبداً العمل لله ، بل للبشرية وتقدُّمها؛ لذلك أخذوا حقهم من البشرية تكريماً وشهرة ، فأقاموا لهم التماثيل ، وألّفوا فيهم الكتب . . الخ .

إذن : انتهت المسألة : عملوا وأخذوا الأجر ممن عملوا لهم .

وكذلك الذي يقوم ببناء مسجد مثلاً ، وهذا عمل عظيم يمكن أن يُدخل صاحبه الجنة إذا توافر فيه الإيمان والإخلاص لله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة » .

ولكن سرعان ما نقرأ على باب المسجد لافتة عريضة تقول : أنشأه فلان ، وافتتحه فلان . . الخ مع أنه قد يكون من أموال الزكاة!! وهكذا يُفسد الإنسان على نفسه العمل ، ويُقدم بنفسه ما يُحبطه ، إذن : فقد فعل ليقال وقد قيل . وانتهت القضية .

وقوله تعالى : { فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً . . } [الإسراء : 19]

وهذا جزاء أهل الآخرة الذين يعملون لها ، ومعلوم أن الشكر يكون لله استدراراً لمزيد نِعَمه ، كما قال تعالى : { لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ . . } [إبراهيم : 7]

فما بالك إنْ كان الشاكر هو الله تعالى ، يشكر عبده على طاعته؟

وهذا يدل على أن العمل الإيماني يُصادف شُكْراً حتى من المخالف له ، فاللص مثلاً إنْ كان لديه شيء نفيس يخاف عليه ، فهل يضعه أمانة عند لصٍّ مثله ، أم عند الأمين الذي يحفظه؟

فاللصّ لا يحترم اللص ، ولا يثق فيه ، في حين يحترم الأمين مع أنه مخالف له ، وكذلك الكذاب يحترم الصادق ، والخائن يحترم الأمين .

ومن هنا كان كفار مكة رغم عدائهم للنبي صلى الله عليه وسلم وكفرهم بما جاء به إلا أنهم كانوا يأتمنونه على الغالي والنفيس عندهم؛ لأنهم واثقون من أمانته ، ويلقبونه « بالأمين » ، رغم ما بينهما من خلاف عقديّ جوهري ، فهم فعلاً يكذبونه ، أما عند حفْظ الأمانات فلن يغشُّوا

أنفسهم ، لأن الأحفظ لأماناتهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بشاهد الزور الذي تستعين بشهادته ليُخرجك من ورطة ، أو قضية ، فرغم أنه قضى لك حاجتك وأخرجك من ورطتك ، إلا أنه قد سقط من نظرك ، ولم يعُدْ أهلاً لثقتك فيما بعد .

لذلك قالوا : مَنِ استعان بك في نقيصة فقد سقطْتَ من نظره ، وإنْ أعنْتَه على أمره كشاهد الزور ترتفع الرأس على الخصم بشهادته وتدوس القدم على كرامته .

ثم يقول الحق سبحانه عن كلا الفريقين : { كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ . . . } .

كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20)

{ كُلاًّ } أي : كلاَ الفريقين السابقين : مَن أراد العاجلة ، ومَن أراد الآخرة : { نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ . . } [الإسراء : 20]

أي : أن الله تعالى يمدُّ الجميع بمُقوّمات الحياة ، فمنهم مَنْ يستخدم هذه المقومات في الطاعة ، ومنهم مَنْ يستخدمها في المعصية ، كما لو أعطيتَ لرجلين مالاً ، فالأول تصدّق بماله ، والآخر شرب بماله خمراً .

إذن : فعطاء الربوبية مدَدٌ ينال المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، أما عطاء الألوهية المتمثل في منهج الله : افعل ولا تفعل ، فهو عطاء خاصٌّ للمؤمنين دون غيرهم .

وقوله تعالى : { وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً . . } [الإسراء : 20]

أي : ممنوعاً عن أحد؛ لأن الجميع خَلْقه تعالى ، المؤمن والكافر ، وهو الذي استدعاهم إلى الحياة ، وهو سبحانه المتكفّل لهم بمُقوّمات حياتهم ، كما تستدعي ضيفاً إلى بيتك فعليك أنْ تقومَ له بواجب الضيافة .

ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه اختار التعبير بقوله : { مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ . . } [الإسراء : 20] لأن العطاء المراد هنا عطاء ربوبية ، وهو سبحانه ربّ كلّ شيء . أي : مُربّيه ومتكفّل به ، وشرف كبير أن يُنسبَ العطاء إلى الرب تبارك وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه : { انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ . . . } .

انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (21)

الحق تبارك وتعالى أعطانا قضايا إيمانية نظرية ، ويريد مِنّا أنْ ننظر في الطبيعة والكون ، وسوف نجد فيه صِدْق ما قال .

يقول تعالى : { انظر كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ . . } [الإسراء : 21]

والمتأمل يجد أن الله تعالى جعل التفضيل هنا عامّاً ، فلم يُبيّن مَن المفضَّل ومَنِ المفضّل عليه ، فلم يقُلْ : فضلت الأغنياء على الفقراء ، أو : فضلت الأصحاء على المرضى .

إذن : فما دام في القضية عموم في التفضيل ، فكلُّ بعض مُفضَّل في جهة ، ومُفضّل عليه في جهة أخرى ، لكن الناس ينظرون إلى جهة واحدة في التفضيل ، فيفضلون هذا لأنه غني ، وهذا لأنه صاحب منصب . . الخ .

وهذه نظرة خاطئة فيجب أن ننظر للإنسان من كُلِّ زوايا الحياة وجوانبها؛ لأن الحق سبحانه لا يريدنا نماذج مكررة ، ونُسَخاً مُعَادة ، بل يُريدنا أُنَاساً متكاملين في حركة الحياة ، ولو أن الواحد مِنّا أصبح مَجْمعاً للمواهب ما احتاج فينا أحدٌ لأحد ، ولتقطعت بيننا العَلاقات .

فمن رحمة الله أن جعلك مُفضَّلاً في خَصْلة ، وجعل غيرك مُفضَّلاً في خصال كثيرة ، فأنت محتاج لغيرك فيما فُضِّل فيه ، وهم محتاجون إليك فيما فُضِّلْتَ فيه ، ومن هنا يحدث التكامل في المجتمع ، وتسلَمْ للناس حركة الحياة .

ونستطيع أن نخرج من هذه النظرة بقضية فلسفية تقول : إن مجموع مواهب كل إنسان تساوي مجموع مواهب كل إنسان ، فإنْ زِدْتَ عني في المال فربما أزيد عنك في الصحة ، وهكذا تكون المحصّلة النهائية متساوية عند جميع الناس في مواهب الدنيا ، ويكون التفاضل الحقيقي بينهم بالتقوى والعمل الصالح ، كما قال تعالى : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات : 13]

لذلك يجب على المسلم أن يلتزمَ أدب الإسلام في حِفْظ مكانة الآخرين ، فمهما كنت مُفضَّلاً فلا تحتقر غيرك ، واعلم أن لهم أيضاً ما يفضلون به ، وسوف يأتي اليوم الذي تحتاج إليهم فيه .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالعظيم الوجيه الذي قد تضطره الظروف وتُحوِجه لسباك أو عامل بسيط ليؤدي له عملاً لا يستطيع هو القيام به ، فالعامل البسيط في هذا الموقف مُفضِّل على هذا العظيم الوجيه . ولك أنْ تتصورَ الحال مثلاً إذا أضرب الكناسون عدة أيام عن العمل . إذن : مهما كان الإنسان بسيطاً ، ومهما كان مغموراً فإن له مهمة يفضّل بها عن غيره من الناس .

خُذ الخياط مثلاً ، وهو صاحب حرفة متواضعة بين الناس ، ولا يكاد يُجيد عملاً إلا أن يخيطَ للناس ثيابهم ، فإذا ما كانت ليلة العيد وجدته من أهم الشخصيات ، الجميع يقبلون عليه ، ويتمنون أن يتكرم عليهم ويقضي حاجتهم من خياطة ثيابهم وثياب أولادهم .

وبهذا نستطيع أن نفهم قَوْل الحق تبارك وتعالى : { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ }

[الزخرف : 32]

فكل منا مُسخَّر لخدمة الآخرين فيما فُضِّل فيه ، وفيما نبغ فيه .

وصدق الشاعر حين قال :

النَّاسُ لِلناسِ مِنْ بَدْوٍ ومِنْ حَضَرٍ ... بَعْضٌ لبعْضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

إذن : في التفاضل يجب أن ننظر إلى زوايا الإنسان المختلفة؛ لأن الجميع أمام الله سواء ، ليس مِنّا مَن هو ابن الله ، وليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسَبٌ أو قرابة ، ولا تجمعنا به سبحانه إلا صلة العبودية له عز وجل ، فالجميع أمام عطائه سواء ، لا يوجد أحد أَوْلَى من أحد .

فالعاقل حين ينظر في الحياة لا ينظر إلى تميُّزه عن غيره كموهبة ، بل يأخذ في اعتباره مواهب الآخرين ، وأنه محتاج إليها وبذلك يندكّ غروره ، ويعرف مدى حاجته لغيره . وكما أنه نابغ في مجال من المجالات ، فغيره نابغ في مجال آخر؛ لأن النبوغ يأتي إذا صادف العمل الموهبة ، فهؤلاء البسطاء الذين تنظر إليهم نظرة احتقار ، وترى أنهم دونك يمكن أن يكونوا نابغين لو صادف عملهم الموهبة .

وقوله تعالى : { وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً . . } [الإسراء : 21]

فإنْ كان التفاضل بين الناس في الدنيا قائماً على الأسباب المخلوقة لله تعالى ، فإن الأمر يختلف في الآخرة؛ لأنها لا تقوم بالأسباب ، بل بالمسبب سبحانه ، فالمفاضلة في الآخرة على حسبها .

ولو تأملتَ حالك في الدنيا ، وقارنتَه بالآخرة لوجدتَ الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، فعمرك في الدنيا موقوت ، وسينتهي إلى الموت؛ لأن عمرك في الدنيا مدة بقائك فيها ، فإنْ بقيْت من بعدك فهي لغيرك ، وكذلك ما فُضِّلْتَ به من نعيم الدنيا عُرْضَة للزوال ، حيث تناله الأغيار التي تطرأ على الإنسان .

فالغنيّ قد يصير فيقراً ، والصحيح سقيماً ، كما أن نعيم الدنيا على قَدْر إمكانياتك وتفاعلك مع الأسباب ، فالدنيا وما فيها من نعيم غير مُتيقّنة وغير موثوق بها .

وهَبْ أنك تنعَّمْتَ في الدنيا بأعلى درجات النعيم ، فإن نعيمك هذا يُنغِّصه أمران : إما أن تفوت هذا النعيم بالموت ، وإما أنْ يفوتَك هو بما تتعرّض له من أغيار الحياة .

أما الآخرة فعمرك فيها مُمتدّ لا ينتهي ، والنعمة فيها دائمة لا تزول ، وهي نعمة لا حدودَ لها؛ لأنها على قَدْر إمكانيات المنعِم عز وجل ، في دار خلود لا يعتريها الفناء ، وهي مُتيقنة موثوق بها .

فأيهما أفضل إذن؟ لذلك الحق سبحانه يدعونا إلى التفكُّر والتعقُّل : { انظر } أيَّ الصفقتين الرابحة ، فتاجر فيها ولا ترضى بها بديلاً .

إذن : فالآخرة أعظم واكبر ، ولا وجهَ للمقارنة بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة . وأذكر أننا سافرنا مرة إلى (سان فرانسيسكو) فأدخلونا أحد الفنادق ، لا للإقامة فيه ، ولكن لمشاهدة ما فيه من

روعة وجمال ومظاهر الرقي والرفاهية .
وفعلاً كان هذا الفندق آية من آيات الإبداع والجمال ، فرأيتُ رفاقي وكانوا من علية القوم مبهورين به ، مأخوذين بروعته ، فقلت لهم عبارة واحدة : هذا ما أعد البشر للبشر ، فكيف بما أعدّه ربُّ البشر للبشر؟
فنعيم الدنيا ومظاهر الجمال فيها يجب أنْ تثير فينا الشوق لنعيم دائم في الجنة؛ لا أنْ يثير فينا الحقد والحسد ، يجب أن نأخذ من مظاهر الترف والنعيم عند الآخرين وسيلة للإيمان بالله ، وأن نُصعِّد هذا الإيمان بالفكر المستقيم ، فإنْ كان ما نراه من ترف وتقدم ورُقيّ وعمارة في الدنيا من صُنْع مهندس أو عامل ، فكيف الحال إنْ كان الصانع هو الخالق سبحانه وتعالى؟
ويجب ألاَّ نغفلَ الفرْق بين نعيم الدنيا الذي أعدّه البشر ونعيم الآخرة الذي أعدّه الله تعالى ، فقصارى ما توصل إليه الناس في رفاهية الخدمة أن تضغط على زر فيأتي لك منه الشاي مثلاً ، وتضغط على زر آخر فيأتي لك منه القهوة .

وهذه آلة تستجيب لك إنْ تفاعلتَ معها ، لكن مهما ارتقى هؤلاء ومهما تقدَّمت صناعتهم فلن يصلوا إلى أنْ يقدموا لك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك؛ لأن هذا من نعيم الجنة الذي أعده الخالق سبحانه لعباده الصالحين .
إذن : فما دام كذلك ، وسلَّمنا بأن الآخرة افضل وأعظم ، فما عليك إلاَّ أنْ تبادر وتأخذ الطريق القويم ، وتسلك طريق ربك من أقصر اتجاه ، وهو الاستقامة على منهج الله الواحد والالتزام به .
فيقول الحق سبحانه : { لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً } .

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (22)

لأنه سبحانه أعطاك في الدنيا ، وأمدّك بالأسباب ، وبمقوّمات حياتك ، أوجدك من عدم ، وأمدك من عُدْمٍ ، حتى وإنْ كنت كافراً ، ثم أعدَّ لك في الآخرة الدرجات العالية والنعيم المقيم الذي لا يَفْنى ولا يزول .
وهذه هي الحيثيات التي ينبغي عليك بعدها أن تعرفه سبحانه ، وتتوجّه إليه ، وتلتحم به وتكون في معيته ، ولا تجعل معه سبحانه إلهاً آخر؛ لأنك إنْ فعلتَ فلن تجد من هذا النعيم شيئاً ، لن تجد إلا المذمّة والخُذْلان في الدنيا والآخرة .
وسوف تُفَاجأ في القيامة بربك الذي دعاك للإيمان به فكفرْتَ . { وَوَجَدَ الله عِندَهُ . . } [النور : 39]
ساعتها ستندم حين لا ينفعك الندم ، بعد أن ضاعت الفرصة من يديك .

ويقول تعالى : { فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً } [الإسراء : 22]

والقعود ليس أمراً عادياً هنا ، بل هو أنكى ما يصير إليه الإنسان؛ لأن الإنسان لا يقعد إلا إذا أصبح غيرَ قادر على القيام ، ففيها ما يُشعر بإنهاك القوة ، وكأنه سقط إلى الأرض ، بعد أنْ أصبحتْ رِجلاه غير قادرتين على حَمْله ، ولم تَعُد به قوة للحركة .

ونلاحظ في تعبير القرآن عن هذا الذي خارتْ قواه ، وانتهت تماماً ، أنه يختار له وَضْع القعود خاصة ، ولم يَقُلْ مثلاً : تنام ، لأن العذاب لا يكون مع النوم ، ففي النوم يفقد الإنسان الوعي فلا يشعر بالعذاب ، بل قال (فتقعد) هكذا شاخص يقاسي العذاب؛ لأن العذاب ليس للجوارح والمادة ، بل للنفس الواعية التي تُحِسّ وتألم .

ولذلك يلجأ الأطباء إلى تخدير المريض قبل إجراء العمليات الجراحية؛ لأن التخدير يُفقِده الوعي فلا يشعر بالألم .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَفَضَّلَ الله المجاهدين عَلَى القاعدين أَجْراً عَظِيماً } [النساء : 95]

وقال : { والقواعد مِنَ النسآء اللاتي لاَ يَرْجُونَ نِكَاحاً . . } [النور : 60]

فالقعود يدل على عدم القدرة ، وفي الوقت نفسه لا يرتاح بالنوم ، فهو في عذاب مستمر .

وفي مجال الذم قال الشاعر :

دَعِ المكَارِمَ لاَ ترحَلِ لِبُغْيتِهَا ... وَاقْعُدْ فإنكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسي

وقوله : { مَذْمُوماً . . } [الإسراء : 22] لأنه أتى بعمل يذمه الناس عليه .

{ مَّخْذُولاً . . } [الإسراء : 22] من الخذلان ، وهو عدم النُّصْرة ، فالأبعد في موقف لا ينصره فيه أحد ، ولا يدافع عنه أحد ، لذلك يقول تعالى لهؤلاء : { مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ اليوم مُسْتَسْلِمُونَ } [الصافات : 25-26]

ثم ينتقل بنا الحق سبحانه إلى قضية يعطينا فيها نوعاً من الاستدلال ، فيقول سبحانه : { وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ وبالوالدين إِحْسَاناً . . . } .

وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (23)

بعد أنْ وجَّهنا الله تعالى إلى القضية العقدية الكبرى : { لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ . . } [الإسراء : 22]

أراد سبحانه أنْ يُبيّن لنا أن العقيدة والإيمان لا يكتملان إلا بالعمل ، فلا يكفي أن تعرف الله وتتوجّه إليه ، بل لا بُدَّ أنْ تنظر فيما فرضه عليك ، وفيما كلّفك به؛ لذلك كثيراً ما نجد في آيات الكتاب الكريم الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ، كما في قوله تعالى : { والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر } [العصر : 3

[
لأن فائدة الإيمان وثمرته العمل الصالح ، وما دُمْتَ ستسلك هذا الطريق فانتظر مواجهة أهل الباطل والفساد والضلال ، فإنهم لن يدعُوك ولن يُسالموك ، ولا بُدَّ أن تُسلِّح نفسك بالحق والقوة والصبر ، لتستطيع مواجهة هؤلاء .
ودليل آخر على أن الدين ليس الإيمان القوليّ فقط ، أن كفار مكة لم يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فلو كانت المسألة مسألةَ الإيمان بإله واحد وتنتهي القضية لَكانوا قالوا وشهدوا بها ، إنما هم يعرفون تماماً أن للإيمان مطلوباً ، ووراءه مسئولية عملية ، وأن من مقتضى الإيمان بالله أن تعمل بمراده وتأخذ بمنهجه .
ومن هنا رفضوا الإيمان بإله واحد ، ورفضوا الانقياد لرسوله صلى الله عليه وسلم الذي جاء ليُبلِغهم مراد الله تعالى ، وينقل إليهم منهجه ، فمنهج الله لا ينزل إلا على رسول يحمله ويُبلّغه للناس ، كما قال تعالى : { وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ } [الشورى : 51]
وهاهي أول الأحكام في منهج الله : { وقضى رَبُّكَ أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 23]
وقد آثر الحق سبحانه الخطاب ب { رَبُّكَ } على لفظ (الله) ؛ لأن الربَّ هو الذي خلقك وربَّاك ، ووالى عليك بنعمه ، فهذا اللفظ أَدْعَى للسمع والطاعة ، حيث يجب أن يخجل الإنسان من عصيان المنعِم عليه وصاحب الفضل .
{ وقضى رَبُّكَ . . } [الإسراء : 23]
الخطاب هنا مُوجّه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه هو الذي بلغ المرتبة العليا في التربية والأدب ، وهي تربية حَقّة؛ لأن الله تعالى هو الذي ربَّاه ، وأدَّبه احسن تأديب .
وفي الحديث الشريف : « أدّبني ربي فأحسن تأديبي » .
قضى : معناها : حكم؛ لأن القاضي هو الذي يحكم ، ومعناها أيضاً : أمر ، وهي هنا جامعة للمعنيَيْن ، فقد أمر الله ألاَّ تعبدوا إلا إيّاه أمراً مؤكداً ، كأنه قضاء وحكم لازم .
وقد تأتي قضى بمعنى : خلق . كما في قوله تعالى : { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ . . } [فصلت : 12]
وتأتي بمعنى : بلغ مراده من الشيء ، كما في قوله تعالى : { فَلَمَّا قضى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا . . } [الأحزاب : 37]
وقد تدل على انتهاء المدة كما في :

{ فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل . . } [القصص : 29]
وتأتي بمعنى : أراد كما في : { فَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فيَكُونُ } [غافر : 68]

إذن : قضى لها معانٍ مُتعدّدة ، لكن تجتمع كلها لتدل على الشيء اللازم المؤكّد الذي لا نقصَ فيه .

وقوله : { أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 23]

العبادة : هي إطاعة آمر في أمره ونهيه ، فتنصاع له تنفيذاً للأمر ، واجتناباً للنهي ، فإنْ ترك لك شيئاً لا أمر فيه ولا نهي فاعلم أنه ترك لك الاختيار ، وأباح لك : تفعل أو لا تفعل .

لذلك ، فالكفار الذين عبدوا الأصنام والذين أتوا بها حجارةً من الصحراء ، وأعملوا فيها المعاول والأدوات لينحتوها ، وتكسرت منهم فعالجوها ، ووقعت فأقاموها ، وهم يرون كم هي مهينة بين أيديهم لدرجة أن أحدهم رأى الثعلب يبول برأس أحد الأصنام فقال مستنكراً حماقة هؤلاء الذين يعبدونها :

أَرَبٌّ يبولُ الثَّعلَبانُ برأْسِهِ ... لَقدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْه الثَّعَالِبُ

فإذا ما تورطوا في السؤال عن آلهتهم هذه قالوا : إنها لا تضر ولا تنفع ، وما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زُلْفى ، كيف والعبادة طاعة أمر واجتناب نهي . فبأيّ شيء أمرتكم الأصنام؟ وعن أيّ شيء نَهتْكُمْ؟! إذن : كلامُكم كذاب في كذب .

وفي قوله تعالى : { أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 23]

أسلوب يسمونه أسلوب قَصْر ، يفيد قصر العبادة وإثباتها لله وحده ، بحيث لا يشاركه فيها أحد . فلو قالت الآية : وقضى ربك أن تعبدوه . . فلقائل أن يقول : ونعبد غيره لأن باب العطف هنا مفتوح لم يُغْلَق ، كما لو قُلْت : ضربتُ فلاناً وفلاناً وفلاناً . . هكذا باستخدام العطف . إنما لو قلت ، ما ضربن إلا فلاناً فقد أغلقت باب العطف .

إذن : جاء التعبير بأسلوب القصر ليقول : اقصروا العبادة عليه سبحانه ، وانفوها عن غيره .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى التكليف والأمر الثاني بعد عبادته : { وبالوالدين إِحْسَاناً . . } [الإسراء : 23]

وقد قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة ، قال تعالى : { واعبدوا الله وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً } [النساء : 36]

وقال : { قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وبالوالدين إِحْسَاناً . . } [الأنعام : 151]

وقال : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حُسْناً } [العنكبوت : 8]

لكن ، لماذا قرن الله تعالى بين عبادته وبين الإحسان إلى الوالدين؟ أتريد أن نقرب الأولى بالثانية ، أم نقرب الثانية بالأولى؟

نقول : لا مانع أن يكون الأمران معاً؛ لأن الله تعالى غَيْب ، والإيمان به يحتاج إلى إعمال عقل وتفكير ، لكن الوالدين بالنسبة للإنسان أمر حسيّ ، فهما سِرُّ وجوده المباشر ، وهما رَبَّياه ووفَّرا

له كل متطلبات حياته ، وهما مصدر العطف والحنان .

إذن : التربية والرعاية في الوالدين مُحسَّة ، أما التربية والرعاية من الله فمعقولة ، فأمْر الله لك بالإحسان إلى الوالدين دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو سبحانه الذي خلقك ، وهو سبب وجودك الأول ، وهو مُربّيك وصاحب رعايتك ، وصاحب الفضل عليك قبل الوالدين ، وهل رباك الوالدان بما أوجداه هما ، أما بما أوجده الله سبحانه؟

إذن : لابد أن يلتحم حَقُّ الله بحقِّ الوالدين ، وأن نأخذ أحدهما دليلاً على الآخر .

ونلاحظ أن الحق تبارك وتعالى حين أمرنا بعبادته جاء بأسلوب النفي : { أَلاَّ تعبدوا إِلاَّ إِيَّاهُ . . } [الإسراء : 23]

يعني نهانا أن نعبد غيره سبحانه ، أما حين تكلم عن الوالدين فلم يقل مثلاً : لا تسيئوا للوالدين ، فيأتي بأسلوب نفي كسابقه ، لماذا؟

قالوا : لأن فضل الوالدين واضح لا يحتاج إلى إثبات ، ولا يحتاج إلى دليل عقليّ ، وقولك : لا تسيئوا للوالدين يجعلهما مَظنَّة الإساءة ، وهذا غير وارد في حَقِّهما ، وغير مُتصوَّر منهما ، وأنت إذا نفيتَ شيئاً عن مَنْ لا يصح أن ينفي عنه فقد ذَمَمْتَه ، كأن تنفي عن أحد الصالحين المشهورين بالتقوى والورع ، تنفي عنه شرب الخمر مثلاً فهل هذا في حقه مدح أم ذم؟

لأنك ما قلتَ : إن فلاناً لا يشرب الخمر إلا إذا كان الناس تظنّ فيه ذلك . ومن هنا قالوا : نَفْي العيب عَمَّنْ لا يستحق العيب عَيْب .

إذن : لم يذكر الإساءة هنا؛ لأنها لا تَرِد على البال ، ولا تُتصوّر من المولود لوالديه .

وبعد ذلك ، ورغم ما للوالدين من فضل وجميل عليك فلا تنسَ أن فضل الله عليك أعظم؛ لأن والديك قد يَلِدانِك ويُسْلِمانك إلى الغير ، أما ربك فلن يُسلمك إلى أحد .

وقوله تعالى : { إِحْسَاناً . . } [الإسراء : 23]

كأنه قال : أحْسِنوا إليهم إحساناً ، فحذف الفعل وأتى بمصدره للتأكيد .

وقوله تعالى : { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً } [الإسراء : 23]

الحق سبحانه وتعالى حينما يوصينا بالوالدين ، مرة تأتي الوصية على إطلاقها ، كما قال تعالى : { وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً . . } [الأحقاف : 14]

ومرّة يُعلِّل لهذه الوصية ، فيقول : { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ . . } [لقمان : 14]

والذي يتأمل الآيتين السابقتين يجد أن الحق سبحانه ذكر العِلّة في بِرّ الوالدين ، والحيثيات التي استوجبت هذا البِرّ ، لكنها خاصة بالأم ، ولم تتحدث أبداً عن فضل الأب ، فقال : { حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ . . } [لقمان : 14]

فأين دَوْر الأب؟ وأين مجهوداته طوال سنين تربية الأبناء؟
المتتبع لآيات بر الوالدين يجد حيثية مُجْملة ذكرت دور الأب والأم معاً في قوله تعالى : { كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . } [الإسراء : 24]
لكن قبل أن يُربّي الأب ، وقبل أن يبدأ دوره كان للأم الدور الأكبر؛ لذلك حينما تخاصم الأب والأم لدى القاضي على ولد لهما ، قالت الأم : لقد حمله خِفّاً وحملتُه ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعتُه كرهاً .
لذلك ذكر القرآن الحيثيات الخاصة بالأم؛ لأنها تحملتها وحدها لم يشاركها فيها الزوج؛ ولأنها حيثيات سابقة لإدراك الابن فلم يشعر بها ، فكأنه سبحانه وتعالى أراد أنْ يُذكّرنا بفضل الأم الذي لم ندركه ولم نُحِسّ به .

وذلك على خلاف دور الأب فهو محسوس ومعروف للابن ، فأبوه الذي يوفر له كل ما يحتاج إليه ، وكلما طلب شيئاً قالوا : حينما يأتي أبوك ، فدَوْر الأب إذن معلوم لا يحتاج إلى بيان .
والآية هنا أوصتْ بالوالدين في حال الكِبَر ، فلماذا خَصَّتْ هذه الحال دون غيرها؟
قالوا : لأن الوالدين حال شبابهما وقُوتهما ليسا مظنّة الإهانة والإهمال ، ولا مجال للتأفف والتضجُّر منهما ، فهما في حال القوة والقدرة على مواجهة الحياة ، بل العكس هو الصحيح نرى الأولاد في هذه الحال يتقربون للآباء ، ويتمنون رضاهما ، لينالوا من خيرهما .
لكن حالة الكِبَر ، ومظهر الشيخوخة هو مظهر الإعالة والحاجة والضعف ، فبعد أنْ كان مُعْطياً أصبح آخذاً ، وبعد أنْ كان عائلاً أصبح عالة .
لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم في حديث الآمينات والمراغم ، وكان على المنبر ، فسمعه الصحابة يقول : آمين . ثم سكت برهة . وقال : آمين وسكت . ثم قال : آمين . فلما نزل قالوا : يا رسول الله سمعناك تقول : آمين ثلاثاً . فقال : « جاءني جبريل فقال : رغم أنف مَنْ ذُكِرْتَ عنده ولم يُصَلّ عليك ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنفس مَنْ أدرك رمضان فلم يُغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين ، ورغم أنف مَنْ أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخل بهما الجنة ، قل : آمين . فقلت : آمين »
فخصَّ الحق سبحانه حال الكِبَر ، لأنه حال الحاجة وحال الضعف؛ لذلك قال أحد الفلاسفة : خَيْر الزواج مبكره ، فلما سُئِل قال : لأنه الطريق الوحيد لإنجاب والد يعولك في طفولة شيخوختك ، وشبَّه الشيخوخة بالطفولة لأن كليهما في حال ضعف وحاجة للرعاية والاهتمام .
وصدق الحق سبحانه حين قال : { الله الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً . . } [الروم : 54]
فَمنْ تزوّج مبكراً فسوف يكون له من أولاده مَنْ يُعينه ويساعده حال كِبَره .

والمتأمل في قوله تعالى : { إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكبر . . } [الإسراء : 23]
لم تَأتِ صِفَة الكِبَر على إطلاقها ، بل قيّدها بقوله : { عِندَكَ } فالمعنى : ليس لهما أحد غَيرك يرعاهما ، لا أخ ولا أخت ولا قريب يقوم بهذه المهمة ، وما دام لم يَعُدْ لهما غيرك فلتكُنْ على مستوى المسئولية ، ولا تتنصَّل منها؛ لأنك أَوْلى الناس بها .
ويمتد البِرُّ بالوالدين إلى ما بعد الحياة بالاستغفار لهما ، وإنجاز ما أحدثاه من عهد ، ولم يتمكّنا من الوفاء به ، وكذلك أن نصِلَ الرحم التي لا تُوصَل إلا بهما من قرابة الأب والأم ، ونَصِلَ كذلك أصدقاءهما وأحبابهما ونُودَّهم .
وقد كان صلى الله عليه وسلم يودّ صاحبات السيدة خديجة رضي الله عنها وكان يستقبلهن ويكرمهن .
وانظر إلى سُمُوِّ هذا الخلق الإسلامي ، حينما يُعدِّي هذه المعاملة حتى إلى الكفار ، فقد جاءت السيدة أسماء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله في أمها التي أتتْها .

وأظهرت حاجة مع أنها كافرة ، فقال لها : « صِلِي أمك » .
بل وأكثر من ذلك ، إنْ كان الوالدان كافرين ليس ذلك فحسب بل ويدعوان الابن إلى الكفر ، ويجاهدانه عليه ، ومع هذا كله يقول الحق سبحانه : { وَإِن جَاهَدَاكَ على أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . } [لقمان : 15]
فهذه ارتقاءات ببرّ الوالدين تُوضّح عظمة هذا الدين ورحمة الخالق سبحانه بالوالدين حتى في حال كفرهما ولَدَدهما في الكفر .
ويُرْوَى أن خليل الله إبراهيم عليه السلام جاءه ضيف بليل ، وأراد أن ينزل في ضيافته ، فسأله إبراهيم عليه السلام عن دينه فقال : مجوسي فأعرض عنه وتركه يذهب . فَسرْعان ما أوحى الحق سبحانه إلى إبراهيم مُعاتباً إياه في أمر هذا الضيف : يا إبراهيم لقد وَسعْتُه في مكي أعواماً عديدة ، أطعمه وأسقيه وأكسوه وهو كافر بي ، وأنت تُعرض عنه وتريد أنْ تُغيّر دينه من أجل ليلة يبيتها عندك ، فأسرع الخليل خلف الضيف حتى لحق به ، وحكى له ما حدث ، فقال الرجل . نِعْم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه في أعدائه ، وشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَ إبراهيم رسول الله .
وقد رأى المستشرقون لضيق أُفُقهم وقلّة فقْههم لأسلوب القرآن الكريم ، رَأَوْا تناقضاً بين قوله تعالى : { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفاً . . } [لقمان : 15]
وبين قوله تعالى : { لاَّ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ الله وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانوا آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ } [المجادلة : 22]
فكيف يأمر القرآن بمصاحبة الوالدين وتقديم المعروف لهما ، في حين ينهي عن مودّة مَنْ حَادّ الله

ورسوله؟

ولو فَهِم هؤلاء مُعْطيات الأسلوب العربي الذي جاء به القرآن لعلموا أن المعروف غير الودّ؛ لأن المعروف يصنعه الإنسان مع من يحب ، ومع من يكره ، مع المؤمن ومع الكافر ، تُطعمه إذا جاع ، وتسقيه إذا عطش ، وتستره إنْ كان عرياناً ، أما المودة فلا تكون إلا لمَنْ تحب؛ لأنها عمل قلبيّ .

وقوله تعالى : { فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . . } [الإسراء : 23]

وهذا توجيه وأدب إلهيّ يُراعي الحالة النفسية للوالدين حال كِبَرهما ، وينصح الأبناء أن يكونوا على قدر من الذكاء والفطْنة والأدب والرِّفْق في التعامل مع الوالدين في مثل هذا السن .

الوالد بعد أَنْ كان يعطيك وينفق عليك أصبح الآن مُحتاجاً إليك ، بعد أنْ كان قوياً قادراً على السعي والعمل أصبح الآن قعيدَ البيت أو طريحَ الفراش ، إذن : هو في وَضْع يحتاج إلى يقظة ولباقة وسياسة عالية ، حتى لا نجرح مشاعره وهي مُرْهفة في هذا الحال . وتأمل قول الله تعالى : { فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ . . } [الإسراء : 23]

وهي لفظة بسيطة أقلّ ما يقال ، وهذه لفظة قَسْرية تخرج من صاحبها قهراً دون أن تمر على العقل والتفكير ، وكثيراً ما نقولها عند الضيق والتبرُّم من شيء ، فالحق سبحانه يمنعك من هذا التعبير القَسْري ، وليس الأمر الاختياري .

و { أُفٍّ } اسم فعل مضارع بمعنى : أتضجر ، وهذه الكلمة تدل على انفعال طبيعي ، ولكن الحق سبحانه يُحذِّرك منه ، ويأمرك بأن تتمالكَ مشاعرك ، وتتحكّم في عواطفك ، ولا تنطق بهذه اللفظة .

ومعلومة أنه سبحانه إذا نهاني عن هذه فقط نهاني عن غيرها من باب أَوْلى ، وما دامتْ هي أقلّ لفظة يمكن أنْ تُقال . إذن : نهاني عن القول وعن الفعل أيضاً .

ثم أكّد هذا التوجيه بقوله : { وَلاَ تَنْهَرْهُمَا . . } [الإسراء : 23]

والنهر هو الزَّجْر بقسوة ، وهو انفعال تَالٍ للتضجُّر وأشدّ منه قسوة ، وكثيراً ما نرى مثل هذه المواقف في الحياة ، فلو تصوَّرنا الابن يعطي والده كوباً من الشاي مثلاً فارتعشت يده فأوقع الكوب فوق سجادة ولده الفاخرة ، وسريعاً ما يتأفّف الابن لما حدث لسجادته ، ثم يقول للوالد من عبارات التأنيب ما يؤلمه ويجرح مشاعره .

إذن : كُنْ على حذر من التأفف ، ومن أن تنهر والديك ، كُنْ على حذر من هذه الألفاظ التي تسبق إلى اللسان دون فِكْر ، ودون تعقّل .

ثم بعد أن هذا النهي المؤكد يأتي أمر جديد ليؤكد النهي السابق : { وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً . . } [الإسراء : 23]

وفي هذا المقام تُرْوَى قصة الشاب الذي أوقع أبوه إناء الطعام على ثيابه ، فأخذ الولد يلعق الطعام الذي وقع على ثوبه وهو يقول لوالده : أطعمك الله كما أطعمتني ، فحوّل الإساءة إلى جميل يُحمَد عليه .

والآخر الذي ذهب يتمرّغ تحت أقدام أمه ، فقال له : كفى يا بني ، فقال : إنْ كنتِ تُحِبّينني حقاً فلا تمنعيني من عمل يُدخِلني الجنة .

والقول الكريم هنا نوع من التصرُّف واللباقة في معاملة الوالدين خاصة حال الشيخوخة التي قد تُقعِد صاحبها ، أو المرض الذي يحتاج إلى مساعدة الغير ، والأولاد هم أَوْلَى الناس بإعالة الوالدين في هذه الظروف ، حيث سيبدو من الإنسان مَا لا يصح الإطلاع عليه إلا لأولاده وأقرب الناس إليه .

وَهَبْ أن الوالد المريض أو الذي بلغ من الكِبَر عتياً يريد أنْ يقضي حاجته ، ويحتاج لمن يحمله ويُقعِده ويُريحه ، وينبغي هنا أن يقول الابن لأبيه : هَوِّن عليك يا والدي ، وأعطني فرصة أردّ لك بعض جميلك عليّ ، فلكَمْ فعلتَ معي أكثر من هذا .

وهو مع ذلك يكون مُحبّاً لوالده ، رفيقاً به ، حانياً عليه لا يتبرّم به ، ولا يتضجر منه ، هذا هو القول الكريم الذي ينتقيه الأبناء في المواقف المختلفة .

فمثلاً : قد يزورك أبوك في بيتك وقد يحدث منه أنْ يكسر شيئاً من لوازم البيت ، فتقول له في هذا الموقف : فِدَاك يا والدي ، أو تقول : لا عليك لقد كنت أفكر في شراء واحدة أحدث منها . أو غيره من القول الكريم الذي يحفظ للوالدين كرامتهما ، ولا يجرح شعورهما .

وكثيراً ما يأتي المرض مع كِبَر السن ، فترى الوالد طريحَ الفراش أو مشلولاً عافنا الله وإياكم لذلك فهو في أمس الحاجة لمن يُخفّف عنه ويُواسيه ، ويفتح له باب الأمل في الشفاء ويُذكّره أن فلاناً كان مثله وشفاه الله ، وفلاناً كان مثله وأخذ الله بيده ، وهو الآن بخير ، وهكذا .

ومع هذا ، كُنْ على ذِكْر لفضل الوالدين عليك ، ولا تَنْسَ ما كان عندهما حال طفولتك من عاطفة الحب لك والحنان عليك ، وأن الله تعالى جعل هذه العاطفة الأبوية تقوى مع ضعفك ، وتزيد مع مرضك وحاجتك ، فترى الابن الفقير محبوباً عن أخيه الغني ، والمريض أو صاحب العاهة محبوباً عن الصحيح ، والغائب محبوباً عن الحاضر ، والصغير محبوباً عن الكبير ، وهكذا على قَدْر حاجة المربَّي يكون حنان المربِّي .

إذن : نستطيع أن نأخذَ من هذا إشارة دقيقة يجب ألاَّ نغفل عنها ، وهي : إنْ كان بر الوالدين واجباً عليك في حال القوة والشباب والقدرة ، فهو أوجب حالَ كبرهما وعجزهما ، أو حال مرضهما .

ثم يرشدنا الحق سبحانه إلى حسن معاملة الوالدين ، فيقول : { واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة . . . } .

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (24)

{ واخفض } : الخفْض ضد الرّفْع .

{ جَنَاحَ الذل } : الطائر معروف أنه يرفع جناحه ويُرفْرِف به ، إنْ أراد أن يطير ، ويخفضه إنْ أراد أن يحنوَ على صغاره ، ويحتضنهم ويغذيهم .

وهذه صورة مُحسَّة لنا ، يدعونا الحق سبحانه وتعالى أن نقتدي بها ، وأن نعامل الوالدين هذه المعاملة ، فنحنو عليهم ، ونخفض لهم الجناح ، كنايةً عن الطاعة والحنان والتواضع لهما ، وإياك أن تكون كالطائر الذي يرفع جناحيه ليطير بهما مُتعالياً على غيره .

وكثيراً ما يُعطينا الشرع الحكيم أمثلة ونماذج للرأفة والرحمة في الطيور ، ويجعلها قدوة لنا بني البشر . والذي يرى الطائر يحتضن صغاره تحت جناحه ، ويزقّهم الغذاء يرى عجباً ، فالصغار لا يقدرون على مضغ الطعام وتكسيره ، وليس لديهم اللعاب الذي يساعدهم على أنْ يزدردوا الطعام فيقوم الوالدان بهذه المهمة ثم يناولانهم غذاءهم جاهزاً يسهل بَلْعه ، وإنْ تيسر لك رؤية هذا المنظر فسوف ترى الطائر وفراخه يتراصون فرحة وسعادة .

إذن : قوله تعالى : { جَنَاحَ الذل . . } [الإسراء : 24]

كناية عن الخضوع والتواضع ، والذُّل قد يأتي بمعنى القهر والغلبة ، وقد يأتي بمعنى العطف والرحمة ، يقول تعالى : { ياأيها الذين آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين . . } [المائدة : 54]

فلو كان الذلّة هنا بمعنى القهر لقال : أذلة للمؤمنين ، ولكن المعنى : عطوفين على المؤمنين . وفي المقابل { أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين . . } [المائدة : 54]

أي : أقوياء عليهم قاهرين لهم .

وفي آية أخرى يقول تعالى : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . } [الفتح : 29]

لأن الخالق سبحانه لم يخلق الإنسان رحيماً على الإطلاق ولا شديداً على الإطلاق ، بل خلق في المؤمن مرونة تمكّنه أن يتكيف تبعاً للمواقف التي يمر بها ، فإنْ كان على الكافر كان عزيزاً ، وإنْ كان على المؤمن كان ذليلاً متواضعاً .

ونرى وضوحَ هذه القضية في سيرة الصِّديق أبي بكر والفاروق عمر رضي الله عنهما ، وقد عُرِف عن الصِّديق اللين ورِقَّة القلب والرحمة ، وعُرِف عن عمر الشدة في الحق والشجاعة والقوة ، فكان عمر كثيراً ما يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تصادم بأحد المعاندين : « إئذن لي

يا رسول الله أضرب عنقه » .

وعندما حدثت حروب الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كان لكل منهما موقف مغاير لطبيعته ، فكان مِنْ رأي عمر ألاّ يحاربهم في هذه الفترة الحرجة من عمر الدعوة ، في حين رأى الصديق محاربتهم والأخْذ على أيديهم بشدة حتى يعودوا إلى ساحة الإسلام ، ويُذعنوا لأمر الله تعالى فقال : « والله ، لو منعوني عقالاً كانوا يُؤدُّونه لرسول الله لجالدتهم عليه بالسيف ، والله لو لم يَبْق إلا الزرع » .

وقد جاء هذا الموقف من الصِّديق والفاروق لحكمة عالية ، فلو قال عمر مقالة أبي بكر لكان شيئاً طبيعياً يُنْسب إلى شدة عمر وجرأته ، لكنه أتى من صاحب القلب الرحيم الصِّديق رضي الله عنه ليعرف الجميع أن الأمر ليسد للشدة لذاتها ، ولكن للحفاظ على الدين والدفاع عنه .

وكأن الموقف هو الذي صنع أبا بكر ، وتطلب منه هذه الشدة التي تغلبت على طابع اللين السائد في أخلاقه .

فيقول تعالى : { واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة . . } [الإسراء : 24]

إذن : الذلَّة هنا ذِلَّة تواضع ورحمة بالوالدين ، ولكن رحمتك أنت لا تكفي ، فعليك أن تطلب لهما الرحمة الكبرى من الله تعالى : { وَقُل رَّبِّ ارحمهما كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . } [الإسراء : 24]

لأن رحمتك بهما لا تَفي بما قدّموه لك ، ولا ترد لهما الجميل ، وليس البادئ كالمكافئ ، فهم أحسنوا إليك بداية وأنت أحسنتَ إليهما ردّاً؛ لذلك ادْعُ الله أنْ يرحمهما ، وأنْ يتكفل سبحانه عنك برد الجميل ، وأن يرحمهما رحمة تكافئ إحسانهما إليك .

وقوله تعالى : { كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً . . } [الإسراء : 24]

كما : قد تفيد التشبيه ، فيكون المعنى : ارحمهما رحمة مثل رحمتهما بي حين ربياني صغيراً . أو تفيد التعليل : أي ارحمهما لأنهما ربياني صغيراً ، كما قال تعالى : { واذكروه كَمَا هَدَاكُمْ . . } [البقرة : 198]

و { رَبَّيَانِي } هذه الكلمة أدخلت كل مُربٍّ للإنسان في هذا الحكم ، وإنْ لم يكُنْ من الوالدين ، لأن الولد قد يُربّيه غير والديه لأيّ ظرف من الظروف ، والحكم يدور مع العلة وجوداً وعَدماً ، فإنْ ربّاك غير والديك فلهما ما للوالدين من البرّ والإحسان وحُسْن المعاملة والدعاء .

وهذه بشرى لمن رَبَّى غير ولده ، ولاسيما إنْ كان المربَّى يتيماً ، أو في حكم اليتيم .

وفي : { رَبَّيَانِي صَغِيراً . . } [الإسراء : 24] اعتراف من الابن بما للوالدين من فضل عليه وجميل يستحق الرد .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه في تذييل هذا الحكم بقضية تشترك فيها معاملة الابن لأبويه مع

معاملته لربه عز وجل ، فيقول تعالى : { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً } .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (25)

وقد سبق أنْ تكلّمنا عن الإيمان والنفاق ، وقلنا : إن المؤمن منطقيّ مع نفسه؛ لأنه آمن بقلبه ولسانه ، وأن الكافر كذلك منطقيّ لأنه كفر بقلبه ولسانه ، أما المنافق فغير منطقيّ مع نفسه؛ لأنه آمن بلسانه وجحد بقلبه .

وهذه الآية تدعونا إلى الحديث عن النفاق؛ لأنه ظاهرة من الظواهر المصاحبة للإيمان بالله ، وكما نعلم فإن النفاق لم يظهر في مكة التي صادمتْ الإسلام وعاندته ، وضيقتْ عليه ، بل ظهر في المدينة التي احتضنتْ الدين ، وانساحت به في شتى بقاع الأرض ، وقد يتساءل البعض : كيف ذلك؟

نقول : النفاق ظاهرة صحية إلى جانب الإيمان؛ لأنه لا يُنافَق إلا القوي ، والإسلام في مكة كان ضعيفاً ، فكان الكفار يُجابهونه ولا ينافقونه ، فلما تحوّل إلى المدينة اشتد عوده ، وقويتْ شوكته وبدأ ضِعَاف النفوس ينافقون المؤمنين .

لذلك يقول أحدهم : كيف وقد ذَمَّ الله أهل المدينة ، وقال عنهم : { وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق } [التوبة : 101]

نقول : لقد مدح القرآن أهل المدينة بما لا مزيدَ عليه ، فقال تعالى في حقهم : { والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان } [الحشر : 9]

وكأنه جعل الإيمان مَحَلاً للنازلين فيه . { يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } [الحشر : 9]

فإنْ قال بعد ذلك : { وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق } [التوبة : 101]

فالنفاق في المدينة ظاهرة صحية للإيمان؛ لأن الإيمان لو لم يكن قوياً في المدينة لما نافقه المنافقون .

ومن هنا جعل الله المنافقين في الدرْكِ الأسفل من النار ، لأنه مُندَسٌّ بين المؤمنين كواحد منهم ، يعايشهم ويعرف أسرارهم ، ولا يستطيعون الاحتياط له ، فهو عدو من الداخل يصعُب تمييزه . على خلاف الكافر ، فعداوته واضحة ظاهرة معلنة ، فيمكن الاحتياط له وأخذ الحذر منه .

ولكن لماذا الحديث عن النفاق ونحن بصدد الحديث عن عبادة الله وحده وبِرّ الوالدين؟

الحق سبحانه وتعالى أراد أنْ يُعطينا إشارة دقيقة إلى أن النفاق كما يكون في الإيمان بالله ، يكون كذلك في برّ الوالدين ، فنرى من الأبناء مَنْ يبرّ أبويْه نفاقاً وسُمْعة ورياءً ، لا إخلاصاً لهما ، أو اعترافاً بفضلهما ، أو حِرْصاً عليهما .

ولهؤلاء يقول تعالى : { رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ . . } [الإسراء : 25]
لأن من الأبناء مَنْ يبرّ أبويه ، وهو يدعو الله في نفسه أنْ يُريحه منهما ، فجاء الخطاب بصيغة الجمع : { رَّبُّكُمْ } أي : رب الابن ، وربّ الأبوين؛ لأن مصلحتكم عندي سواء ، وكما ندافع عن الأب ندافع أيضاً عن الابن ، حتى لا يقعَ فيما لا تُحمد عُقباه .
وقوله : { إِن تَكُونُواْ صَالِحِينَ . . } [الإسراء : 25]
أيْ : إن توفّر فيكم شَرْط الصلاح ، فسوف يُجازيكم عليه الجزاء الأوفى . وإنْ كان غَيْر ذلك وكنتم في أنفسكم غير صالحين غير مخلصين ، فارجعوا من قريب ، ولا تستمروا في عدم الصلاح ، بل عودوا إلى الله وتوبوا إليه .

{ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً } [الإسراء : 25]
والأوابون هم الذين اعترفوا بذنوبهم ورجعوا تائبين إلى ربهم .
وقد سبق أنْ أوضحنا أن مشروعية التوبة من الله للمذنبين رحمةٌ من الخالق بالخلق؛ لأن العبد إذا ارتكب سيئة في غفلة من دينه أو ضميره ، ولم تشرع لها توبة لوجدنا هذه السيئة الواحدة تطارده ، ويشقى بها طِوَال حياته ، بل وتدعوه إلى سيئة أخرى ، وهكذا يشقى به المجتمع .
لذلك شرع الخالقُ سبحانه التوبة ليحفظ سلامة المجتمع وأَمْنه ، وليُثري جوانب الخير فيه .
ثم يُوسّع القرآن الكريم دائرة القرابة القريبة وهي « الوالدان » إلى دائرة أوسع منها ، فبعد أنْ حنَّنه على والديه لفتَ نظره إلى ما يتصل بهما من قرابة ، فقال تعالى : { وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ والمسكين وابن السبيل وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } .

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26)

الحق سبحانه بعد أنْ حنَّن الإنسان على والديْه صعَّد المسألة فحنَّنه على قرابة أبيه وقرابة أمه ، فقال : { وَآتِ ذَا القربى حَقَّهُ . . } [الإسراء : 26]
{ حَقَّهُ } لأن الله تعالى جعله حَقّاً للأقارب إنْ كانوا في حاجة ، وإلا فلو كانا غير محتاجين ، فالعطاء بينهما هدية متبادلة ، فكل قريب يُهادي أقرباءه ويهادونه . والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُشيعَ في المجتمع روح التكافل الاجتماعي .
لذلك كان بعض فقهاء الأندلس إذا منع الرجل زَكاةً تقرُب من النِّصاب أمر بقطع يده ، كأنه سرقه؛ لأن الله تعالى أسماه (حقاً) فَمَن منع صاحب الحق من حقه ، فكأنه سرقه منه .
وقد سلك فقهاء الأندلس هذا المسلك ، لأنهم في بلاد ترف وغنى ، فتشدّدوا في هذه المسألة؛ لأنه لا عُذْر لأحد فيها .
لذلك ، لما جاء أحد خلفائهم إلى المنذر بن سعيد ، وقال : لقد حُلفت يميناً ، وأرى أن أُكفِّر

عنه فأفتاه بأن يصوم ثلاثة أيام ، فقال أحدهم : لقد ضيّقتَ واسعاً فقد شرع الله للكفارة أيضاً إطعامَ عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فرد عليه المنذر قائلاً : أو مثلُ أمير المؤمنين يُزْجَر بإطعام عشرة مساكين أو كسوتهم؟ إنه يفعل ذلك في اليوم لألْف وأكثر ، وإنما يزجره الصوم ، وهكذا أخذوا الحكم بالروح لا بالنص؛ ليتناسب مع مقدرة الخليفة ، ويُؤثّر في رَدْعه وزَجْره .

وكلمة (حق) وردت في القرآن على معنيين :

الأول : في قوله تعالى : { والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ } [المعارج : 24]

والحق المعلوم هو الزكاة .

أما الحق الآخر فحقٌّ غير معلوم وغير موصوف ، وهو التطوع والإحسان ، حيث تتطوَّع لله بجنس ما فرضه عليك ، كما قال تعالى : { إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم } [الذاريات : 16-19]

ولم يقل : « معلوم » : لأنه إحسان وزيادة عَمَّا فرضه الله علينا .

ويجب على من يُؤْتِى هذا الحق أن يكون سعيداً به ، وأن يعتبره مَغْنماً لا مَغْرماً؛ لأن الدنيا كما نعلم أغيار تتحول وتتقلب بأهلها ، فالصحيح قد يصير سقيماً ، والغني قد يصير فقيراً وهكذا ، فإعطاؤك اليوم ضمانٌ لك في المستقبل ، وضمان لأولادك من بعدك ، والحق الذي تعطيه اليوم هو نفسه الذي قد تحتاجه غداً ، إنْ دارتْ عليك الدائرة .

إذن : فالحق الذي تدفعه اليوم لأصحابه تأمين لك في المستقبل يجعلك تجابه الحياة بقوة ، وتجابه الحياة بغير خور وبغير ضعف ، وتعلم أن حقك محفوظ في المجتمع ، وكذلك إنْ تركتَ أولادك في عوزٍ وحاجة ، فالمجتمع مُتكفِّل بهم .

وصدق الله تعالى حين قال : { وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ الله وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً } [النساء : 9]

ولذلك ، فالناس أصحاب الارتقاء والإثراء لورعهم لا يعطون الأقارب من أموال الزكاة ، بل يخصُّون بها الفقراء الأباعد عنهم ، ويُعْطون الأقارب من مالهم الخاص مساعدة وإحساناً .

و { المسكين } هو الذي يملك وله مال ، لكن لا يكفيه ، بدليل قوله الحق سبحانه : { أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر . . } [الكهف : 79]

أما الفقير فهو الذي لا يملك شيئاً ، وقد يعكس البعض في تعريف المسكين والفقير ، وهذا فهم خاطئ .

و { وابن السبيل . . } [الإسراء : 26]

السبيل هو الطريق ، والإنسان عادةً يُنْسَب إلى بلده ، فنقول : ابن القاهرة ، ابن بورسعيد ، فإنْ كان منقطعاً في الطريق وطرأتْ عليه من الظروف ما أحوجه للعون والمساعدة ، وإن كان في الحقيقة صاحب يسارٍ وَغِنىً ، كأن يُضيع ماله فله حَقٌّ في مال المسلمين بقدر ما يُوصّله إلى بلده .

وابن السبيل إذا طلب المساعدة لا تسأله عن حقيقة حاله ، لأن له حقاً واجباً فلا تجعله في وضع مذلّة أو حرج .

{ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً } [الإسراء : 26]

كما قال تعالى في آية أخرى : { وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تسرفوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ المسرفين } [الأنعام : 141]

فالتبذير هو الإسراف ، مأخوذ من البذر ، وهو عملية يقوم بها الفلاح فيأخذ البذور التي يريد زراعتها ، وينثرها بيده في أرضه ، فإذا كان متقناً لهذه العملية تجده يبذر البذور بنسب متساوية ، بحيث يوزع البذور على المساحة المراد زراعتها ، وتكون المسافة بين البذور متساوية .

وبذلك يفلح الزرع ويعطي المحصول المرجو منه ، أما إنْ بذرَ البذور بطريقة عشوائية وبدون نظام نجد البذور على مسافات غير متناسبة ، فهي كثيرة في مكان ، وقليلة في مكان آخر ، وهذا ما نُسمّيه تبذيراً ، لأنه يضع الحبوب في موضع غير مناسب؛ فهي قليلة في مكان مزدحمة في آخر فَيُعاق نموّها .

لذلك ، فالحق سبحانه آثر التعبير عن الإسراف بلفظ (التبذير) ؛ لأنه يضيع المال في غير موضعه المناسب ، وينفق هكذا كلما اتفق دون نظام ، فقد يعطي بسخاء في غير ما يلزم ، في حين يمسك في الشيء الضروري .

إذن : التبذير : صَرْف المال في غير حِلّه ، أو في غير حاجة ، أو ضرورة .

والنهي عن التبذير هنا قد يُراد منه النهي عن التبذير في الإيتاء ، يعني حينما تعطي حَقّ الزكاة ، فلا تأخذك الأريحية الإيمانية فتعطي أكثر مما يجب عليك ، وربما سمعتَ ثناء الناس وشكرهم فتزيد في عطائك ، ثم بعد ذلك وبعد أن تخلوَ إلى نفسك ربما ندمتَ على ما فعلتَ ، ولُمْتَ نفسك على هذا الإسراف .

وقد يكون المعنى : أعْطِ ذا القربى والمساكين وابن السبيل ، ولكن لا تُبذِّر في الأمور الأخرى ، فالنهي هنا لا يعود إلى الإيتاء ، بل إلى الأمور التافهة التي يُنفَق فيها المال في غير ضرورة .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين . . . } .

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)

كلمة (أخ) تُجمع على إخْوة وإخْوان . .

وإخوة : تدلّ على أُخوّة النسب ، كما في قوله تعالى : { وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ . . } [يوسف : 58]

وتدل أيضاً على أخوة الخير والورع والتقوى ، كما في قوله تعالى : { إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ . . } [الحجرات : 10]

ومنها قوله تعالى عن السيدة مريم : { ياأخت هَارُونَ . . } [مريم : 28]

والمقصود : هارون أخو موسى عليهما السلام وبينهما زمن طويل يقارب أحد عشر جيلاً ، ومع ذلك سماهما القرآن إخوة أي أخوّة الورع والتقوى .

أما : إخوان : فتدل على أن قوماً اجتمعوا على مبدأ واحد ، خيراً كان أو شراً ، فتدلّ على الاجتماع في الخير ، كما في قوله تعالى : { واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً } [آل عمران : 103]

وقد تدل على الاجتماع في الشر ، كما في قوله تعالى : { إِنَّ المبذرين كانوا إِخْوَانَ الشياطين } [الإسراء : 27]

فكأن المبذرين اجتمعوا مع الشياطين في هوية واحدة ، ووُدٍّ واحد ، وانتظمتهما صفات واحدة من الشر .

إذن : كلمة (إخْوَة) تدل على أُخُوّة النسب ، وقد تتسامى لتدل على أُخوّة الإيمان التي تنهار أمام قوتها كل الأواصر . ونذكر هنا ما حدث في غزوة بدر بين أخويْنِ من أسرة واحدة هما « مصعب بن عمير » بعد أن آمن وهاجر إلى المدينة وخرج مع جيش المسلمين إلى بدر وأخوه « أبو عزيز » وكان ما يزال كافراً ، وخرج مع جيش الكفار من مكة ، والتقى الأخوان : المؤمن والكافر . « ومعلوم أن » مصعب بن عمير « كان من أغنى أغنياء مكة ، وكان لا يرتدي إلا أفخر الثياب وألينها ، ويتعطر بأثمن العطور حتى كانوا يسمونه مُدلَّل مكة ، ثم بعد أنْ آمنَ تغيّر حاله وآثر الإيمان بالله على كل هذا الغنى والنعيم ، ثم بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ليعلّم الناس أمور دينهم ، وفي غزوة أحد رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتدي جلد شاة ، فقال : » انظروا ما فعل الإيمان بأخيكم « » .

فماذا حدث بين الأخويْنِ المؤمن والكافر؟ وأيّ الصلات كانت أقوى : صلة الإيمان بالله ، أم صلة النسب؟

لما دارتْ المعركة نظر مصعب ، فإذا بأخيه وقد أَسَرَهُ أحد المسلمين اسمه « أبو اليَسرَ » فالتفتَ إليه . وقال : يا أبا اليَسَر أشدد على أسيرك ، فأُمّه غنية ، وسوف تفديه بمال كثير .

فنظر إليه « أبو عزيز » وقال : يا مصعب ، أهذه وصاتك بأخيك ، فقال له مصعب : هذا أخي دونك .

فأخوة الدين والإيمان أقوى وأمتن من أخوة النسب ، وصدق الله تعالى حين قال : { إِنَّمَا المؤمنون إِخْوَةٌ . . } [الحجرات : 10] قوله : { إِخْوَانَ الشياطين . . } [الإسراء : 27]

أي : أن الحق تبارك وتعالى جعلهما شريكين في صفة واحدة هي التبذير والإسراف ، فإنْ كان المبذّر قد أسرف في الإنفاق ووَضْع المال في غير حِلّه وفي غير ضرورة . فإن الشيطانَ أسرف في المعصية ، فلم يكتفِ بأن يكون عاصياً في ذاته ، بل عدّى المعصية إلى غيره وأغوى بها وزيّنها؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بقوله : { وَكَانَ الشيطان لِرَبِّهِ كَفُوراً } [الإسراء : 27]

ليس كافراً فحسب ، بل (كفور) وهي صيغة مبالغة من الكفر؛ لأنه كَفر وعمل على تكفير غيره .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا . . . } .

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (28)

ولنا أنْ نسأل : عَمَّنْ يكون الإعراض؟ فقد سبق الحديث عن الوالدين والأقارب والمسكين وابن السبيل ، والإعراض عن هؤلاء لا يتناسب مع سياق الآية لأنه إعراض عن طاعة الله ، بدليل قوله : { ابتغآء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا . . } [الإسراء : 28]

فالله تعالى في ذهنك ، وتبتغي من وراء هذا الإعراض رحمة الله ورزقه وسِعَته . إذن : الإعراض هنا ليس معصية أو مخالفة . فماذا إذن الغرض من الإعراض هنا؟

نقول : قد يأتيك قريب أو مسكين أو عابر سبيل ويسألك حاجة وأنت لا تملكها في هذا الوقت فتخجل أنْ تواجهه بالمنع ، وتستحي منه ، فما يكون منك إلا أنْ تتوجه إلى ربّك عز وجل وتطلب منه ما يسدُّ حاجتك وحاجة سائلك ، وأن يجعل لك من هذا الموقف مَخْرجاً .

فالمعنى : إما تُعرضنّ عنهم خجلاً وحياءً أنْ تواجههم ، وليس عندك ما يسدُّ حاجتهم ، وأنت في هذا الحال تلجأ إلى الله أنْ يرحمك رحمةً تسعك وتسعهم .

وقوله تعالى : { فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً } [الإسراء : 28]

كما قال في موضع آخر في مثل هذا الموقف : { قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى . . } [البقرة : 263]

فحتى في حال المنع يجب على المسلم أن يلتزم الأدب ، ولا يجرح مشاعر السائل ، وأنْ يردّه بلين ورِفْق ، وأنْ يُظهر له الحياء والخجل ، وألاّ يتكبر أو يتعالى عليه ، وأن يتذكر نعمة الله عليه بأنْ جعله مسئولاً لا سائلاً .

إذن : فالعبارات والأعمال الصالحة في مثل هذا الموقف لا يكفي فيها أن تقول : ما عندي ، فقد يتهمك السائل بالتعالي عليه ، أو بعدم الاهتمام به ، والاستغناء عنه ، وهنا يأتي دور الارتقاءات الإيمانية والأريحية للنفس البشرية التي تسمو بصاحبها إلى أعلى المراتب .

وتأمل هذا الارتقاء الإيماني في قوله تعالى عن أصحاب الأعذار في الجهاد : { وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ } [التوبة : 92]

هذه حكاية بعض الصحابة الذين أتوا رسول الله ليخرجوا معه إلى الجهاد ، ويضعوا أنفسهم تحت أمره وتصرّفه ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذر لهم ، فليس لديه من الركائب ما يحملهم عليه إلى الجهاد .

فماذا كان من هؤلاء النفر المؤمنين؟ هل انصرفوا ولسان حالهم يقول : لقد فعلنا ما علينا ويفرحون بما انتهوا إليه؟ لا ، بل : { تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ } [التوبة : 92]

وهكذا يرتقي الإيمان بأهله ، ويسمو بأصحابه ، فإذا لم يقدروا على الأعمال النزوعية ، فالأعمال القولية ، فإذا لم يقدروا على هذه أيضاً فلا أقلّ من الانفعال العاطفي المعبّر عن حقيقة الإيمان الذي يفيض دمع الحزْن لضيق ذات اليد .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً } .

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (29)

تحدّث الحق سبحانه وتعالى في آية سابقة عن المبذّرين ، وحذّرنا من هذه الصفة ، وفي هذه الآية يقيم الحق سبحانه موازنة اقتصادية تحفظ للإنسان سلامة حركته في الحياة .

فقوله تعالى : { وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ . . } [الإسراء : 29]

واليد عادة تُستخدم في المنْح والعطاء ، نقول : لفلان يد عندي ، وله عليَّ أيادٍ لا تُعَد ، أي : أن نعمه عليَّ كثيرة؛ لأنها عادة تُؤدّي باليد ، فقال : لا تجعل يدك التي بها العطاء (مَغْلُولَة) أي : مربوطة إلى عنقك ، وحين تُقيّد اليد إلى العنق لا تستطيع الإنفاق ، فهي هنا كناية عن البُخْل والإمساك .

وفي المقابل : { وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البسط . . } [الإسراء : 29]

فالنهي هنا عن كل البَسْط ، إذن : فيُباح بعض البسْط ، وهو الإنفاق في حدود الحاجة والضرورة . وبَسْط اليد كناية عن البَذْل والعطاء ، وهكذا يلتقي هذا المعنى بمعنى كل من بذَر ومعنى بذَّر الذي سبق الحديث عنه .

فبذّر : أخذ حفنة من الحبِّ ، وبَسَط بها يده مرة واحدة ، فأحدثتْ كومةً من النبات الذي يأكل بعضه بعضاً ، وهذا هو التبذير المنهيّ عنه ، أما الآخر صاحب الخبرة في عملية البذْر فيأخذ حفنة الحبِّ ، ويقبض عليها بعض الشيء بالقدر الذي يسمح بتفلّت حبات التقاوي واحدة بعد

الأخرى ، وعلى مسافات متقاربة ومتساوية أي [بَذَرَ] .
وهذا هو حدّ الاعتدال المرغوب فيه من الشرع الحكيم ، وهو الوسط ، وكلا طرفيه مذموم .
وقد أتى هذا المعنى أيضاً في قول الحق سبحانه وتعالى : { والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [الفرقان : 67]
أي : اعتدال وتوسُّط .
إذن : لا تبسط يدك كل البَسْط فتنفق كل ما لديْك ، ولكن بعض البَسْط الذي يُبقِي لك سيئاً تدخره ، وتتمكن من خلاله أنْ ترتقيَ بحياتك .
وقد سبق أنْ أوضحنا الحكمة من هذا الاعتدال في الإنفاق ، وقلنا : إن الإنفاق المتوازن يُثري حركة الحياة ، ويُسهم في إنمائها ورُقيّها ، على خلاف القَبْض والإمساك ، فإنه يُعرقِل حركة الحياة ، وينتج عنه عطالة وبطالة وركود في الأسواق وكساد يفسد الحياة ، ويعرق حركتها .
إذن : لا بُدَّ من الإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة ، ولا بُد أن يكون الإنفاق معتدلاً حتى تُبقِي على شيء من دَخْلك ، تستطيع أن ترتقي به ، وترفع من مستواك المادي في دنيا الناس .
فالمبذر والمسْرف تجده في مكانه ، لا يتقدم في الحياة خطوة واحدة ، كيف وهو لا يُبقِي على شيء؟ وبهذا التوجيه الإلهي الحكيم نضمن سلامة الحركة في الحياة ، ونُوفِّر الارتقاء الاجتماعي والارتقاء الفردي .
ثم تأتي النتيجة الطبيعية للإسراف والتبذير : { فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً } [الإسراء : 29]
وسبق أنْ أوضحنا أن وَضْع القعود يدلّ على عدم القدرة على القيام ومواجهة الحياة ، وهو وَضْع يناسب مَنْ أسرف حتى لم يَعُدْ لديه شيء .

وكلمة { فَتَقْعُدَ } تفيد انتقاص حركة الحياة؛ لأن حركة الحياة تنشأ من القيام عليها والحركة فيها؛ لذلك قال تعالى : { لاَّ يَسْتَوِي القاعدون مِنَ المؤمنين غَيْرُ أُوْلِي الضرر والمجاهدون فِي سَبِيلِ الله . . } [النساء : 95]
{ مَلُوماً } أي : أتى بفعل يُلاَم عليه ، ويُؤنَّب من أجله ، وأول مَنْ يلوم المسرفَ أولادهُ وأهلُه ، وكذلك الممسِك البخيل ، فكلاهما مَلُوم لتصرُّفه غير المتزن .
{ مَّحْسُوراً } أي : نادماً على ما صِرْتَ فيه من العدم والفاقة ، أو من قولهم : بعير محسور . أي : لا يستطيع القيام بحمله . وهكذا المسرف لا يستطيع الارتقاء بحياته أو القيام بأعبائها وطموحاتها المستقبل له ولأولاده من بعده .
فإنْ قبضتَ كل القَبْض فأنت مَلُوم ، وإنْ بسطتَ كُلَّ البسْط فتقعد محسوراً عن طموحات الحياة التي لا تَقْوى عليها .
إذن : فكلا الطرفين مذموم ، ويترتب عليه سوء لا تُحمد عُقْباه في حياة الفرد والمجتمع . إذن :

فما القصد؟

القصد أن يسير الإنسان قواماً بين الإسراف والتقتير ، كما قال تعالى : { والذين إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً } [الفرقان : 67]

فالقرآن يضع لنا دستوراً حاسماً وَسَطاً ينظّم الحركة الاقتصادية في حياة المجتمع ، فابْسُط يدك بالإنفاق لكي تساهم في سَيْر عجلة الحياة وتنشيط البيع والشراء ، لكن ليس كل البسط ، بل تُبقِي من دخلك على شيء لتحقق طموحاتك في الحياة ، وكذلك لا تمسك وتُقتّر على نفسك وأولادك فيلومونك ويكرهون البقاء معك ، وتكون عضواً خاملاً في مجتمعك ، لا تتفاعل معه ، ولا تُسهم في إثراء حركته .

والحق سبحانه وتعالى وهو صاحب الخزائن التي لا تنفذ ، وهو القائل : { مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ الله بَاقٍ . . } [النحل : 96]

ولو أعطى سبحانه جميع خَلْقه كُلّ ما يريدون ما نقص ذلك من مُلْكه سبحانه ، كما قال في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيّكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم ، وإنسكم وجنكم ، اجتمعوا في صعيد واحد ، فسألني كُلٌّ مسألته فأعطيتها له ما نقص ذلك مما عندي إلا كمغرز إبرة أحدكم إذا غمسه في البحر ، ذلك أَنِّي جَوَاد واجد ماجد ، عطائي كلام وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون » .

ثم يقول الحق سبحانه : { إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرزق لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } .

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (30)

الله الذي لا تنفد خزائنه يعطي خلْقه بقدَرٍ ، فلا يبسط لهم الرزق كل البَسْط ، ولا يقبضه عنهم كُلَّ القَبْض ، بل يبسط على قوم ، ويقبض على آخرين لتسير حركة الحياة؛ لأنه سبحانه لو بسط الرزق ووسَّعه على جميع الناس لاستغنى الناس عن الناس ، وحدثت بينهم مقاطعة تُفسد عليهم حياتهم .

إنما حركة الحياة تتطلب أنْ يحتاج صاحب المال إلى عمل ، وصاحب العمل إلى مال ، فتلتقي حاجات الناس بعضهم لبعض ، وبذلك يتكامل الناس ، ويشعر كل عضو في المجتمع بأهميته ودوره في الحياة .

وسبق أن ذكرنا أن الحق سبحانه لم يجعل إنساناً مَجْمعاً للمواهب ، بل المواهب مُوزَّعة بين الخَلْق جميعهم ، فأنت صاحب موهبة في مجال ، وأنا صاحب موهبة في مجال آخر وهكذا ، ليظل الناس يحتاج بعضهم لبعض .

فالغني صاحب المال الذي ربما تعالى بماله وتكبَّر به على الناس يُحوِجه الله لأقل المهن التي

يستنكف أن يصنعها ، ولا بُدّ له منها لكي يزاول حركة الحياة .
والحق سبحانه لا يريد في حركة الحياة أن يتفضّل الناس على الناس ، بل لا بُدَّ أن ترتبط مصالح الناس عند الناس بحاجة بعضهم لبعض .
فإذا كان الحق تبارك وتعالى لا يبسط لعباده كل البَسْط ، ولا يقبض عنهم كل القَبْض ، بل يقبض ويبسط ، فوراء ذلك حكمة لله تعالى بالغة؛ لذلك ارتضى هذا الاعتدال منهجاً لعباده ينظم حياتهم ، وعلى العبد أن يرضى بما قُسِم له في الحالتين ، وأن يسير في حركة حياته سَيْراً يناسب ما قدَّره الله له من الرزق .
يقول تعالى : { وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ آتَاهُ الله . . } [الطلاق : 7]
أي : مَنْ ضُيّق عليه الرزق فلينفق على قَدْره ، ولا يتطلع إلى ما هو فوق قدرته وإمكاناته ، وهذه نظرية اقتصادية تضمن للإنسان الراحة في الدنيا ، وتوفر له سلامة العيش .
ورحم الله امرءاً عرف قَدْر نفسه؛ لأن الذي يُتْعِب الناس في الحياة ويُشقيهم أن ترى الفقير الذي ضُيِّق عليه في الرزق يريد أنْ يعيشَ عيشة الموسَّع عليه رزقه ، ويتطلّع إلى ما فضّل الله به غيره عليه .
فلو تصورنا مثلاً زميلين في عمل واحد يتقاضيان نفس الراتب :
الأول : غنيٌّ وفي سَعَةٍ من العيش قد يأخذ من أبيه فوق راتبه .
والآخر : فقير ربما يساعد أباه في نفقات الأسرة .
فإذا دخلا محلاً لشراء شيء ما ، فعلى الفقير ألاَّ ينظر إلى وَضْعه الوظيفي ، بل إلى وضعه ومستواه المادي ، فيشتري بما يتناسب معه ، ولا يطمع أن يكون مثل زميله؛ لأن لكل منهما قدرةً وإمكانية يجب ألاَّ يخرج عنها .
هذه هي النظرية الاقتصادية الدقيقة ، والتصرُّف الإيماني المتزن؛ لذلك فالذي يحترم قضاء الله ويَرْضَى بما قَسَمه له ويعيش في نطاقه غير متمرد عليه ، يقول له الحق سبحانه : لقد رضيت بقدري فيك فسوف أرفعك إلى قدري عندك ، ثم يعطيه ويُوسِّع عليه بعد الضيق .

وهذا مُشَاهَد لنا في الحياة ، والأمثلة عليه واضحة ، فكم من أُناس كانوا في فقر وضيق عيش ، فلما رَضُوا بما قَسَمه الله ارتقتْ حياتهم وتبدّل حالهم إلى سَعَة وتَرَف .
فالحق سبحانه يبسط الرزق لِمَنْ يشاء ويقدر؛ لأنه سبحانه يريد أن يضع الإنسانُ نفسه دائماً في مقام الخلافة في الأرض ، ولا ينسى هذه الحقيقة ، فيظن أنه أصيل فيها .
والخيبة كل الخيبة أن ينسى الإنسان أنه خليفة لله في الأرض ، ويسير في حركة الحياة على أنه أصيل في الكون ، فأنت فقط خليفة لمن استخلفك ، مَمْدود مِمَّنْ أمدّك ، فإياك أنْ تغتر ، وإياك أنْ تعيش في مستوى فوق المستوى الذي قدّره الله لك .

فإن اعتبرتَ نفسك أصيلاً ضَلَّ الكون كله؛ لأن الله تعالى جعل الدنيا أغياراً وجعلها دُوَلاً ، فالذي وُسِّع عليه اليوم قد يُضيَّق عليه غداً ، والذي ضُيِّق عليه اليوم قد يُوسَّع عليه غداً .

وهذه سُنة من سُنَنَ الله في خَلْقه لِيَدكّ في الإنسان غرور الاستغناء عن الله .

فلو متَّع الله الإنسانَ بالغنى دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب ارزقني ، ولو متَّعة بالصحة دائماً لما استمتع الكون بلذة : يا رب اشفني . لذلك يظل الإنسان موصولاً بالمنعِم سبحانه محتاجاً إليه داعياً إياه .

وقد قال تعالى : { كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى } [العلق : 6-7]

فالحاجة هي التي تربط الإنسان بربه ، وتُوصله به سبحانه .

فالبَسْط والتضييق من الله تعالى له حكمة ، فلا يبسط لهم الرزق كل البسط ، فيعطيهم كُلَّ ما يريدون ، ولا يقبض عنهم كل القبض فيحرمهم ويُريهم ما يكرهون ، بل يعطي بحساب وبقدر؛ لتستقيم حركة الحياة ، كما قال تعالى في آية أخرى : { وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ . . } [الشورى : 27]

وقوله تعالى : { إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً } [الإسراء : 30]

لأن الحق سبحانه لو لم يوزع الرزق هذا التوزيع الحكيم لاختلَّ ميزان العالم ، فَمنْ بُسِط له يستغني عن غيره فيما بُسِط له فيه ، ومَنْ ضُيِق عليه يتمرد على الكون ويحقد على الناس ، ويحسدهم ويعاديهم .

إنما إذا علم الجميع أن هذا بقدر الله وحكمته فسوف يظل الكون المخلوق موصولاً بالمُكوِّن الخالق سبحانه .

وفي قوله : { إِنَّ رَبَّكَ . . } [الإسراء : 30]

ملمح لطيف : أي ربك يا محمد وأنت أكرم الخلق عليه ، ومع ذلك بَسَط لك حتى صِرْت تعطي عطاء مَنْ لا يخشى الفقر ، وقبض عنك حتى تربط الحجر على بطنك من الجوع .

فإن كانت هذه حاله صلى الله عليه وسلم فلا يستنكف أحد منا إنْ ضيّق الله عليه الرزق ، ومَنْ منّا ربط الحجر على بطنه من الجوع؟!

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن فرع من فروع الحياة وهو المال ، ورسم لنا المنهج الذي تستقيم الحياة به ويسير الإنسان به سيراً يُحقّق له العيش الكريم والحياة السعيدة ، ويضمن له الارتقاءات والطموحات التي يتطلع إليها .

أراد سبحانه أن يُحدّثنا عن الحياة في أصلها ، فأمر باستبقاء النسل ، ونهى عن قتله فقال تعالى : { وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . . } .

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (31)

وواضحٌ الصلة بين هذه الآية وسابقتها؛ لأن الكلام هنا ما يزال في الرزق ، والخالق سبحانه يُحذِّرنا : إياكم أنْ تُدخِلوا مسألة الرزق في حسابكم؛ لأنكم لم تخلقوا أنفسكم ، ولم تخلقوا أولادكم ولا ذريتكم .

بل الخالق سبحانه هو الذي خلقكم وخلقهم ، وهو الذي استدعاكم واستدعاهم إلى الوجود ، وما دام هو سبحانه الذي خلق ، وهو الذي استدعى إلى الوجود فهو المتكفّل برزق الجميع ، فإياك أنْ تتعدَّى اختصاصك ، وتُدخِل أنفك في هذه المسألة ، وخاصة إذا كانت تتعلق بالأولاد .

وقوله تعالى : { وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ . . } [الإسراء : 31]

القتل : إزهاق الحياة ، وكذلك الموت . ولكن بينهما فَرْق يجب ملاحظته :

فالقتل : إزهاق الحياة بنَقْض البِنْية؛ لأن الإنسان يتكوّن من بنية بناها الخالق سبحانه وتعالى ، وهي أجهزة الجسم ، ثم يعطيها الروح فتنشأ فيها الحياة .

فإذا ضرب إنسانٌ إنساناً آخر على رأسه مثلاً ، فقد يتلف مخه فتنتهي حياته ، لكن تنتهي بنقْض البنية التي بها الحياة ، لأن الروح لا تبقى إلا في جسم له مواصفات خاصة ، فإذا ما تغيرت هذه الصفات فارقتْه الروح .

أما الموت : فيبدأ بمفارقة الروح للجسد ، ثم تُنقَض بنيته بعد ذلك . وتتلَفُ أعضاؤه ، فالموت يتم في سلامة الأعضاء .

وما أشبه هذه المسألة بلمبة الكهرباء التي لا تُضيء ، إلا إذا توافرتْ لها مواصفات خاصة : من مُولّد أو مصدر للكهرباء ، وسلك مُوصلً ولمبة كهرباء ، فإذا كُسرَتْ هذه اللمبة يذهب النور ، لماذا؟

لأنك نقضتَ شيئاً أساسياً في عملية الإنارة هذه . وكذلك إذا صَوَّب واحد رصاصة مثلاً في قلب الآخر فإنه يموت وتفارقه الروح؛ لأنك نقضْتَ عنصراً أساسياً من بنية الإنسان ، ولا تستمر الروح في جسده بدونها .

لذلك ليس في الشرع عقوبة على الموت ونقصد به هنا الموت الطبيعي الذي يبدأ بخروج الروح من الجسد لكن توجد عقوبة على القتل ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ملعون من هدم بنيان الله » .

لأن حياة كل منا هي بناء أقامه الخالق تبارك وتعالى ، وهو مِلْك لخالقه لا يجوز حتى لصاحبه أن ينقضه ، وإلا فلماذا حرَّم الإسلامُ الانتحار ، وجعله كفراً بالله؟!

إذن : المنهي عنه في الآية القتل؛ لأنه من عمل البشر ، وليس الموت . وقد أوضح القرآن الكريم هذه المسألة في قوله تعالى : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل أَفإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أَعْقَابِكُمْ } [آل عمران : 144]

فالقتل غير الموت ، القتل اعتداء على بِنْية إنسان آخر وهَدْم لها . وقوله تعالى : { أَوْلادَكُمْ . . } [الإسراء : 31]

الأولاد تُطلق على الذكَر والأنثى ، ولكن المشهور في استقصاء التاريخ أنهم كانوا يَئدون البنات خاصة دون الذكور ، وفي القرآن الكريم : { وَإِذَا الموءودة سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ } [التكوير : 8-9]

لأنهم في هذه العصور كانوا يعتبرون الذكور عَوْناً وعُدّةً في مُعْترك الحياة ، وما يملؤها من هجمات بعضهم على بعض ، كما يَرَوْن فيهم العِزْوة والامتداد .

في حين يعتبرون البنات مصدراً للعار ، خاصة في ظِلّ الفقر والعَوَزِ والحاجة ، فلربما يستميل البنت ذو غِنىً إلى شيء من المكروه في عِرْضها ، وبهذا الفهم يؤول المعنى إلى الرزق أيضاً .

وقوله : { خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . } [الإسراء : 31]

أي : خَوْفاً من الفقر ، والإملاق : مأخوذة من مَلَق وتملّق ، وكلها تعود إلى الافتقار؛ لأن الإنسان لا يتملَّق إنساناً إلا إذا كان فقيراً لما عنده محتاجاً إليه ، فيتملَّقه ليأخذ منه حاجته .

وقوله : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . } [الإسراء : 31]

وفي هذه الآية مَلْمح لطيف يجب التنّبه إليه وفَهْمه لنتمكن من الردِّ على أعداء القرآن الذين يتهمونه بالتناقض .

الحق سبحانه وتعالى يقول هنا : { خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . } [الإسراء : 31]

أي : خَوْفاً من الفقر ، فالفقر إذن لم يَأْتِ بعد ، بل هو مُحْتمل الحدوث في مستقبل الأيام ، فالرزق موجود وميسور ، فالذي يقتل أولاده في هذه الحالة غير مشغول برزقه ، بل مشغول برزق أولاده في المستقبل؛ لذلك جاء الترتيب هكذا : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ . . } [الإسراء : 31]

أولاً : لأن المولود يُولَد ويُولَد معه رزقه ، فلا تنشغلوا بهذه المسألة؛ لأنها ليستْ من اختصاصكم .

ثم : { وَإِيَّاكُم . . } [الإسراء : 31]

أي : أن رِزْق هؤلاء الأبناء مُقدَّم على رزقكم أنتم ، ويمكن أن يُفْهَم المعنى على أنه : لا تقتلوا أولادكم خَوْفاً من الفقر ، فنحن نرزقكم من خلالهم ، ومن أجلهم .

ونهتمّ بتوضيح هذه المسألة؛ لأن أعداء الدين الذين يُنقِّبون في القرآن عن مَأْخذ يرَوْنَ تعارضاً أو تكراراً بين هذه الآية التي معنا وبين آية أخرى تقول : { وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . } [الأنعام : 151]

ونقول لهؤلاء : لقد استقبلتم الأسلوب القرآني بغير المَلَكة العربية في فَهْمه ، فأسلوب القرآن ليس صناعة جامدة ، بل هو أسلوب بليغ يحتاج في فَهْمه وتدبُّره إلى ذَوْق وحِسّ لُغويّ .

وإذا استقبلتم كلام الله استقبالاً سليماً فلن تجدوا فيه تعارضاً ولا تكراراً ، فليست الأولى أبلغَ من الثانية ، ولا الثانية أبلغَ من الأولى ، بل كل آية بليغة في موضوعها؛ لأن الآيتين وإنْ تشابهتَا في النظرة العَجْلَى لكنْ بينهما فَرْق في المعنى كبير ، فآية الإسراء تقول : { نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . } [الإسراء : 31]

وقد أوضحنا الحكمة من هذا الترتيب : نرزقهم وإياكم .

أما في آية الأنعام : { نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . } [الأنعام : 151]

فلا بُدَّ أن نلاحظَ أن للآية صدراً وعَجُزاً ، ولا يصح أن تفهم أحدهما دون الآخر ، بل لا بُدَّ أن تجمع في فَهْم الآية بين صدرها وعجزها ، وسوف يستقيم لك المعنى ويُخرجك من أي إشكال .

وما حدث من هؤلاء أنهم نظروا إلى عَجُزَيْ الآيتين ، وأغفلوا صَدريهما ، ولو كان الصدر واحداً في الآيتين لكان لهم حق فيما ذهبوا إليه ، ولكنّ صَدْري الآيتين مختلفان :

الأولى : { خَشْيَةَ إِمْلاقٍ . . } [الإسراء : 31]

والأخرى :

{ مِّنْ إمْلاَقٍ . . } [الأنعام : 151]

والفرْق واضح بين التعبيرين : فالأول : الفقر غير موجود؛ لأن الخشية من الشيء دليل أنه لم يحدث ، ولكنه مُتوقَّع في المستقبل ، وصاحبه ليس مشغولاً برزقه هو ، بل برزق مَنْ يأتي من أولاده .

أما التعبير الثاني : { مِّنْ إمْلاَقٍ . . } [الأنعام : 151]

فالفقر موجود وحاصل فعلاً ، والإنسان هنا مشغول برزقه هو لا برزق المستقبل ، فناسب هنا أنْ يُقدِّم الآباء في الرزق عن الأبناء .

وما دام الصَّدْر مختلفاً ، فلا بُدَّ أن يختلف العَجُز ، فأيْنَ التعارضُ إذن؟ وهناك مِلْحَظٌ آخر في الآية الكريمة ، وهو أن النهي مُخَاطَبٌ به الجمع : { وَلاَ تقتلوا أَوْلادَكُمْ . . } [الإسراء : 31]

فالفاعل جمع ، والمفعول به جمع ، وسبق أن قلنا : إن الجمع إذا قُوبل بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، فالمعنى : لا يقتل كل واحد منكم ولده . كما يقول المعلم للتلاميذ : أخرجوا كُتبكم ، والمقصود أنْ يُخرج كل تلميذ كتابه .

فإنْ قال قائل : إن الآية تنهي أنْ يقتلَ الأب ولده خَوْفاً من الفقر ، لكنها لا تمنع أنْ يقتل الأبُ ولد غيره مجاملةً له ، وهو الآخر يقتل ولد غيره مجاملة له .

نقول : لا . . لأن معنى الآية ألاَّ يقتل كل الآباء كل الأولاد ، فينسحب المعنى على أولادي وأولاد غيري ، وهذا هو المراد بمقابلة الجمع بالجمع . أما لو قُلْنا : إن المعنى : تجاملني وتقتل لي ابني ، وأجاملك وأقل لك ابنك ، فهذا لا يستقيم؛ لأن المقابلة هنا ليس مقابلة جمع بجمع .

وقوله تعالى : { إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً } [الإسراء : 31]

خِطْئاً مثل خطأ ، وهو الإثم والذنب العظيم . وتأتي بالكسر وبالفتح كما نقول : خُذوا حِذْركم ، وخذوا حَذرَكم .

وكلمة : { خِطْئاً . . } [الإسراء : 31]

الخاء والطاء والهمزة تدل على عدم موافقة الصواب ، لكن مرة يكون عدم موافقة الصواب لأنك لم تعرف الصواب ، ومرة أخرى لم توافق الصواب لأنك عرفتَ الصواب ، ولكنك تجاوزْتَه .

فالمعلِّم حينما يُصوِّب للتلاميذ أخطاءهم أثناء العام الدراسي نجده يُوضِّح للتلميذ ما أخطأ فيه ، ثم يُصوّب له هذا الخطأ ، وهو لم يفعل ذلك إلا بعد أن أعلمَ تلميذه بالقاعدة التي يسير عليها ، ولكن التلميذ قد يغفل عن هذه القاعدة فيقع في الخطأ .

وهنا لا مانع أنْ نُصوِّب له خَطَأَه ونُرشده؛ لأنه ما يزال في زمن الدرس والتعلُّم والترويض والتدريب .

لكن الأمر يختلف إنْ كانت هذه الأسئلة في امتحان آخر العام ، فالمعلِّم يُبيِّن الخطأ ، ولكنه لا يُصحِّحه ، بل يُقدِّره بالدرجات التي تُحسَب على التلميذ ، وتنتهي المسألة بالنجاح لِمَنْ أصاب ، وبالفشل لمن أخطأ؛ لأن آخر العام أصبح لديه قواعد مُلْزمة ، عليه أنْ يسيرَ عليها .

وكلمة (خطْئاً أو خطأ) مأخوذة من خطا خطوة ، وتعني الانتقال بالحركة ، فإذا كان الصواب هو الشيء الثابت الذي استُقِرَّ عليه وتعارف الناس عليه ، ثم تجاوزتَه وانتقلتَ عنه إلى غيره ، فهذا هو الخطأ أي : الخطوة التي جعلتك تتجاوز الصواب .

ومنه قوله تعالى :

{ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشيطان . . } [البقرة : 168]

لأنه ينقلكم عن الشيء الثابت المستقر في شريعة الله .

والشيء الثابت هنا هو أن الخالق سبحانه خلق الإنسان وكرَّمه ليكون خليفة له في الأرض ليعمرها ، ويقيم فيها بمنهج الخالق سبحانه ، فكيف يستخلفك الخالق سبحانه ، وتأتي أنت لتقطع هذا الاستخلاف بما تُحدِثه من قَتْل الأولاد ، وهم بذُور الحياة في المستقبل؟

حتى لو أخذنا بقول مَنْ ذهب إلى أن { أَوْلادَكُمْ } المراد بها البنون دون البنات ، وسَلَّمنا معه جدلاً أنك تُميت البنات ، وتُبقي على الذكور ، فما الحال إذا كَبِر هؤلاء الذكور وطلبوا الزواج؟! وكيف يستمر النسل بذكر دون أنثى؟!

إذن : هذا فَهْمٌ لا يستقيم مع الآية الكريمة ، لأن النهي هنا عن قتل الأولاد ، وهم البنون والبنات معاً .

وقد وصف الحق سبحانه الخطأ هنا بأنه كبير ، فقال : { خِطْئاً كَبِيراً } [الإسراء : 31]
ذلك لأنه خطأ من جوانب مُتعدِّدة :
أولهما : أنك بالقتل هدمتَ بنيان الله ، ولا يهدم بنيان الله إلا الله .
ثانيها : أنك قطعت سلسلة التناسل في الأرض ، وقضيتَ على الخلافة التي استخلفها الله في الأرض .
ثالثها : أنك تعديتَ على غريزة العطف والحنان؛ لأن ولدك بعض مِنْك ، وقتله يُجرِّدك من كل معاني الأُبُوة والرحمة ، بل والإنسانية .
وهكذا وضع الحق سبحانه لنا ما يضمن بقاء النسل واستمرار خلافة الإنسان لله في أرضه ، بأنْ نهى كل والد أن يقتلَ ولده ، ونهى كل الآباء أنْ يقتلوا كل الأولاد .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً } .

وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (32)

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عما يحفظ النسل ويستبقي خلافة الله في الأرض ، أراد سبحانه أن يحمي هذا النسل من الضياع ، ويوفر له الحياة الكريمة . والإنسان منّا حينما يُرزَق بالولد أو البنت يطير به فَرحاً ، ويُؤثره على نفسه ، ويُخرج اللقمة من فيه ليضعها في فم ولده ، ويسعى جاهداً ليُوفّر له رفاهية العيش ، ويُؤمِّن له المستقبل المُرْضِي ، وصدق الشاعر حين قال :
إنما أَوْلاَدُنَا أكبادُنَا ... تمشي عَلَى الأَرْضِ
إنْ هَبَّتْ الريحُ على بَعْضهِم ... امتنعَتْ عَيْني عَنِ الغُمْضِ
لكن هذا النظام التكافليّ الذي جعله الحق سبحانه عماداً تقوم عليه الحياة الأسرية سرعان ما ينهار من أساسه إذا ما دَبَّ الشكُّ إلى قلب الأب في نسبة هذا الولد إليه ، فتتحوّل حياته إلى جحيم لا يُطَاق ، وصراع داخلي مرير لا يستطيع مواجهته أو النطق به؛ لأنه طَعْن في ذاته هو .
لذلك يُحذِّرنا الحق تبارك وتعالى من هذه الجريمة النكْراء؛ ليحفظ على الناس أنسابهم ، ويطمئن كل أب إلى نسبة أبنائه إليه ، فيحنو عليهم ويرعاهم ، ويستعذب ألم الحياة ومتاعبها في سبيل راحتهم .
فيقول تعالى : { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى . . } [الإسراء : 32]
والمتأمل في آي القرآن الكريم يجد أن الحق سبحانه حينما يُكلِّمنا عن الأوامر يُذيِّل الأمر بقوله تعالى : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . } [البقرة : 229]
والحديث هنا عن أحكام الطلاق ، فقد وضع له الحق سبحانه حدوداً ، وأمرنا أن نقف عندها لا نتعداها ، فكأنه سبحانه أوصلنا إلى هذا الحد ، والممنوع أن نتعداه .
وأما في النواهي ، فيُذيلها بقوله : { تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . } [البقرة : 187]

والنهي هنا عن مباشرة النساء حال الاعتكاف ، وكأن الحق سبحانه يريد ألاّ نصلَ إلى الحدِّ المنهي عنه ، وأنْ يكون بيننا وبينه مسافة ، فقال { فَلاَ تَقْرَبُوهَا } لنظلّ على بُعْدٍ من النواهي ، وهذا احتياط واجب حتى لا نقتربَ من المحظور فنقع فيه .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

فالحق سبحانه خالق الإنسان ، وهو أعلم به لا يريد له أنْ يقتربَ من المحظور؛ لأن له بريقاً وجاذبية كثيراً ما يضعف الإنسان أمامها؛ لذلك نهاه عن مجرد الاقتراب ، وفَرْقٌ بين الفعل وقُرْبان الفعل ، فالمحرّم المحظور هنا هو الفِعْل نفسه ، فلماذا إذن حرَّم الله الاقتراب أيضاً ، وحذّر منه؟

نقول : لأن الله تعالى يريد أنْ يرحَم عواطفك في هذه المسألة بالذات ، مسألة الغريزة الجنسية ، وهي أقوى غرائز الإنسان ، فإنْ حُمْتَ حولها توشك أن تقعَ فيها ، فالابتعاد عنها وعن أسبابها أسلَمُ لك .

وحينما تكلَّم العلماء عن مظاهر الشعور والعلم قسَّموها إلى ثلاث مراحل : الإدراك ، ثم الوجدان ، ثم النزوع .

فلو فرضنا أنك تسير في بستان فرأيتَ به وردة جميلة ، فلحظة أنْ نظرتَ إليها هذا يُسمَّى « الإدراك »؛ لأنك أدركتَ وجودها بحاسة البصر ، ولم يمنعك أحد من النظر إليها والتمتُّع بجمالها .

فإذا ما أعجبتك وراقك منظرها واستقر في نفسك حُبُّها فهذا يسمى « الوجدان » أي : الانفعال الداخلي لما رأيتَ ، فإذا مددتَ يدك لتقطفها فهذا « نزوع » أي : عمل فعلي .

ففي أي مرحلة من هذه الثلاث يتحكَّم الشرع؟

الشرع يتحكم في مرحلة النزوع ، ولا يمنعك من الإدراك ، أو من الوجدان ، إلا في هذه المسألة « مسألة الغريزة الجنسية » فلا يمكن فيها فَصْل النزوع عن الوجدان ، ولا الوجدان عن الإدراك ، فهي مراحل ملتحمة ومتشابكة ، بحيث لا تقوى النفس البشرية على الفَصْل بينها .

فإذا رأى الرجل امرأة جميلة ، فإن هذه الرؤية سرعان ما تُولِّد إعجاباً وميلاً ، ثم عِشْقاً وغريزة عنيفة تدعوه أنْ تمتدَّ يده ، ويتولد النزوع الذي نخافه ، وهنا إما أنْ ينزعَ ويُلبي نداء غريزته ، فيقع المحرم ، وإما أنْ يعف ويظل يعاني مرارة الحرمان .

والخالق سبحانه أعلم بطبيعة خَلْقه ، وبما يدور ويختلج داخلهم من أحاسيس ومشاعر؛ لذلك لم يُحرِّم الزنا فحسب ، بل حرَّم كل ما يؤدي إليه بداية من النظر ، فقال تعالى : { قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ . . } [النور : 30]

لأنك لو أدركتَ لوجدتَ ، ولو وجدتَ لنزعتَ ، فإنْ أخذتَ حظَّك من النزوع أفسدتَ أعراض الناس ، وإنْ عففتَ عِشْتَ مكبوتاً تعاني عِشْقاً لن تناله ، وليس لك صبر عنه .

إذن : الأسلم لك وللمجتمع ، والأحفظ للأعراض وللحرمات أنْ تغُضَّ بصرك عن محارم الناس

فترحم أعراضهم وترحم نفسك .
لكن هذه الحقيقة كثيراً ما تغيب عن الأذهان ، فيغشّ الإنسانُ نفسه بالاختلاط المحرم ، وإذا ما سُئل ادَّعى البراءة وحُسْن النية وأخذ من صلة الزمالة إلى القرابة أو الجوار ذريعة للمخالطة والمعاشرة وهو لا يدري أنه واهم في هذا كله ، وأن خالقه سبحانه أدرى به وأعلم بحاله ، وما أمره بغضِّ بصره إلا لما يترتب عليه من مفاسد ومضار ، إما تعود على المجتمع ، أو على نفسه .
لذلك قال صلى الله عليه وسلم : « النظرة سَهْم مسموم من سهام إبليس ، مَنْ تركها من مخافتي أبدلتُه إيماناً يجد حلاوته في قلبه » .
ومن هنا نفهم مراده سبحانه من قوله : { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى . . } [الإسراء : 32]
ولم يقل : لا تزنوا . لأن لهذه الجريمة مقدمات تؤدي إليها فاحذر أنْ تجعلَ نفسك على مقربة منها؛ لأن مَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ودَعْكَ ممَّنْ يُنادون بالاختلاط والإباحية؛ لأن الباطل مهما عَلاَ ومهما كَثُر أتباعه فلن يكون حقاً في يوم من الأيام .
وأحذر ما يشيع على الألسنة من قولهم هي بنت عمه ، وهو ابن خالها ، وهما تربَّيا في بيت واحد ، إلى آخر هذه المقولات الباطلة التي لا تُغيّر من وجه الحرام شيئاً ، فطالما أن الفتاة تحل لك فلا يجوز لك الخلوة بها .

وفي الحديث النبوي : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما » .
إذن : ما حرَّم الإسلام النظر لمجرد النظر ، وما حرّم الخُلْوة في ذاتها ولكن حَرَّمهما؛ لأنهما من دوافع الزنا وأسبابه . فيقول تعالى : { وَلاَ تَقْرَبُواْ الزنى . . } [الإسراء : 32] أبلغ في التحريم وأحوط وأسلم من : لا تزنوا .
ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى في تحريم الخمر : { ياأيها الذين آمَنُواْ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [المائدة : 90]
ومع ذلك يخرج علينا مَنْ يقول : ليس في القرآن آية واحدة تحرم شرب الخمر . . سبحان الله ، فأيُّهما أبلغ وأشدّ في التحريم أن نقول لك : لا تشرب الخمر ، أم اجتنب الخمر؟
لا تشرب الخمر : نَهْي عن الشُّرْب فقط . إذن : يُبَاحُ لك شراؤها وبيعُها وصناعتها ونقلها . . الخ . أما الاجتناب فيعني : البعد عنها كُلية ، وعدم الالتقاء بها في أي مكان ، وعلى أية صورة . فالاجتناب إذن أشدّ من مجرد التحريم .
وكيف نقول بأن الاجتناب أقل من التحريم ، وقد قال تعالى في مسألة هامة من مسائل العقيدة : { والذين اجتنبوا الطاغوت أَن يَعْبُدُوهَا } [الزمر : 17]
فهل تقول في هذه : إن الاجتناب أقلّ من التحريم؟ وهل عبادة الطاغوت ليست محرمة؟!
ثم يقول تعالى : { إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً . . } [الإسراء : 32]

الفاحشة : هي الشيء الذي اشتدّ قبْحه . وقد جعل الحق سبحانه الزنا فاحشة؛ لأنه سبحانه وتعالى حينما خلق الزوجين : الذكر والأنثى ، وقدَّر أن يكون منهما التناسل والتكاثر قدَّر لهما أصولاً يلتقيان عليها ، ومظلّة لا يتم الزواج إلا تحتها ، ولم يترك هذه المسألة مشَاعاً يأتيها مَنْ يأتيها؛ ليحفظ للناس الأنساب ، ويحمي طهارة النساء ، فيطمئن كل إنسان إلى سلامة نسبه ونسب أولاده .

والمراد من الأصول التي يلتقي عليها الزوجان عقد القِران الذي يجعهما بكلمة الله وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهَبْ أن لك بنتاً بلغت سنَّ الزواج ، وعلمتَ أن شاباً ينظر إليها ، أو يحاول الاقتراب منها ، أو ما شابه ذلك ، ماذا سيكون موقفك؟ لا شكَّ أن نار الغيرة ستشتعل بداخلك ، وربما تعرَّضْتَ لهذا الشاب ، وأقمْتَ الدنيا ولم تُقعِدْها .

لكن إذا ما طرق هذا الشاب بابَك ، وتقدَّم لخطبة ابنتك فسوف تقابله بالترْحَاب وتسعد به ، وتدعو الأهل ، وتقيم الزينات والأفراح .

إذن : فما الذي حدث؟ وما الذي تغيَّر؟ وما الفرق بين الأولى والثانية؟

الفرق بينهما هو الفرق بين الحلال والحرام؛ لذلك قيل : « جدع الحلال أنف الغيرة » .

فالذي يغَارُ على بناته من لمسة الهواء تراه عند الزواج يُجَهِز ابنته ، ويُسلمها بيده إلى زوجها؛ لأنهما التقيا على كلمة الله ، هذه الكلمة المقدسة التي تفعل في النفوس الأعاجيب .

مجرد أن يقول وليُّ الزوجة : زوجتُكَ ، ويقول الزوج : وأنا قبلتُ . تنزل هذه الكلمة على القلوب بَرْداً وسلاماً ، وتُحدِث فيها انبساطاً وانشراحاً؛ لأن لهذه الكلمة المقدسة عملاً في التكوين الذاتي للإنسان ، ولها أثر في انسجام ذراته ، وفي كل قطرة من دمه .

ومن آثار كلمة الله التي يلتقي عليها الزوجان ، أنها تُحدِث سيالاً بينهما ، هو سِيَال الاستقبال الحسن ، وعدم الضَّجَر ، وعدم الغيرة والشراسة ، فيلتقيان على خير ما يكون اللقاء .

ولذلك حينما يُشرّع لنا الحق تبارك وتعالى العِدَّة ، نجد عدة المطلقة غير عِدَّة المتوفَّى عنها زوجها ، وفي هذا الاختلاف حكمة؛ لأن الحق سبحانه يعلم طبيعة النفس البشرية وما يُؤثّر فيها .

ولو كانت الحكمة من العدة مجرد استبراء الرحم لكفى شهر واحد وحَيْضة واحدة ، إنما الأمر أبعد من ذلك ، فعند المرأة اعتبارات أخرى ومازالت تحت تأثير الزواج السابق؛ لأن سيال الحال فيه التقاء الإيجاب والسلب من الرجل والمرأة ، وقد تعودتْ المرأة على الإيجاب الحلال والسلب الحلال .

فإذا طُلِّقَت المرأة فلا يحلّ لها الزواج قبل انقضاء العدة التي حددها الشرع بثلاثة أشهر ، وهي المدة التي يهدأ فيها سِيَال الحلال في نفسها ويجمد ، وبذلك تكون صالحة للالتقاء بزوج آخر .

أما في حالة المتوفّى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرة ، والحكمة من الفارق بين العِدَّتين أن المطلقة غالباً ما يكون بين الزوجين كُرْه ، هذا الكُرْه بينهما يساعد على موت السِّيال؛ لأنها بطبيعة الحال نافرة عنه غير راغبة فيه . أما المتوفَّى عنها زوجها فقد فارقها دون كُرْه ، فرغبتها فيه أشدّ؛ لذلك تحتاج إلى وقت أطول للتخلُّص من هذا السيال .

والحق سبحانه هنا يُراعِي طبيعة المرأة ومشاعرها ، وعواطف الميل والرغبة في زوجها ، ويعلم سبحانه أن هذا الميلَ وهذه الرغبة تحتاج إلى وقت ليهدأ هذه العواطف لدى المرأة ، وتستعد نفسياً للالتقاء بزوج آخر؛ لأن لقاء الزوج بزوجته مسألة لا يحدث الانسجام فيها بالتكوين العقلي ، بل الانسجام فيها بالتكوين العاطفي الغريزي الذي يعتمد بالدرجة الأولى على توافق الذرات بين الذكر والأنثى .

هذا التوافق هو الذي يُولّد ذرات موجبة ، وذرات سالبة ، فيحدث التوافق ، ويحدث الحب والعِشْق الذي يجمعهما ويمتزجان من خلاله .

وهذا كما قلنا أثر من آثار كلمة الله التي اجتمعا عليها وتحت ظلها .

وهكذا يلتقي الزوجان في راحة وهدوء نفسي ، ويسكن كل منهما للآخر؛ لأن ذراتهما انسجمت وتآلفت؛ ويفرح الأهل ويسعد الجميع ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال في وصيته بالنساء : « إنما استحللتم فروجهن بكلمة الله »

وهذه الكلمة من الله تعالى الذي خلق الإنسان ويعلم ما يُصلحه ولك أنْ تتصورَ الحال إنْ تَمَّ هذا اللقاء فيما حَرَّم الله ، وبدون هذه الكلمة وما يحدث فيه من تنافر الذرات وعدم انسجام ونكَدٍ ومرارة لا تنتهي ، ما بقيتْ فيهما أنفاس الحياة .

لذلك سمَّاه القرآن فاحشةً ، والدليل على فُحْشه أن الموصوم به يجب ألاَّ يُعرف ، وأن تظل جرائمه خِلْسة من المجتمع ، وأن الذي يقترف هذه الفاحشة يكره أن تُفعلَ في محارمه ، ويكفيها فُحْشاً أن الله تعالى سماها فاحشة ، وشرع لها حداً يُقام على مرتكبها علانية أمام أعين الجميع .

وقد عالج رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الداء ، حينما أتاه شاب يشتكي ضعفه أمام غريزته الجنسية ، ويقول له : يا رسول الله ائذن لي في الزنا ، والنبي صلى الله عليه وسلم أتى بقضايا دينيه عامة للجميع ، ولكن حين يعالج داءات المجتمع يعالج كل إنسان بما يناسبه ، وعلى حَسْب ما فيه من داءات الضعف أمام شهوات نفسه .

ويتضح لنا هذا المنهج النبوي في جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سُئِلَ كثيراً عن أفضل الأعمال ، فقال لأحدهم : « الصلاة لوقتها » .

وقال لآخر : « أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

وقال لآخر : « أن تبر أخاك » .

وهكذا تعددتْ الإجابات ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يصف مزيجاً عاماً يعطيه للجميع ، بل يعطي لكل سائل الجرعة التي تُصلِح خللاً في إيمانه ، كالطبيب الذي يهتم بعلاج مريضه ، فيُجرى له التحاليل والفحوصات اللازمة؛ ليقف على موضع المرض ويصِف العلاج المناسب .

فكيف استقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الشاب الذي جاءه يقول : يا رسول الله إني أصلي وأصوم ، وأفعل كل أوامر الدين إلا أنني لا أقدر على مقاومة هذه الغريزة؟

هل نهره واعتبره شاذاً ، وأغلق الباب في وجهه؟ لا والله ، بل اعتبره مريضاً جاء يطلب العلاج بعد أن اعترف بمرضه ، والاعتراف بالمرض أولى خطوات الشفاء والعافية .

وهذا الشاب ما جاء لرسول الله إلا وهو كاره لمرضه ، وأول ظاهرة في العافية أن تعترف بمرضك ، ولا تتكبر عليه ، فإنْ تكبَّرتَ عليه استفحلَ واستعصى على العلاج .

وقد اعتبر النبي صلى الله عليه وسلم شكوى هذا الشاب ظاهرة صحية في إيمانه؛ لأنه ما جاء يشكو إلا وهو كاره لهذه الجريمة ، ويجد لها شيئاً في نفسه ، وانظر كيف عالجه النبي صلى الله عليه وسلم : « أجلسه ، ثم قال له : » يا أخا العرب أتحب هذا لأمك؟ « فانتفض الشاب ، وتغيَّر وجهه وقال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك ، فقال : » أتحبه لأختك؟ أتحبه لزوجتك؟ أتحبه لبناتك؟ « والشاب يقول في كل مرة : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِدَاك .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : » وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لأخواتهم ولا لزوجاتهم ولا لبناتهم « ثم وضع يده الشريفة على صدر هذا الشاب ودعا له : » اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه « » .

وانصرف الشاب وهو يقول : لقد خرجتُ من عند رسول الله وليس أكرَه عندي من الزنا ، ووالله ما هممْتُ بشيء من ذلك إلا وذكرْتُ أمي وأختي وزوجتي وبناتي .

وما أشبه طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم في علاج هذا الشاب بما يفعله أهل الصيدلة ، فعندهم مصطلح يسمونه « برشمة المر » ، فإن كان الدواء مُرّاً ولا يستسيغه المريض غَلَّفوه بمادة سكرية حتى يمرَّ من منطقة التذوق ، فلا يشعر المريض بمرارته .

وقد جعل الخالق سبحانه منطقة التذوق في اللسان فحسب ، دون غيره من الأعضاء التي يمرُّ بها الطعام ، واللسان آية من آيات الله في خَلْق الإنسان ، ومظهر من مظاهر قدرته سبحانه ، حيث جعل فيه حلمات دقيقة يختصُّ كل منها بتذوُّق نوع من الطعام : فهذه للحلو ، وهذه للمر ، وهذه للحرِّيف ، وهكذا ، مع أنها مُتراصّة ومُلْتصقة بعضها ببعض .

وكما تحدث برشمة الدواء الحسيِّ المر ، كذلك يحدث في العلاجات الأدبية المعنوية ، فيُغلِّف الناصح نصيحته ليقبلها المتلقي ويتأثر بها؛ لذلك قالوا : النصح ثقيل ، فاستعيروا له خِفَّة البيان .

وقالوا : الحقائق مُرّة ، فلا ترسلوها جبلاً ، ولا تجعلوها جدلاً .
وعلى الناصح أن يراعي حال المنصوح ، وأنْ يرفقَ به ، فلا يجمع عليه قسوة الحرمان مما أَلِف مع قسوة النصيحة . وقد وضع لنا الحق سبحانه المنهج الدعوي الذي يجب أن نسير عليه في قوله تعالى : { ادع إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسنة . . } [النحل : 125]
ومن أدب النصيحة أيضاً الذي تعلَّمناه من النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون سِرَّاً ، فليس من مصلحة أحد أنْ تُذاعَ الأسرار؛ لأن لها أثراً سلبياً في حياة المجتمع كله وفي المنصوح نفسه ، فإنْ سترْتَ عليه في نصيحتك له كان أدعى إلى قبوله لما تقوله ، وقديماً قالوا : مَنْ نصح أخاه سراً فقد ستره وَزَانَه ، ومَنْ نصحه جَهْراً فقد فضحه وشَانَهُ .
ثم يقول تعالى : { وَسَآءَ سَبِيلاً } [الإسراء : 32]
والسبيل هو الطريق الموصل لغاية ، وغاية الحياة أننا مُسْتخلفون في الأرض ، خلقنا الله لعمارتها والسعي فيها بما يُسعدنا جميعاً ، ويعود علينا بالخير والصلاح ، فإذا ضَلَّ الإنسانُ وانحرف عَمّا رسمه له ربه أفسد هذه الخلافة ، وأشقى الدنيا كلها بدل أنْ يُسعدها .
وأعتقد أن ما نشاهده الآن في بيئات الانحلال والانحراف ، وما امتدَّ منهم إلى بلاد الإسلام من التفزيع والرعب يجعلنا نؤمن بأن الزنا فعلاً ساء سبيلاً ، وساء طريقاً ومسلكاً ، يقضي على سلامة المجتمع وأَمْنه وسعادته .
ويكفي أنك إذا خرجتَ من بيتك في مهمة تستلزم المبيت تأخذ جميع لوازمك وأدواتك الشخصية ، وتخاف من شبح العدوى الذي يطاردك في كل مكان ، في الحجرة التي تدخلها ، وفي السرير الذي تنام عليه ، وفي دورة المياه التي تستعملها ، الجميع في رُعْب وفي هلع ، والإيدز ينتشر انتشار النار في الهشيم ، وأصبح لا يسلَم منه حتى الأسوياء الأطهار .
وما حدث هذا الفزع إلا نتيجة لخروج الإنسان عن منهج الله خروجاً جعل هذه المسألة فوضى لا ضابطَ لها ، فأحدث الله لهم من الأمراض والبلايا بقدْر فجورهم وعصيانهم ، وما داموا لم يأتُوا بالحسنى فليأتوا راغمين مُفزَّعين .

لذلك العالم كله الآن يباشر مشروعات عِفَّة وطهارة ، لا عن إيمان بشرع الله ، ولكن عن خَوْف وهَلَع من أمراض شتَّى لا ترحم ولا تُفرِّق بين واحد وآخر .
إذن : الزنا فاحشة وساء سبيلاً ، وهاهي الأحداث والوقائع تُثبت صِدْق هذه الآية ، وتثبت أن أيّ خروج من الخَلْق عن منهج الخالق لن يكون وراءه إلا نَكَدُ الدنيا قبل أن ينتظرهم في الآخرة .
والآن وقد ضمنَّا سلامة الأعراض ، وضمنَّا طهارة النسل ، وأصبح لدينا مجتمع طاهر سليم ، يأْمَنُ فيه الإنسان على هذا الجانب ، فلا بُدَّ إذن أن نحافظَ فيه على الأرواح ، فلا يعتدي أحد على أحد ، فيقول تعالى : { وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس التي حَرَّمَ الله إِلاَّ بالحق . . . } .

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (33)

قوله تعالى : { وَلاَ تَقْتُلُواْ النفس . . } [الإسراء : 33]

كان القياس أنْ يُقابل الجمع بالجمع ، فيقول : لا تقتلوا النفوس التي حرَّم الله ، لكن الحق سبحانه وتعالى يريد أن قَتْل النفس الواحد مسئوليةُ الجميع ، لا أنْ يسأل القاتل عن النفس التي قتلها ، بل المجتمع كله مسئول عن هذه الجريمة .

{ التي حَرَّمَ الله . . } [الإسراء : 33] أي : جعلها محرّمة لا يجوز التعدي عليها؛ لأنها بنيان الله وخلْقته وصناعته ، وبنيان الله لا يهدمه أحد غيره . أو نقول : { النفس التي حَرَّمَ الله . . } [الإسراء : 33] أي : حرَّم الله قتلها .

{ إِلاَّ بالحق } [الإسراء : 33] هذا الاستثناء من الحكم السابق الذي قال : لا تقتلوا النفس التي حرم الله { إِلاَّ بالحق } أي : ولكن اقتلوها بالحق ، والحق هنا المراد به ثلاثة أشياء :

القصَاص من القاتل .

الردَّة عن الإسلام .

زِنَا المحصَن أو المحصَنة .

وهذه أسباب ثلاثة تُوجِب قَتْل الإنسان ، والقتْل هنا يكون بالحق أي : بسبب يستوجب القتل .

وقد أثار أعداء الإسلام ضَجَّة كبيرة حول هذه الحدود وغيرها ، واتهموا الإسلام بالقسوة والوحشية ، وحُجَّتهم أن هذه الحدود تتنافى وإنسانية الإنسان وآدميته ، وتتعارض مع الحرية الدينية التي يقول بها الإسلام في قوله تعالى : { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين . . } [البقرة : 256]

ففي القصاص قالوا : لقد خَسِر المجتمع واحداً بالقتل ، فكيف نُزِيد من خسارته بقتْل الآخر؟

نقول : لا بُدَّ أن نستقبلَ أحكام الله بفْهمٍ وَاع ونظرة متأمّلة ، فليس الهدف من تشريع الله للقصاص كثرة القتل ، إنما الهدف ألاّ يقع القتل ، وألاَّ تحدثَ هذه الجريمة من البداية .

فحين يُخبرك الحق سبحانه أنك إنْ قتلتَ فسوف تُقتَل ، فهو يحمي حياتك وحياة الآخرين .

وليس لدى الإنسان أغلى من حياته ، حتى القاتل لم يقتل إلا لأنه يحب الحياة ، وقتل من أجلها مَنْ قتل؛ لأنه ربما خدش عِزَّته أو كرامته ، وربما لأنه عدو له أقوى منه .

ولا شكَّ أن حياته أغلى من هذا كله ، فحين نقول له : إنْ قتلتَ ستُقتل ، فنحن نمنعه أنْ يُقدِم على هذه الجريمة ، ونُلوّح له بأقسى ما يمكن من العقوبة . ولذلك قالوا : القتْلُ أنْفَى للقتل .

وقال تعالى : { وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ياأولي الألباب . . } [البقرة : 179]

وهذا نداء لأصحاب الأفهام والعقول الواعية ، ليس القصاص كما يظنُّ البعض ، بل فيه الحياة وفيه سلامة المجتمع وحَقْن الدماء .

ويجب أن يكون عندنا يقظةُ استقبال لأحكام الله؛ لأن القاتل ما قتل إلا حينما غفل عن الحكم ، ويجب أيضاً أن ننظر إلى حكم القصاص نظرة موضوعية ، لأنه كما حَمى غيري من قَتْلِي له حماني أيضاً من قَتْل غيري لي ، وما دامت المسألة : لك مثل ما عليك ، وحظك منها كحظِّ الناس جميعاً ، فلماذا الاعتراض؟

وكذلك في السرقة ، حينما يقول لك : لا تسرق ، فأنت ترى أن هذا الأمر قد قيَّد حريتك أنت ، لكن الحقيقة أنه أيضاً قيَّد حرية الآخرين بالنسبة للسرقة منك .

والذي يتأمل هذه الحدود يجدها في صالح الفرد؛ لأنها تُقيِّد حريته وهو فرد واحد ، وتُقيِّد من أجله حرية المجتمع كله .

وفي الزكاة ، حينما يُوجِب عليك الشارع الحكيم أنْ تُخرِج قَدْراً معلوماً من مالك للفقراء ، فلا تَقُلْ : هذا مالي جمعتُه بجَهْدي وعَرقي . ونقول لك : نعم هو مالك ، ولكن لا تنسَ أن الأيام دُوَلٌ وأغيار ، والغنيّ اليوم قد يفتقر غداً ، فحين تعضّك الأيام فسوف تجد مَنْ يعطيك ، ويَكيل لك بنفس الكَيْل الذي كِلْتَ به للناس .

إذن : يجب أن نكون على وَعْي في استقبال الأحكام عن الله تعالى ، وأن ننظر إليها نظرة شمولية ، فنرى ما لنا فيها وما علينا ، وما دامت هذه الأحكام تعطينا بقدر ما تأخذ مِنّا فهي أحكام عادلة .

وحُكْم القصاص يجعل الإنسان حريصاً على نفسه ، ويمنعه أنْ يُقدِم على القَتْل ، فإنْ غفل عن هذا الحكم وارتكب هذه الجريمة فلا بُدَّ أن يقتصَّ منه؛ فإن أخذتنا الشهامة وتشدَّقْنا بالإنسانية والكرامة والرحمة الزائفة ، وعارضنا إقامة الحدود فليكُنْ معلوماً لدينا أن مَنْ يعارض في إعدام قاتل فسوف يتسبب في إعدام الملايين ، وسوف يفتح الباب لفوضى الخلافات والمنازعات ، فكلّ من اختلف مع إنسان سارع إلى قَتْله؛ لأنه لا يوجد رادع يُردِعه عن القتل .

إذن : لكي نمنع القتل لا بُدَّ أن نُنفِّذَ حكم الله ونُقيم شَرعه ولو على أقرب الناس؛ لأن هذه الأحكام ما نزلتْ لتكون كلاماً يُتلَى وفقط؛ بل لتكون منهجاً عملياً يُنظِّم حياتنا ، ويحمي سلامة مجتمعنا .

لذلك جعل الحق سبحانه وتعالى تنفيذ هذه الأحكام علانية أمام الجميع ، وعلى مَرْأى ومَسْمع المجتمع كله؛ ليعلموا أن أحكام الله ليست شفوية ، بل ها هي تُطبّق أمامهم ، وصدق الله تعالى حين قال : { وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين } [النور : 2]

والذين اعترضوا على القصاص اعترضوا أيضاً على إقامة حَدّ الردَّة ، ورأوا فيه وحشية وكَبْتاً للحرية الدينية التي كفَلها الإسلام في قوله تعالى : { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين . . } [البقرة : 256]

والحقيقة أن الإسلام حينما شرع حَدَّ الردة ، وقال بقتل المرتد عن الدين أراد أن يُصعِّب على

غير المسلمين الدخول في الإسلام ، وأن يُضيِّق عليهم هذا الباب حتى لا يدخل في الإسلام إلا مَنْ أخلص له ، واطمأنَّ قلبه إليه ، وهو يعلم تماماً أنه إنْ تراجع عن الإسلام بعد أن دخل فيه فجزاؤه القتل .

فهذه تُحسَب للإسلام لا عليه؛ لأنه اشترط عليك أولاً ، وأوضح لك عاقبة ما أنت مُقدِم عليه . أما حرية الدين والعقيدة فهي لك قبل أن تدخل الإسلام دخولاً أولياً ، لا يجبرك أحد عليه ، فلك أنْ تظلَّ على دينك كما تحب ، فإنْ أردتَ الإسلام فتفكّر جيداً وتدبّر الأمر وابحثه بكل طاقات البحث لديك .

فليس في دين الله مجالٌ للتجربة ، إنْ أعجبكَ تظلّ في ساحته ، وإنْ لم يَرُق لك تخرج منه ، فإنْ علمتَ هذه الشروط فليس لك أنْ تعترضَ على حدِّ الردّة بعد ذلك . ولتعلم أن دين الله أعزّ وأكرم من أنْ يستجدي أحداً للدخول فيه .

ثم يقول تعالى : { وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً . . } [الإسراء : 33]

وهذا حكم نفي ، المفروض ألاَّ يحدث . ومعنى { مَظْلُوماً } أي : قُتِل دون سبب من الأسباب الثلاثة السابقة أي : دون حق ، فعلى فَرْض أن هذا القتل وقع بالفعل ، فما الحكم؟

يقول تعالى : { فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي القتل . . } [الإسراء : 33]

وليه : أي وليّ المقتول ، وهو مَنْ يتولّى أمره من قرابته : الأب أو الأخ أو الابن أو العم . . الخ فهو الذي يتولّى أمر المطالبة بدمه .

{ سُلْطَاناً . . } [الإسراء : 33]

أي : شرعنا له ، وأعطيناه الحقَّ والقوة في أنْ يقتل القاتل ، والسلطان يكون في خدمة التنفيذ ، ويُمكّنه منه ، وكذلك المؤمنون أيضاً يقفون إلى جواره ، ويساعدونه في تنفيذ هذا الحكم؛ لأن الأمر من الله قد يكون رادعه في ذات النفس ، لكن إنْ ضعُفَتْ النفس فلا بُدَّ لرادع من الخارج ، وهنا يأتي دور السلطان ودور المجتمع الإيماني الذي يُعين على إقامة هذا الحكم .

إذن : جعل الحق سبحانه وتعالى سلطان القصاص لوليّ الدم ، فإنْ لم يكن له وليّ فإن السلطان ينتقل للحاكم العام ليتولى إقامة هذا الحكم ، لكن ما يُتعِب الدنيا حينما ينتقل حَقُّ القصاص إلى الحاكم العام طُول الإجراءات التي تُخرج الحكم عن المراد منه ، وتُذْكِي نار الحقد والغِلّ والثِّرَة في نفسِ وليَّ الدم .

فوليّ الدم وحده الذي يُعاني طول فترة التقاضي مع أناس لا يعنيهم أن تطولَ هذه الفترة أو تقصُر؛ لأن طول فترة التقاضي تأتي في صالح القاتل ، حيث بمرور الأيام بل والسنين تبْرُد شراسة الجريمة في نفوس الناس ، وتأخذ طريقاً إلى طيّات النسيان .

وبهذا تبهت الجريمة وتُنسَى بشاعتها ، وبدلَ أن يقف المجتمع ويفكر في القاتل وفي القصاص منه ،

تتحول الأنظار والعواطف إلى النفس الجديدة التي ستُقتل ، وبذلك يتعاطف الناس معه بدل أن يتعاطفوا في إقامة القصاص عليه .

لكن يجب أنْ يُقامَ القصاص قبل أنْ تبرُدَ شراسة الجريمة في النفوس ، وتبهت وتفقد حرارتها .

والحق سبحانه وتعالى كما شرع القصاص ، وجعله في يد وليّ الدم ، أراد في الوقت نفسه ألاَّ يحرم المجتمع من طموحات العفو الذي يُنهي أصول الخلاف ، فيقول تعالى : { فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتباع بالمعروف وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ . . } [البقرة : 178]

ففي جَوِّ القتل وثورة الدماء التي تغلي بالثأر يتكلم الحق سبحانه عن العفو والأخوة والمعروف والإحسان ، فمهما كان الأمر فالمؤمنون إخوة ، وباب العفو والإحسان مفتوح . ولوليّ الدم بعد أن أعطيناه حَقَّ القصاص ندعوه إلى العفو ، وله أن يأخذ الدية وتنتهي المسألة ، وله أن يعفوَ عن بعضها أو عنها كلها .

إذن : فإعطاء الحق مَنع عن المقتول له ذِلّة التسلُّط من القاتل؛ لأن الله تعالى أعطاه حَقَّ القصاص منه ، فإذا ما عفا عنه علم القاتل أن حياته أصبحت هبة من ولي الدم ، وما دام الأمر كذلك فسوف تتلاشى بينهما الضغائن والأحقاد ، ويحل محلها الوفاق والمحبة والسلام ، ونُنهي تسلسل الثارات الذي لا ينتهي .

وقد اشتهر في صعيد مصر وكان مثالاً للأخْذ بالثأر أن القاتل يأخذ كفنه في يده ، ويذهب به إلى وليّ الدم ويُسلِّم نفسه إليه معترفاً بجريمته ، معطياً لولي الدم حرية التصرف فيه . فما يكون من ولي الدم أمام هذا الاستسلام إلاّ أن يعفوَ ويصفح ، وبذلك تُقتلَع الضغائن من جذورها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { فَلاَ يُسْرِف فِّي القتل . . } [الإسراء : 33]

أي : طالما أن الله أعطاك حَقَّ القصاص فليكُنْ القصاص بقَدْره دون زيادة أو تعدٍّ أو مجاوزة للحدِّ ، والإسراف في القتل يكون بأوجه عدة :

فقد يكون القاتل غير ذي شأن في قومه ، فلا يرضى وليّ الدم بقتْله ، بل يتطلع إلى قتل إنسان آخر ذي مكانة وذي شأن ، فيقتل إنساناً بريئاً لا ذنبَ له ، وهذا من الإسراف في القتل ، وهو إسرافٌ في ذات المقتول .

وقد يكون الإسراف في الكَمِّ ، فإنْ قُتِل واحد فلا يكتفي وليّ الدم بأن يقتل القاتل ، بل يحمله الغِلّ وثورة الدم إلى أنْ يقتل به أكثر من واحد .

وقد يكون الإسراف بأنْ يُمثّل بجثة المقتول ، ولا يكفيه قتله ، والمفروض ألاَّ يحملك الغضب على تجاوز الحدِّ المشروع لك . وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يفعلها في قاتل حمزة ، فنهاه الله عن ذلك .

ثم يقول تعالى : { إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً } [الإسراء : 33]

أي : لا يجوز له أنْ يُسرف في القتل؛ لأننا لم نتخلّ عنه ، بل وقفنا بجانبه وأعطيناه حقّ القصاص ومكنَّاه منه ، إذن : فهو منصور ليس متروكاً ، فيجب أن يقف عند حَدِّ النُّصْرة لا يتجاوزها؛ لأنه إن تجاوزها بقتل غير القاتل ، فسوف يُقتل هو الآخر قصاصاً .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ اليتيم إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . . } .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (34)

وهنا أيضاً يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَقْرَبُواْ . . } [الإسراء : 34]

ولم يقل : ولا تأكلوا مال اليتيم ليحذرنا من مجرد الاقتراب ، أو التفكير في التعدِّي عليه؛ لأن اليُتْم مظهر من مظاهر الضعف لا صح أنْ تجترئَ عليه .

و { اليتيم } هو مَنْ مات أبوه وهو لم يبلغَ مبلغ الرجال وهو سِنْ الرُّشْد ، وما دام قد فقد أباه ولم يَعُدْ له حاضن يرعاه ، فسوف يضجر ويتألم ساعة أنْ يرى غيره من الأولاد له أب يحنو عليه ، وسوف يحقد على القدَر الذي حرمه من أبيه .

فيريد الحق سبحانه وتعالى أولاً أنْ يستلّ من قلب اليتيم وفكره هذه المشاعر؛ لذلك يُوصِي المجتمع به ليشعر أنه وإنْ فقد أباه فالمؤمنون جميعاً له آباء ، وفي حُنوّهم وعطفهم عِوَض له عن وفاة والده .

وكذلك حينما يرى الإنسانُ أن اليتيم مُكرّم في مجتمع إيماني يكفله ويرعاه ، ويعتبره كل فرد فيه ابناً من أبنائه ، يطمئن قلبه ولا تُفزِعه أحداث الحياة في نفسه ، ولا يقلق إنْ قُدِّر له أن يُيَتَّم أولاده ، فسوف يجدون مثل هذه الرعاية ، ومثل هذا الحنان من المجتمع الإيماني .

إذن : إنْ وجد اليتيم في المجتمع عِوَضاً عن أبيه عَطْفاً وحناناً ورعاية يرضى بما قُدِّر له ، ولا يتأبَّى على قدر الله ، وكذلك تطمئن النفس البشرية إنْ قُدِّر عليها اليُتْم في أولادها .

ثم يقول تعالى : { إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [الإسراء : 34]

أي : لا تنتهز يُتْم اليتيم ، وأنه ما يزال صغيراً ضعيف الجانب فتطمع في ماله ، وتأخذه دون وجه حق .

وقوله : { إِلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ . . } [الإسراء : 34] استثناء من الحكم السابق { وَلاَ تَقْرَبُواْ . . } يبيح لنا أن نقرب مال اليتيم ، ولكن بالتي هي أحسن .

و { أَحْسَنُ } أفعل تفضيل تدل على الزيادة في الإحسان فكأن لدينا صفتين ممدوحتين : حسنة وأحسن ، وكأن المعنى : لا تقربوا مال اليتيم بالطريقة الحسنة فحسب ، بل بالطريقة الأحسن .

فما الطريقة الحسنة؟ وما الطريقة الأحسن؟

الطريقة الحسنة : أنك حين تقرب مال اليتيم لا تُبدده ولا تتعدَّى عليه . لكن الأحسن : أنْ

تُنمي له هذا المال وتُثمّره وتحفظه له ، إلى أن يكون أَهْلاً للتصرّف فيه .
لذلك فالحق سبحانه حينما تكلم عن هذه المسألة قال : { وارزقوهم فِيهَا } [النساء : 5]
ولم يقل : وارزقوهم منها؛ لأن الرزق منها يُنقِصها ، لكن معنى : { وارزقوهم فِيهَا } [النساء : 5] أي : من ريعها وربحها ، وليس من رأس المال .
وإلاَّ لو تصوّرنا أن أحد الأوصياء على الأيتام عنده مال ليتيم ، وأخذ ينفق عليه من هذا المال ، ويُخرج منه الزكاة وخلافه ، فسوف ينتهي هذا المال ويبلغ اليتيم مبلغ الرُّشْد فَلا يجد من ماله شيئاً يُعتَدُّ به .
وكأن الحق تبارك وتعالى يقول : حقِّقوا الحسن أولاً بالمحافظة على مال اليتيم ، ثم قدِّموا الأحسن بتنميته له وزيادته زيادة تتسع لنفقات حياته ، وإلاَّ فسوف يشبّ الصغير ، وليس أمامه من ماله شيء .

والحق سبحانه وتعالى يريد ألاَّ يحرم اليتيم من خبرة أصحاب الخبرة والصلاحية الاقتصادية وإدارة الأموال ، فقد يكون من هؤلاء مَنْ ليس لديه مال يعمل فيه ، فليعمل في مال اليتيم ويُديره له ويُنمّيه ، وليأكل منه بالمعروف ، وإنْ كان غنياً فليستعفف عنه؛ لأنه لا يحلّ له ، يقول تعالى : { وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالمعروف . . } [النساء : 6]
لأن الإنسان إذا كان عنده خبرة في إدارة الأموال ولديْه الصلاحية فلا نُعطِّل هذه الخبرة ، ولا نحرم منها اليتيم ، وهكذا نوفر نفقة صاحب الخبرة الذي لا يجد مالاً ، ونفقة اليتيم الذي لا يستطيع إدارة أمواله ، وبذلك يتم التكامل في المجتمع الإيماني .
ثم يقول تعالى : { حتى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ . . } [الإسراء : 34]
أي : حتى يكبر ويبلغ مبلغ الرجال ، ولكن هل هذه الصفة كافية لكي نُعطِي لليتيم ماله وقد بلغ سِنّ الرُّشْد والتكليف؟
في الحقيقة أن هذه الصفة غير كافية لنُسلّم له ماله يتصرف فيه بمعرفته؛ لأنه قد يكون مع كِبَر سِنّه سفيهاً لا يُحسِن التصرُّف ، فلا يجوز أن نتركَ له المال لِيُبدّده ، بدليل قوله تعالى : { فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . . } [النساء : 6]
وقال في آية أخرى : { وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ } [النساء : 5]
ولم يقل : أموالهم ، لأن السفيه ليس له مال ، وليس له ملكية ، والمال مال وليه الذي يحافظ عليه ويُنمّيه له .
إذن : فالرُّشْد وهو سلامة العقل وحُسْن التصرُّف ، شرط أساسي في تسليم المال لليتيم؛ لأنه أصبح بالرُّشْد أهْلاً للتصرُّف في ماله .
وكلمة : { أَشُدَّهُ . . } [الإسراء : 34] أي : يبلغ شِدّة تكوينه ، ويبلغ الأشدّ أي : تستوي

ملكاته استواءً لا زيادة عليه ، فأعضاء الإنسان تنمو وتتربى مع نموه على مَرِّ الزمن ، إلى أن يصل سِنّ الرشد ويصبحَ قادراً على إنجاب مثله ، وهذه سِنّ الأشُدّ أي : الاستواء .

لذلك أجَّلَ الله تعالى التكليف للإنسان إلى سِنِّ البلوغ؛ لأنه لو كلَّفه قبل أن يبلغ ثم طرأ عليه البلوغ بعد التكليف لاحتجَّ بما طرأ عليه في نفسه من تغيرات لم تكن موجودة حال التكليف .

ثم يقول تعالى : { وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً } [الإسراء : 34] { العهد } ما تعاقد الإنسان عليه مع غيره عقداً اختيارياً يلتزم هو بنتائجه ومطلوباته ، وأول عقد أُبرِمَ هو العَقْد الإيماني الذي أخذه الله تعالى علينا جميعاً ، وأنت حُرٌّ في أن تدخل على الإيمان بذاتك مختاراً أو لا تدخل ، لكن حين تدخل إلى الإيمان مُخْتاراً يجب أن تلتزم بعهد الإيمان؛ لأن الله لا يريد منّا قوالب تخضع ، ولكن يريد مِنّا قلوباً تخشع ، ولو أراد الله منّا قوالب تخضع ما استطاع واحد مِنّا أنْ يشذّ عن الإيمان بالله .

لذلك خاطب الحق تبارك وتعالى رسوله بقوله :

{ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4]

فالله لا يريد أعناقاً ، وإنما يريد قلوباً ، لكن يخلط كثير من الناس إنْ أمرته بأمر من أمور الدين فيقول : { لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين . . } [البقرة : 256]

نقول له : أنت لم تحسن الاستدلال ، المراد : لا إكراه في أنْ تدخل الدين ، ولكن إذا دخلتَ فعليك الالتزام بمطلوباته .

ومن باطن هذا العهد الإيماني تنشأ كل العقود ، لذلك يجب الوفاء بالعهود؛ لأن الوفاء بها جزء من الإيمان ، فأنت حُرٌّ أن تقابل فلاناً أولا تقابله ، إنما إذا عاهدتَه على المقابلة فقد أصبحتَ مُلْزماً بالوفاء؛ لأن المقابل لك قد رتَّبَ نفسه على أساس هذا اللقاء ، فإنْ أخلفتَ معه العهد فكأنك أطلقتَ لنفسه حرية الحركة ، وقيَّدتَ حركة الآخر .

وهذه صفة لا تليق أبداً بالمؤمنين ، وقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم من صفات المنافقين .

وقوله : { إِنَّ العهد كَانَ مَسْؤُولاً } [الإسراء : 34]

قد يكون المعنى : أي مسئولاً عنه ، فيسأل كل إنسان عن عهده أوفَّى به أم أخلفه؟

وقد يراد { مَسْؤُولاً } أي : مسئول ممَّنْ تعاقد عليه أنْ يُنفّذه ، وكأنه عدَّى المسئولية إلى العهد نفسه ، فأنا حُرٌّ وأنت حُرٌّ ، والعهد هو المسئول .

والحق سبحانه وتعالى يستعمل اسم المفعول في مواضع تقول للوهلة الأولى أنه في غير موضعه ، ولكن إذا دققتَ النظر تجده في موضعه بليغاً غايةَ البلاغة ، كما في قوله تعالى : { وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً } [الإسراء : 45]

هكذا بصيغة اسم المفعول ، والحجاب في الحقيقة ساتر وليس مستوراً ، ولكن الحق سبحانه يريد أنْ يجعلَ الحجاب صفيقاً ، كأنه نفسه مستور بحجاب الغير ، كما يصنع بعض المترفين ستائر البيوت من طبقتين ، فتصبح الستارة نفسها مستورة ، وكما في قوله تعالى : { ظِلاًّ ظَلِيلاً . . } [النساء : 57] أي : أن الظلَّ نفسه مُظَلّلٌ .

وانظر إلى حال المجتمع إذا لم تُرَاعَ فيه العهود ، ولم تُحترمَ المواثيق ، مجتمع يستهين أهله بالوفاء وشرف الكلمة ، فسوف تجده مجتمعاً مُفكّكاً فُقِدت فيه الثقة بين الناس ، وإذا ما فُقِدت الثقة وضاع الوفاء وشرف الكلمة الذي تُدار به حركة الحياة فاعلم أنه مجتمع فاشل ، وليس أَهْلاً لرقيٍّ أو تقدُّم .

ولأهمية العهد في الإسلام نجده ينعقد بمجرد الكلمة ، وليس من الضروري أن يُسجَّل في سجلات رسمية؛ لأن المؤمن تثق في كلمته حتى إن لم تُوثَّق وتكتب .

ومن هنا وُجِد ما يسمونه بالحق القضائي وبالحق الديني ، فيقولون : هذا قضاءً وهذا ديانة ، والفرق واضح بينهما ، ويمكن أن نضرب له هذا المثل :

هَبْ أنك أخذتَ دَيْناً من صديق لك ، وكتب له مستنداً بهذا الدين ليطمئن قلبه ، ثم قابلته بعد أن تيسَّر لك السداد ووفَّيت له بدَيْنه . لكنه اعتذر لعدم وجود المستند معه الآن ، فقلت له : لا عليك أرسله لي متى شئتَ ، فلو تصوَّرنا أنه أراد الغدر بك وأنكر سداد الدين ، فالقضاء يقول : له الحق في أخذ دَيْنه ، أما ديانة فليس له شيء .

إذن : العهد الذي نعقده مع الناس يدخل تحت المسئولية الدينية وليس القضائية .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم . . . } .

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (35)

تنتقل بنا الآيات إلى قضية من أخطر قضايا المجتمع ، هذه القضية هي التي تضمن للإنسان نتيجة عرقه وثمار جهده وتعبه في الحياة ، ويطمئن أنها عائدة عليه لا على هذه الطبقة الطفيلية المتسلطة التي تريد أن تعيش على أكتاف الآخرين وتتغذى على دمائهم .

وبذلك ييأس الكسول الخامل ، ويعلم أنه ليس له مكان في مجتمع عامل نشيط ، وأنه إنْ تمادى في خموله فلن يجد لقمة العيش فيأخذ من ذلك دافعاً للعمل ، وبذلك تزداد طاقة العمل ويَرْقى المجتمع ويسعد أفراده .

صحيح في المجتمع الإيماني إيثار ، لكنه الإيثار الإيجابي النابع من الفرد ذاته ، أما الخطف والسرقة والاختلاس والغَصب فلا مجال لها في هذا المجتمع؛ لأنه يريد لحركة الحياة أن تستوعب الجميع فلا يتطفل أحد على أحد .

وإن كنا نحارب الأمراض الطفيلية التي تتغذى على دماء الإنسان فإن محاربة الطفيليات الآدمية

أَوْلَى بهذه المحاربة . فما دُمْتَ قادراً على العمل فيجب أن تعمل ، أما غير القادرين من أصحاب الأعذار فهم على العين والرأس ، ولهم حَقٌ مكفول في الدولة وفي أعناق المؤمنين جميعاً ، وهذا هو التأمين الذي يكفله الإسلام لكل محتاج .

لذلك نقول للغني الذي يسهم في سَدَّ حاجة الفقير : لا تتأفف ولا تضجر إنْ أخذنا منك اليوم؛ لأن الطاقة التي عملت بها واجتهدتَ وجمعتَ هذا المال طاقة وقدرة ليست ذاتية فيك ، بل هي هِبَة من الله يمكن أنْ تُنزعَ منك في أي وقت ، وتتبدَّل قوتك ضعفاً وغِنَاك حاجة ، فإنْ حدث لك ذلك فسوف نعطيك ونُؤمِّن لك مستقبلك .

لذلك على الإنسان أن يعيش في الحياة إيجابياً ، يعمل ويكدح ويُسهِم في رُقيّ الحياة وإثرائها ، ولا يرضى لنفسه التقاعس والخمول؛ لأن المجتمع الإيماني لا يُسوِّي بين العامل والقاعد ، ولا بين النشيط والمتكاسل .

وهَبْ أن شقيقين اقتسما ميراثاً بينهما بالتساوي؛ الأول عاش في ماله باقتصاد وأمانة وسَعَى فيه بجدّ وعمل على تنميته ، أما الآخر فكان مُسْرفاً مُنحرفاً بدَّد كل ما يملك وقعد مُتحسّراً على ما مضى ، فلا يجوز أنْ نُسوِّي بين هذا وذاك ، أو نأخذ من الأول لنُعطيَ للآخر ، إياك أن تفعل هذا لأن الإنسان وكذلك الدول إذا أخذتْ ما ليس لها حمّلها الله ما ليس عليها .

ولذلك لا يجوز أن نحقد على الغني طالما أن غِنَاه ثمرة عمله وكَدِّه ونتيجة سعيه ، وطالما أنه يسير في ماله سَيْراً معتدلاً ويؤدي ما عليه من حقوق للمجتمع ، ولندعه يعمل بكل ما يملك من طاقات ومواهب ، وبكل ما ليده من طموحات الحياة؛ لأن الفقير سوف يستفيد منه ومن طموحاته شاء أم أبى . فدَعْه يجتهد ، وإنْ كان اجتهاده في الظاهر لنفسه فإنه في الحقيقة يعود عليك أيضاً ، والخير في المجتمع تعود آثاره على الجميع .

لنفرض أن أحد هؤلاء الأغنياء أراد أن يبني مصنعاً أو عمارة أو مشروعاً كبيراً ، فكم من العمال والصناع ، وكم من الموظفين والمهندسين سيستفيدون من هذا المشروع؟ إن الغني لن يملك مثل هذه الإنجازات إلا بعد أن يصبح ثمنها قُوتاً في بطون الفقراء وكسوة على أجساد الفقراء .

إذن : علينا أنْ ندعَ الغني يجتهد ويسعى؛ لأن المجتمع سوف يستفيد من سَعْيه واجتهاده ، وما عليك إلا أن تراقبه ، فإنْ كان سعيُه في الحق فبها ونعمتْ ، وإنْ كان في غير الحق فلتضرب على يده .

وإليك ما يضمن لك سعادة الحياة وسلامة الحركة فيها ، يقول تعالى : { وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ . } [الإسراء : 35]

والحديث هنا لا يخصُّ الكيْل فقط ، بل جميع المقادير المستخدمة في حركة الحياة مثل المقادير الطولية مثلاً ، والتي تُقدّر بالملليمتر أو السنتيمتر أو المتر أو الكيلو متر وتُقاسُ بها الأشياء كُلٌّ

على حَسْبه ، فالكتاب مثلاً يُقَاس بالسنتيمتر ، والحجرة تُقَاس بالمتر ، أما الطريق فيُقاس بالكيلومتر وهكذا .

إذن : فالتقدير الطُّولي يجب أن تتناسب وحدة القياس فيه مع الشيء الذي نقيسه . هذا في الطوليات ، أما في المساحات فيأتي الطول والعرض ، وفي الأحجام : الطول والعرض والارتفاع . وفي الكُتَل يأتي الميزان .

إذن : فالحياة محكومة في تقديرات الأشياء بالكيْل الذي يُبيّن الأحجام ، وبالميزان الذي يُبيّن الكتلة؛ لأن الكيْل لا دخلَ له في الكتلة ، إنما الكتلة تُعرف بالميزان ، بدليل أن كيلو القطن مثلاً أكبر بكثير من كيلو الحديد .

ومعنى ذلك أن ميزان التقدير يجب أن يكون سليماً؛ لذلك يقول تعالى : { وَأَوْفُوا الكيل إِذا كِلْتُمْ . . } [الإسراء : 35] يعني : أعطوا المقادير على قدر المطلوب من الطرفين دون نقص .

وقد قال تعالى في آية أخرى : { وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الذين إِذَا اكتالوا عَلَى الناس يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين : 1-3]

ومعنى المطففين الذين يزيدون ، وهؤلاء إذا اكتالوا على الناس ، أي : أخذوا منهم . أخذوا حَقَّهم وافياً ، وهذا لا لَوْم عليه ، وإنما اللوم على : { وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ } [المطففين : 3]

أي : إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم { يُخْسِرُونَ } أي : ينقصون . هذا هو موضع الذمّ ومجال اللوْم في الآية؛ لأن الإنسان لا يُلام على أنه استوفى حَقَّه ، بل يُلام على أنه لم يُسَوِّ بينه وبين الآخرين ، ولم يعامل الناس بمثل ما يحب أنْ يُعاملوه به .

ونلاحظ أن الكثيرين يفهمون أن التطفيف يكون في الكَيْل والميزان فحسب ، لكنه أيضاً في السعر ، فالبائع الذي ينقصك الكيلو عشرين جراماً مثلاً فقد بخسَك في الوزن ، وطفَّف عليك في الثمن أيضاً .

ثم يقول تعالى : { وَزِنُواْ بالقسطاس المستقيم . . } [الإسراء : 35] أي : اجعلوا الوزن دقيقاً مستقيماً لا جَوْرَ فيه .

والمتأمل يجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما أراد دقة الأحجام في تعاملات الناس أمرهم بإيفاء الكيل حَقَّه ، هكذا : { وَأَوْفُوا الكيل . . } [الإسراء : 35]

أما في الوزن فقد ركز على دِقَّته ، وجَعَله بالقسطاس ، ليس القسطاس فحسب بل المستقيم ، إذن : لماذا هذه الدِّقة في الميزان بالذات؟

لو نظرتَ إلى عملية الكيْل لوجدتها واضحة مكشوفة ، قَلَّما يستطيع الإنسان الغِشَّ فيها ، وكثيراً ما ينكشف أمره ويُعلَم تلاعبه؛ لأن الكيْل أمام الأعين والتلاعب فيه مكشوف .

أما الوزن فغير ذلك ، الوزن مجال واسع للتلاعب ، ولدى التجار ألف طريقة وطريقة يبخسون بها الوزن دون أن يدري بهم أحد؛ لأن الميزان كما نعلم رافعة من النوع الأول ، عبارة عن محور ارتكاز في الوسط ، وكِفَّة القوة في ناحية ، وكِفَّة المقاومة في الناحية الأخرى ، فأيُّ نَقْص في الذراعين يفسد الميزان ، وأيُّ تلاعب في كِفة القوة أو المقاومة يفسد الميزان .

ولو تحدثنا عن ألاعيب البائعين في أسواقنا لطال بنا المقام؛ لذلك أكد الحق سبحانه وتعالى على الدقة في الميزان خاصة؛ لأنه مجال واسع للغشِّ والخداع وأَكْل أموال الناس .

وسبق أن أوضحنا أن ميزان كُلِّ شيء بحسبه ، ويتناسب مع قيمته ونفاسته ، فالذي يزن الجير مثلاً غير الذي يزن اللوز ، غير الذي يزن الذهب أو الألماس؛ لذلك من معاني (القسطاس المستقيم) أن يتناسب الميزان مع قيمة الموزون ، فالذي يبيع الذهب مثلاً يزن أشياء ثمينة مهما كانت قليلة في الميزان؛ فإنها تساوي الكثير من المال .

لذلك فإن أهل الخبرة في هذه المسألة يقولون : احذر أن يُدخِل البائع رأسه قريباً من الميزان؛ لأنه قد ينفخ في كِفَّة الميزان ، ولاشكَّ أنك ستخسر كثيراً من جَرَّاء هذه النفخة!!

لذلك نقول لهؤلاء الذين أخذت أيديهم على الغش والخداع في البيع والشراء : أنت تبيع للناس شيئاً واحداً وتغشهم فيها ، وفي الوقت نفسه تشتري أشياء كثيرة من متطلبات الحياة ، فاعلم جيداً أنك إنْ غششْتَ الناس في سلعة واحدة فسوف تُغشّ في مئات السلع ، وأنت بذلك خاسر لا محالة . مهما دارت بك الأوهام والظنون فحسبت أن المسألة في صالحك .

ولا تنسَ أن فوقك قيُّوماً ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا تخفي عليه من أمرك خافية ، وسوف يُسلِّط عليك مَنْ يسقيك بنفس كأسك إلى أنْ تتبينَ لك حقيقة هذه الصفقة الخاسرة؛ لأنك إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمِّي على قضاء السماء ، وسوف تذهب هذه الأموال التي اختلستها من أقوات الناس من حيث أتت ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أصاب مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر » .

وكذلك في المقابل : مَنْ صدق الناس ، ووفّى لهم في بيعه وشرائه وتعاملاته يسَّر الله له مَنْ يُوفِّي له ويصدُق معه .

ثم يقول تعالى : { ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [الإسراء : 35]

{ ذلك } أي : الوزن بالقسطاس المستقيم خير وأحسن { تَأْوِيلاً } أي : عاقبة ، ومعنى ذلك أن المقابل له ليس خيراً ولا أحسن عاقبة . فالذي يغش الناس ويخدعهم يظن أنه بغشِّه يزيد في ماله ويجلب الخير لنفسه .

نقول له : أنت واهم ، فليس في الغش والبخس خير سيُجرّئ الناس عليك فيغشوك ، هذه واحدة ثم لا يلبث الناس أن يكتشفوا تلاعبك في الكيل والميزان فينصرفون عنك ويقاطعونك .

إذن : عدم الوزن بالقِسْطاس المستقيم لا هو خَيْر ، ولا هو أحسن عاقبة .

أما التاجر الصادق الذي يُوفِي الكَيْل والميزان ، فإن الله تعالى ييسر له من يوفي له الكيل والميزان ، وكذلك يشتهر بين الناس بصدقه وأمانته ، فيقبلون عليه ويحرصون على التعامل معه . وهذا هو المراد بقوله تعالى : { ذلك خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [الإسراء : 35] أي : احسن عاقبة . .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . . } .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (36)

ينتقل الحق سبحانه وتعالى إلى قضية أخرى تُنظِّم حركة الحياة والإنسان الذي استخلفه الله في الأرض ووهَبه الحياة وأمدَّه بالطاقات وبمُقَوِّمَات الحياة وضرورياتها .

وبعد أنْ تكفّل له بالضروريات ، دَلّه على الترقِّي في الحياة بالبحث والفكر ، واستخدام العقل المخلوق لله ، والمادة المخلوقة لله بالطاقات المخلوقة لله ، فيُرقِّي ويُثري حياته ومجتمعه .

وحركة الترقِّي والإثراء هذه لا تتمّ إلا على قضية ثابتة واضحة ، فإذا تحركتَ في الحياة بناءً على هذه القضية فسوف تصل إلى النتيجة المرجوّة .

فمثلاً ، الطالب الذي يرغَب في دخول كلية الحقوق مثلاً ، لديه قضية واضحة مجزوم بها ، فعندما يلتحق بالحقوق يجتهد ، ويصل من خلالها إلى طموحاته؛ لأنه سار على ضَوْء قضية اقتنع بها .

إذن : لا بُدَّ أن تُبْنَى حركة الحياة على قضايا ثابتة ، هذه القضايا الثابتة تجعل المتحرِّك في أيّ حركة واثقاً من أن حركته ستُؤدِّي إلى النتيجة المطلوبة ، فلو أردتَ مثلاً الذهاب إلى الإسكندرية أو إلى أسوان ، فلن تتحرّك إلا إذا تأكدتَ أن هذا الطريق هو الموصِّل إلى غايتك ، وكذلك حركة الحياة لا يمكن أنْ تتمَّ إلا بناءً على قضايا حقيقية مضبوطة في الكون ، وهذا ما نسميه (العلم) .

وقد سبق أن أوضحنا معنى القضية ، وأنها المقولة التي يُحكَم على قائلها بالصدق أو الكذب ، كأن نقول : الأرض كُروية ، أو الشمس مضيئة ، أو القمر منير ، وهذه القضايا تعطيني قضية علمية مجزوماً بها وواقعة ، ويمكن أنْ نُدلِّل عليها . وهذا هو العلم .

أما الجهل فأنْ تجزم بقضية ليست واقعية فهي قضية كاذبة ، وليس الجهل عدم العلم كما يعتقد البعض؛ لأن عدم العلم أمية ، والأميّ ليس عنده قضية لا صادقة ولا كاذبة .

لذلك تجد الأميّ أطوعَ في التعلم من الجاهل؛ لأن الأمي بمجرد أنْ تُعلِّمه قضية ما يأخذها ويتعلمها ، أما الجاهل فيلزمك أولاً أن تُخرِج من ذهنه القضية المخالفة ، ثم تُعلّمه القضية الصادقة .

وقضايا الحياة يمكن أنْ تُقسِّم إلى قسمين :

قضايا تختلف فيها الأهواء .

وقضايا تتفق فيها الأهواء .

فالقضايا التي تختلف فيها الأهواء : هي القضية التي يخدم بها كل قائل لها فكرةً عنده فقط ، وإنْ كانت ضارة بغيره ، فما دام الأمر قائماً على الأهواء فلا بُدَّ أنْ تختلفَ ، فكُلٌّ له هواه الخاص ، فلو أن لكل واحد قضية ما التقينا على شيء أبداً .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال : { وَلَوِ اتبع الحق أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات والأرض . . } [المؤمنون : 71]

إذن : فما المخرج من هذا الاختلاف والتبايُن؟ المخرَج أن يخرج كل واحد مِنَّا من هوى نفسه أولاً ، ثم نرد القضية التي اختلفتْ فيها أهواؤنا إلى مَنْ لا هوى له .

وربُّكَ سبحانه وتعالى هو وحده الذي لا هَوى له ، ونحن جميعاً خَلْقه ، وكلنا عنده سواء ، ليس منا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة ، فشرع الله واحد للجميع ، ولا غضاضة فالكل خاضع لهذا الشرع مُتّبِع له؛ لأنه شَرْع الخالق سبحانه لا شَرْع أحد من الناس .

لذلك اشتهر قولهم : « اللي الشرع يقطع صباعه مَيْخُرش دم » .

فأنا لم أخضع لك ، وأنت لم تخضع لي ، بل الجميع خاضع لله تعالى مُنصَاع لأمره . إذن : اتركوا قضايا الأهواء لله تعالى يُشرّعها لكم لكي ترتاحوا من تسلُّط بعضكم على بعض .

أما القضايا التي تتفق فيها الأهواء فهي القضايا المادية القائمة على المادة الصمَّاء التي لا تُجامِل أحداً على حساب أحد ، ولا مانعَ أن تتبعوا الآخرين فيها؛ لأنكم سوف تلتقون عليها قَهْراً ورَغْماً عنكم ، فالمعمل الذي تدخله لتجري التجارب التي توصلك لقضية ما مادية أو كيماوية معمل محايد لا يجامل أحداً .

وقد سبق أن قلنا : إن الكهرباء أو الكيمياء ليس فيها روسي وأمريكي؛ لأن هذه أشياء مادية لا خلافَ عليها ، أما الذي جعل المعسكر الشرقي يختلف والمعسكر الغربي هي القضايا الأهوائية ، فهذا شيوعي ، وهذا رأسمالي .

لذلك ، فالنبي صلى الله عليه وسلم وضع بنفسه هذا المبدأ في الوجود الإيماني حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، فأشار عليهم بعدم تأبيره ، فأطاعوه ولم يؤبروا النخل في هذا العام ، وكانت النتيجة أن شاص النخل ولم يثمر ، وأثبتتْ التجربة الطبيعية أن ما أشار به رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس صواباً .

يأتي هذا مِمَّنْ؟ من محمد بن عبد الله نبي الله ورسوله ، الذي يحرص على أن تأتي كل قضاياه صادقة صائبة ، وما كان منه إلا أن قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

ليضع بذلك أُسْوة لعلماء الدين ألاَّ يضعوا أنوفهم في قضايا الماديات ، وقد قال الحق تبارك

وتعالى : { قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ } [البقرة : 60]

ويقول صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

فإنْ أردتَ أنْ تتحرَّك في الحياة حركة سليمة مجدية ، وحركة متساندة مع إخوانك غير متناقضة؛ فالحق سبحانه يقول : { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . } [الإسراء : 36] لكي تسير في حركة الحياة على هُدىً وبصيرة .

{ لاَ تَقْفُ } أي : لا تتبع ولا تتدخل فيما لا عِلْم لك به ، كمَنْ يدَّعي مثلاً العلم بإصلاح التليفزيون وهو لا يعلم ، فربما أفسد أكثر مما يُصلح .

ومن هنا قال أهل الفقه : مَنْ قال لا أدري فقد أفتى؛ لأنه بإعلان عدم معرفته صرف السائل إلى مَنْ يعلم ، أما لو أجاب خطأ ، فسوف يترتّب على إجابته مَا لا تُحمد عُقْباه ، والذي يسلك هذا المسلك في حياته تكون حركته في الحياة حركة فاشلة .

والفعل (يَقفْو) مأخوذ من القفا وهو المؤخرة ، وقد قال تعالى في آية أخرى : { ثُمَّ قَفَّيْنَا على آثَارِهِم بِرُسُلِنَا } [الحديد : 27] أي : أتبعناهم .

ويقفو أثره أي : يسير خَلْفه .

وحينما نصح أحدهم رجلاً يريد أنْ يتزوج قال له : لا تتخذها حنَّانة ، ولا منَّانة ، ولا عُشْبة الدار ، ولا كبة القفا . فالحنانة التي لها ولد من غيرك يذكرها دائماً بأبيه فتحِنّ إليه ، والمنّانة التي لديها مال تَمُنُّ به عليك ، وعُشْبة الدار هي المرأة الحسناء في المنبَتِ السوء والمستنقع القذر ، وكبَّة القفا هي التي لا تعيب الإنسان في حضوره ، وتعيبه وتذمه في غيبته .

والعلم هنا يُراد به العلم المطلق؛ لأن الكثير من الناس كان يعتقد أن العلم يعني العلم الديني فقط ، لكن العلم هو كل ما يُثري حركة الحياة ، والعلم علمان :

علم ديني ، وهو الذي يقضي على الأهواء ، ويُوحِّدهَا إلى هوىً واحد هو الهَوى الإيماني .

وهذا العلم يتولاّه الخالق سبحانه ، وليس لنا دَخْل فيه؛ لأن الصانع أَدْرى بصنعته ، وهو الذي يضع لها قانون صيانتها؛ لأنه يعلم مَا يصلحها ومَا يفسدها .

وكما أنك لا تذهب إلى الجزار ليضع لك قانون صيانة الإنسان إلا من خالقه عز وجل : { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير } [الملك : 14]

وهذا النوع من العلم قال الله تعالى عنه : { وَمَآ آتَاكُمُ الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فانتهوا . . } [الحشر : 7]

فليس لنا أنْ نتدخَّلَ فيه ، أو نزيد عليه؛ لأنه منهج الله الذي جاء ب « افعل ولا تفعل » ، وهو منهج لا يقبل الزيادة أو التعديل ، فما كان فيه أمر ونهي فعليك الالتزام به ، وإلا لو خرجت عن هذا الإطار الذي رسمه لك ربك وخالقك فسوف تحدث في الكون فساداً بترك الأمر أو

بإتيان النهي . أما الأمور التي تركها الخالق سبحانه ولم يرد في شأنها أمر أو نهي فأنت حر فيها ، تفعل أو لا تفعل .

والمتأمل في شرع الخالق سبحانه يجد أمور التكليف بافعل ولا تفعل قليلة إذا ما قيست بالأمور التي ترك لك الحرية فيها ، إذن : فدع لربك وخالقك والأعلم بك مجالاً يحكم من خلاله حياتك وينظمها لك ، ألا يجد بنا ونحن عباده وصنعته أن نُحكّمه في أمور ديننا ، ونُخرِج أنوفنا مما اختص به سبحانه؟

أما النوع الآخر من العلم ، فهو العلم المادي التجريبي الذي لا يخضع للأهواء ، فقد جعله الخالق سبحانه مجالاً للبحث والتسابق ، ومضماراً يجري فيه الجميع؛ لأنهم في النهاية سيلتقون فيه قَهْراً ورَغْماً عنهم . وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى مثالاً لهذا النوع من العلم ، فقال تعالى : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناس والدوآب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ . . } [فاطر : 27-28]

فذكر الحق سبحانه أجناس الوجود كلها : الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد . ثم ختم ذلك بقوله :

{ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء . . } [فاطر : 28]

فهذه ظواهر الكون ، ارْبَع فيها كما شئت بحثاً ودراسة ، وإنْ أحسنتَ الإمعان فيها فسوف تُوصِّلك إلى ظواهر أخرى تُثري حياتك وتُرقّيها ، فالذي اكتشف عصر البخار ، والذي اكتشف العجلة والكهرباء والجاذبية وغيرها لم يخلق جديداً في كَوْن الله ، إنما أحسن النظر والتأمّل فتوصّل إلى ما يُريح المجتمع ويُسعده .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُحذّرنا أن نمرَّ على ظواهر الكون في إعراض وغفلة ودون تمعُّن فيها : { وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السماوات والأرض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ } [يوسف : 105]

والذين عبَّروا عن هذه الإنجازات العلمية بكلمة (الاكتشافات) كانوا أمناء في التعبير عن الواقع الفعلي ، فهم لم يخلقوا جديداً في الكون ، فكلُّ هذه الأشياء موجودة ، والفضل لهم في الاهتداء إليها واكتشافها ، ومن هنا فكلمة (اختراع) ليست دقيقةً في التعبير عن هذه الاكتشافات .

فإذا كان الحق سبحانه نهانا عن تتبُّع ما ليس لنا به علم ، فماذا نتبع؟ نتبع ما نعلمه وما نتيقن منه من علوم ، فإنْ كانت في الدين تركناها للخالق سبحانه يُقنّنها لنا ، وإنْ كانت في أمور الدنيا أعملنا فيها عقولنا بما ينفعنا ويُثري حياتنا؛ لذلك تكلّم الحق سبحانه بعد ذلك عن وسائل إدراك العلم ، فقال : { إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء : 36]

وما دام الحق سبحانه قد نهانا عن تتبع مَا لا نعلم ، وأمرنا أن نسير على ضوء ما نعلم من العلم

اليقيني فلا بُدّ أنْ يسأل المرءُ عن وسائل العلم هذه ، لأنه لولا وسائل الإدراك هذه ما عَلم الإنسانُ شيئاً ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى : { والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [النحل : 78]
وهل يشكر الإنسان إلا على حصيلة أخذها؟ هذه الحصيلة هي العلم .
وهذه الحواس تُؤدِّي عملها في الإنسان بمجرد أنْ تنشأ فيه ، وبعد أنْ يخرجَ إلى الحياة ، والبعض يظنّ أن الطفل الصغير لا يفهم إلا عندما يكبر ويستطيع الكلام والتفاهم مع الآخرين ، والحقيقة أن الطفل يدرك ويعي من الأيام الأولى لولادته .
ولذلك ، فإن علماء وظائف الأعضاء يقولون : إن الطفل يُولَد ولديْه ملكَاتٌ إدراكية سمّاها العلماء احتياطاً « الحواس الخمس الظاهرة » ، وقد كان احتياطهم في محله لأنهم اكتشفوا بعد ذلك حواس أخرى ، مثل حاسة العضل مثلاً التي نُمَيِّز بها بين الخفيف والثقيل .
وإنْ كانت حواس الإنسان كثيرة فإن أهمها : السمع والبصر ، وقد وردت في القرآن بهذا الترتيب ، السمع أولاً ، ثم البصر لأن السمع يسبق البصر ، فالإنسان بمجرد أنْ يُولَد تعمل عنده حاسّة السمع ، أما البصر فإنه يتخلّف عن السمع لعدة أيام من الولادة ، إذن : فهو أسبق في أداء مهمته ، هذه واحدة .
الأخرى : أن السمع هو الحاسَّة الوحيدة التي تُؤدّي مهمتها حتى حال النوم ، وفي هذا حكمة بالغة للخالق سبحانه ، فبالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد أعطانا الخالق سبحانه صورة واضحة لهذه المسألة في قصة أهل الكهف ، فلما أراد سبحانه أن يناموا هذه السنين الطوال ضرب على آذانهم وعطّل حاسة السمع لديهم ، وإلاّ لَمَا تمكَّنوا من النوم الطويل ، ولأزعجتهم الأصوات من خارج الكهف . فقال تعالى : { فَضَرَبْنَا على آذَانِهِمْ فِي الكهف سِنِينَ عَدَداً } [الكهف : 11]
ولم يسبق البصر السمع إلا في آية واحدة في كتاب الله تعالى وهي : { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا . . } [السجدة : 12]
والحديث هنا ليس عن الدنيا ، بل عن الآخرة ، حيث يفزع الناس من هَوْلها فيقولون : { رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحاً . . } [السجدة : 12] لأنهم في الآخرة أبصروا قبل أن يسمعوا .
فالسمع أوّل الحواس ، وهو أهمها في إدراك المعلومات ، حتى الذي يأخذ معلوماته بالقراءة سمع قبل أن يقرأ ، فتعلّم أولاً بالسماع ألف باء ، فالسمع أولاً في التعلُّم ، ثم يأتي دَوْر البصر .
والذي يتتبع الآيات التي ورد فيها السمع والبصر سيجدها جاءت بإفراد السمع وجمع البصر ، مثل قوله سبحانه : { وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار . . } [السجدة : 9]

إلا في هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها جاءت : { إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء : 36]

لماذا؟ وما الحكمة من إفرادها هنا بالذات؟

وقبل أن نُوضِّح الحكمة هنا يجب أن نعي أن المتكلم هو الله تعالى ، وما دام المتكلم هو الله فلا بُدَّ أن تجد كل كلمة دقيقة في موضعها ، بليغة في سياقها .

فالسمع جاء بصيغة الإفراد؛ لأنه لا يتعدد فيه المسموع بالنسبة للسامع ، فإذا حدث الآن صوت نسمعه جميعاً ، فهو واحد في جميع الآذان .

أما البصر فهو خلاف ذلك؛ لأن أمامنا الآن مرائيَ متعددة ومناظر مختلفة ، فأنت ترى شيئاً ، وأنا أرى شيئاً آخر ، فَوحْدة السمع لا تنطبق على البصر؛ لذلك أفرد السمع وجاء البصر بصيغة الجمع .

أما في قوله تعالى : { إِنَّ السمع والبصر . . } [الإسراء : 36] فقد ورد البصر هنا مفرداً؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يتحدث عن المسئولية ، مسئولية كل إنسان عن سَمْعه وبصره ، والمسئولية أمام الحق سبحانه وتعالى فردية لا يُسأل أحد عن أحد ، بل يُسأل عن نفسه فحَسْب ، فناسب ذلك أنْ يقول : السمع والبصر؛ لأنه سيُسأل عن بصر واحد وهو بصره .

فالإنسان إذن مسئول عن سَمْعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّي ، تلقّي القضايا العلمية التي سنسير عليها في حركة حياتنا ، وكذلك من حيث الإعطاء ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن : لا تسمعي إلا خيراً ، ولا تتلقيْ إلا طيّباً ، ويا مُربِّي النشء لا تُسْمِعه إلا ما يدعو إلى فضيلة ، ولا تعط لأذنه إلا ما يصلح حياته ويُثريها .

ويقول للعين : لا ترَىْ إلا الحلال لا يهيج غرائزك إلى الشهوات ، ويا مُربِّي النشء احجب عنه ما يثير الغرائز ويفسد الحياة؛ وبذلك نربي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبني عليها حركة حياته .

وما دُمْتَ مسئولاً عن أعضائك هذه المسئولية ، ومحاسباً عنها ، فإياك أنْ تقولَ : سمعت وأنت لم تسمع ، وإياك أنْ تقولَ : رأيت وأنت لم تَرَ ، إياك أنْ تتعرّض لشهادة تُدلي فيها بغير ما تعلم وتتيقن . أو تتبنّى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك؛ لأن المبنّي على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة ، وما بُنِي على مقدمات صحيحة أنتج النتيجة الصحيحة .

وجماع هذا كله في قوله تعالى : { وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . . } [الإسراء : 36] لماذا؟ لأنك محاسب على علمك هذا وعلى وسائل إدراكه لديك : { إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً } [الإسراء : 36]

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً } .

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (37)

ما زالت الآيات تسير في خطٍّ واحد ، وترسم لنا طريق التوازن الاجتماعي في مجتمع المسلمين ، فالمجتمع المتوازن يصدر في حركته عن إله واحد ، هو صاحب الكلمة العليا وصاحب التشريع . والمتتبع لهذه الآيات يجد بها منهجاً قويماً لبناء مجتمع متماسك ومتوازن ، يبدأ بقوله تعالى : { لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ . . } [الإسراء : 22]

وهذه قضية القمة التي لا تنتظم الأمور إلا في ظلّها ، ثم قسّم المجتمع إلى طبقات ، فأوصى بالطبقة الكبيرة التي أدَّت مهمتها في الحياة ، وحان وقت إكرامها وردِّ الجميل لها ، فأوصى بالوالدين وأمر ببرّهما .

ثم توجّه إلى الطبقة الصغيرة التي تحتاج إلى رعاية وعناية ، فأوصى بالأولاد ، ونهى عن قتلهم خَوْفَ الفقر والعَوز ، وخَصَّ بالوصية اليتيم؛ لأنه ضعيف يحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية والحنو والحنان .

ثم تكلم عن المال ، وهو قوام الحياة ، واختار فيه الاعتدال والتوسُّط ، ونهى عن طرفَيْه : الإسراف والإمساك . ثم نهى عن الفاحشة ، وخصَّ الزنا الذي يُلوِّث الأعراض ويُفسد النسل ، ونهى عن القتل وسَفْك الدماء .

ثم تحدث عمَّا يحفظ للإنسان ماله ، ويحمي تعبه ومجهوداته ، فأمر بتوفية الكيل والميزان ، ونهى عن الغش فيهما والتلاعب بهما ، ثم حَثَّ الإنسان على الأمانة العلمية ، حتى لا يقول بما لا يعلم ، وحتى لا يبني حياته على نظريات خاطئة .

ألم تَرَ أنه منهج وأسلوب حياة يضمن سلامة المجتمع ، وسلامة المجتمع ناشئة من سلامة حركة الإنسان فيه ، إذن : الإنسان هو مدار هذه الحركة الخلافية في الأرض؛ لذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أنْ يضع له توازناً اجتماعياً .

وأوّل شيء في هذا التوازن الاجتماعي أننا جميعاً عند الله سواء ، وكلنا عبيده ، وليس منا مَنْ بينه وبين الله قرابة أو نَسَب ، فالجميع عند الله عبيد كأسنان المشط ، لا فَرْق بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإنْ تفاوتت أقدارنا في الحياة فهو تفاوت ظاهري شكلي؛ لأنك حينما تنظر إلى هذا التفاوت لا تنظر إليه من زاوية واحدة فتقول مثلاً : هذا غني ، وهذا فقير .

ومعظم الناس يهتمون بهذه الناحية من التفاوت ، ويَدَعُون غيرها من النواحي الأخرى ، وهذا لا يصح ، بل انظر إلى الجوانب الأخرى في حياة الإنسان ، وإلى الزوايا المختلفة في النفس الإنسانية

، ولو سلكتَ هذا المسلك فسوف تجد أن مجموع كل إنسان يساوي مجموع كل إنسان ، وأن الحصيلة واحدة ، وصدق الله العظيم القائل : { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أَتْقَاكُمْ . . } [الحجرات : 13]

وما دام المجتمع الإيماني على هذه الصورة فلا يصح لأحد أنْ يرفعَ رأسه في المجتمع ليعطي لنفسه قداسةً أو منزلة فوق منزلة الآخرين ، فقال تعالى : { وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً . . } [الإسراء : 37]

أي : فخراً واختيالاً ، أو بَطَراً أو تعالياً؛ لأن الذي يفخر بشيء ويختال به ، ويظن أنه أفضل من غيره ، يجب أن يضمن لنفسه بقاء مَا افتخر به ، بمعنى أن يكون ذاتياً فيه ، لا يذهب عنه ولا يفارقه ، لكن من حكمة الله سبحانه أنْ جعل كل ما يمكن أن يفتخر به الإنسان هِبةً له ، وليست أصيلة فيه .

كل أمور الإنسان بداية من إيجاده من عدم إلى الإمداد من عُدم هي هبة يمكن أنْ تسترد في يوم من الأيام ، وكيف الحال إذا تكبَّرْتَ بمالك ، ثم رآك الناس فقيراً ، أو تعاليت بقوتك ثم رآك الناس عليلاً؟

إذن : فالتواضع والأدب أليَقُ بك ، والتكبُّر والتعالي لا يكون إلا للخالق سبحانه وتعالى ، فكيف تنازعه سبحانه صفة من صفاته؟ وقد نهانا الحق سبحانه عن ذلك؛ لأنه لا يستحق هذه الصفة إلا هو سبحانه وتعالى ، وكَوْنُ الكبرياء لله تعالى يعصمنا من الاتضاع للكبرياء الكاذب من غيرنا .

ومَنْ أحب أن يرى مساواة الخَلْق أمام الخالق سبحانه ، فلينظر إلى العبادات ، ففيها استطراق العبودية في الناس ، فحينما يُنادَى للصلاة مثلاً ترى الجميع سواسية : الغني والفقير ، والرئيس والمرؤوس ، الوزير مثلاً والخفير ، الكل راكع أو ساجد ، الكل خاضع لله مُتذلّل لله فقير لله ، الكل عبيد لله بعد أنْ خلعوا أقدارهم ، عندما خلعوا نعالهم ، ففي ساحة الرحمن يتساوى الجميع ، وتتجلى لنا هذه المساواة بصورة أوضح في مناسك الحج .

والأهم من هذا أن الرئيس أو الكبير لا يأنف ، ولا يرى غضاضة في أن يراه مرؤوسه وهو في هذا الموقف وفي هذا الخضوع والتذلُّل ، لماذا؟ لأن الخضوع هنا والتذلُّل لله ، وهذا عين العِزَّة والشرف والكرامة .

ثم يقول تعالى : { إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأرض وَلَن تَبْلُغَ الجبال طُولاً } [الإسراء : 37]

في هذه العبارة نلحظ إشارة توبيخ وتقريع ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء المتكبرين ، ولأصحاب الكبرياء الكاذب : كيف تتكبرون وتسيرون فخراً وخيلاء بشيء موهوب لكم غير ذاتي فيكم؟

فأنتم بهذا التكبُّر والتعالي لن تخرقوا الأرض ، بل ستظل صلبة تتحداكم ، وهي أدنى أجناس الوجود وتُدَاس بالأقدام ، وكذلك الجبال وهي أيضاً جماد ستظل أعلى منكم قامةً ولن تطاولوها . والحق سبحانه وتعالى يُوبّخ عبده المؤمن المكرم ليبقى له على التكريم في : { وَلاَ تَمْشِ فِي الأرض مَرَحاً . . } [الإسراء : 37]

وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُوبّخ أهل التكبُّر الكاذب أتى بأَدْنى أجناس الوجود بالأرض والجبال وهي جماد؛ لكنه قد يسمو على الإنسان ويفضُل عليه .

والناظر لأجناس الكون : الجماد والنبات والحيوان والإنسان ، يجد الإنسان ينتفع بكل هذه الأجناس ، فالجماد ينفع النبات ، والحيوان والنبات ينفع الحيوان والإنسان ، والحيوان ينفع الإنسان ، وهكذا جميع الأجناسُ مُسخّرة في خدمة الإنسان ، فما وظيفتك أنت أيها الإنسان؟ ومَنْ تخدم؟

لا بُدَّ أنْ يكون لك دَوْر في الكون ووظيفة في الحياة ، وإلا كانت الأرض والحجر أفضل منك ، فابحثْ لك عن مهمة في الوجود .

وفي فلسفة الحج أمر عجيب ، فالجماد الذي هو أَدْنى الأجناس نجد له مكانة ومنزلة ، فالكعبة حجر يطوف الناس من حوله ، وفي ركنها الحجر الأسعد الذي سَنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبيله وهو حجر ، وعليه يتزاحم الناس ويتشرَّفون بتقبيله والتمسُّح به .

وهذا مظهر من مظاهر استطراق العبودية في الكون ، فالإنسان المخدوم الأعلى لجميع الأجناس يرى الشرف والكرامة في تقبيل حجر .

وكذلك النبات يحْرُم قطعة ، وإياك أن تمتدَّ يدك إليه ، وكذلك الحيوان يحرُم صيْدَه ، فهذه الأشياء التي تخدمني أتى الوقت الذي أخدمها وأُقدِّسها ، وجعلها الحق سبحانه وتعالى مرة في العمر لنلمح الأصل ، ولكي لا يغترَّ الإنسان بإنسانيته ، وليعلم أن العبودية لله تعالى تَسْري في الكون كله .

فإياك أنها الإنسان أن تخدش هذا الاستطراق العبوديّ في الكون بمرح أو خُيَلاء أو تعالٍ .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : { كُلُّ ذلك كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً } .

كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (38)

أي : كُلِّ ما تقدّم من وصايا وتوجيهات بداية من قوله تعالى : { لاَّ تَجْعَل مَعَ الله إلها آخَرَ . . } [الإسراء : 22]

وهذه الأمور التي تقدَّمَتْ ، والتي تحفظ للمجتمع توازنه وسلامته فيها السيئ وفيها الحسن ، والسيئ هو المكروه من الله تعالى ، والله تعالى لا يكره إلا ما خالف منهج العبودية له سبحانه ،

أما الإنسان فيكره ما يخالف هواه ، ولا يتفق ومزاجه .

وهذه الأوامر والنواهي التي تقدَّمتْ يقولون : إنها الوصايا العَشْر التي نزلت على موسى عليه السلام والمقصود في قوله تعالى : { وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الألواح مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا . . } [الأعراف : 145]

ولذلك يقول الحق سبحانه : { ذَلِكَ مِمَّآ أوحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الحكمة . . . } .

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (39)

{ ذَلِكَ } أي : ما تقدّم من الوصايا .

{ الحكمة } هي : وَضعْ الشيء في مَوْضِعه المؤدّي للغاية منه ، لِتظلَّ الحكمة سائدة في المجتمع تحفظه من الخلل والحمْق والسَّفَه والفساد .

وقوله : { وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ . . } [الإسراء : 39]

لسائل أنْ يسأل : لماذا كرَّر هذا النهي ، وقد سبق أنْ ذُكِر في استهلال المجموعة السابقة من الوصايا؟

الحق سبحانه وتعالى وضع لنا المنهج السليم الذي يُنظِّم حياة المجتمع ، وقد بدأه بأن الإله واحد لا شريكَ له ، ثم عدّل نظام المجتمع كله بطبقاته وطوائفه وأَرْسى قواعد الطُّهْر والعِفّة ليحفظ سلامة النسل ، ودعا إلى تواضع الكُلِّ للكُلِّ .

فالحصيلة النهائية لهذه الوصايا أنْ يستقيم المجتمع ، ويسعد أفراده بفضل هذا المنهج الإلهي .

إذن : فإياك أنْ تجعلَ معه إلهاً آخر ، وكرَّر الحق سبحانه هذا النهي : { وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلها آخَرَ . . } [الإسراء : 39]

لأنه قد يأتي على الناس وقتٌ يُحْسنون الظن بعقول بعض المفكرين ، فيأخذون بأقوالهم ويسيرون على مناهجهم ، ويُفضّلونها على منهج الحق تبارك وتعالى ، فيفتنون الناس عن قضايا دينهم الحق إلى قضايا أخرى يُوهِمون الناس أنها أفضل مما جاء به الدين .

إذن : لا يكفي أن تؤمن أولاً ، ولكن احذر أنْ يُزحزك أحد عن دينك فلا تجعل مع الله إلهاً آخر يفتنك عن دينك ، فتكون النتيجة : { فتلقى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً } [الإسراء : 39] { مَلُوماً } : لأنك أتيتَ بما تُلاَم عليه ، { مَّدْحُوراً } : أي : مطرود مُبْعَداً من رحمة الله ، وهذا الجزاء في الآخرة .

أما الذي لا يؤمن بها ، فلا بُدَّ لكي نستطيع العيش معه في الدنيا ، أن يُذيقه الله بعض العذاب ، ويُعجِّله له في الدنيا قبل عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : { فَمَنِ اتبع هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يشقى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً . . } [طه : 123-124] أي : في الدنيا .

وقد ذكر الحق سبحانه وتعالى في قصة ذي القرنين : { حتى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشمس وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا ياذا القرنين إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً } [الكهف : 86-87]

فقوله : { فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ . . } [الكهف : 87] لأنه مُمكَّن في الأرض ، ومَنُوط به حِفْظ ميزان الحياة واستقامتها ، حتى عند الذين لا يُؤمنون بالآخرة ، وإلا فلو أخَّرْنا العذاب عن هؤلاء إلى الآخرة لأفسدوا على الناس حياتهم ، وعاثوا في الأرض يُعربِدون ويُفسِدون .

ولذلك لا يموت ظلوم في الكون حتى ينتقمَ الله منه ، ويذيقه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولا بُدَّ أنْ يراه المظلوم ليعلم أن عاقبة الظلم وخيمة ، في حين أن المظلوم في رعاية الله وتأييده ينصره بما يشاء من نعمه وفضله ، حتى أن الظالم لو علم بما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

ثم يقول الحق سبحانه : { أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بالبنين واتخذ مِنَ الملائكة إِنَاثاً . . . } .

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (40)

لما جعل بعض المشركين لله ولداً ، فمنهم مَنْ قالوا : المسيح ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : عزير ابن الله ، ومنهم مَنْ قالوا : الملائكة بنات الله ، فوبَّخهم الله تعالى : كيف تجعلون للخالق سبحانه البنات ولكم البنين ، إنها قسمة جائرة ، كما قال الحق سبحانه في آية أخرى : { أَلَكُمُ الذكر وَلَهُ الأنثى * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضيزى } [النجم : 21-22]

أي : قسمة جائرة ظالمة .

قوله : { أَفَأَصْفَاكُمْ . . } [الإسراء : 40] أي : اصطفاكم واختار لكم البنين ، وأخذ لنفسه البنات؟

ويقول في آية أخرى : { وَجَعَلُواْ لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا . . } [الزخرف : 15]

لذلك قال تعالى بعدها : { إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً } [الإسراء : 40] فوصف قولهم بأنه عظيم في القُبْح والافتراء على الله ، كما قال في آية أخرى : { وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً } [مريم : 88-89]

ثم يقول الحق سبحانه : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً } .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (41)

{ صَرَّفْنَا } أي : حَوَّلْنا الشيء من حال إلى حال ، ومنها قوله تعالى : { وَتَصْرِيفِ الرياح . . } [البقرة : 164]

يعني تغييرها من حال إلى حال ، فمرة : تراها سَكْسكَاً عليلة هادئة ، ومرّة تجدها رُخَاءً أي : قوية ، ومرة : تجدها إعصاراً مدمراً . والرياح قد تكون لواقح تأتي بالخير والنماء ، وقد تكون عقيماً لا خير فيها . هذا هو المراد بالتصريف .

فمعنى : { وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هذا القرآن } [الإسراء : 41]

أي : صرف مسألة ادعاء اتخاذ الله الأبناء في القرآن ، وعالجها في كثير من المسائل؛ لأنه أمر مهم عالجه القرآن علاجاتٍ متعددة في مقامات مختلفة من سُوره ، فتكرر ذِكْر هذه المسألة . والتكرار قد يكون في ذات الشيء ، وقد يكون باللَّف بالشيء ، كما في قوله تعالى : { فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . . } [الرحمن : 13]

وقوله : { وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُوراً } [الإسراء : 41]

أي : بدلَ أنْ يذكروا ويعودوا إلى جَادّة الصواب ازدادوا إعراضاً ونفوراً . ولنا أن نسأل : لماذا الإعراض والنفور منهم؟

لأنهم أرادوا الاحتفاظ بالسلطة الزمنية التي كانت لهم قبل الإسلام ، ولكي نوضح المقصود بالسلطة الزمنية نقول :

لو درسنا تواريخ القوانين في العالم نجد أن القانون الوضعيّ الذي وضعه البشر لم يَأْتِ أول الأمر ، بل جاء نتيجة تسلُّط الكهنة ، وكانوا هم أصحاب القانون يضعونَه باسم الدين ، ويلزمون الناس به ، ولكن لُوحِظ عليهم أنهم يحكمون في قضية ما بحكم ، ثم بعد فترة يحكمون في نفس القضية بحكم مخالف للأول ، فانصرف الناس عن أحكام الكهنة ، ووضعوا لأنفسهم هذه القوانين الوضعية ، وبذلك أصبح لهؤلاء ما يُسمَّى بالسلطة الزمنية .

وهذه السُّلْطة الزمنية هي التي منعتْ يهود المدينة من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا على علم ومعرفة بأوصافه وبرسالته ومن زمن بعثته ، وكانوا حينما يرَوْنَ عُبّاد الأصنام في مكة يقولون لهم : سيأتي زمان يُبعث فيه نبي في هذا البلد ، وسوف نتبعه ، ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا .

وعن هذا يقول الحق سبحانه في حق يهود المدينة : { وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ الله مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الكافرين } [البقرة : 89]

لقد تنكَّر اليهود لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم على يقين من صِدْقه؛ لأن هذه الرسالة ستحرمهم هذه السلطة الزمنية ، وستقضي على السيادة العلمية والسيادة الاقتصادية والسيادة الحربية التي كانت لهم قبل الإسلام .

ثم يقول الحق سبحانه : { قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً } .

قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (42)

أي : لو كان مع الله آلهة أخرى لَطلبتْ هذه الآلهةُ طريقاً إلى ذي العرش .

وقد عالج الحق تبارك وتعالى هذه القضية في قوله : { شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ } [آل عمران : 18]

وهذه قضية : إما أنْ تكونَ صادقة ، وإما أن تكون غير ذلك . فإنْ كانت صادقة فقد انتهتْ المسألة ، وإنْ كانت غير صادقة ، وهناك إله ثانٍ ، فأين هو؟ لماذا لم نسمع به؟ فإنْ كان موجوداً ، ولا يدري أو كان يدري بهذه القضية ولكنه تقاعس عن المواجهة ولم يعارض ، ففي كل الأحوال لا يستحق أن يكون إلهاً .

إذن : ما دام أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ولم يَقُمْ له معارض فقد سَلِمتْ له هذه الدعوى .

وكلمة { ذِي العرش } لا تُقَال إلا لِمَنْ استتبَّ له الأمر بعد عِرَاك وقتال ، فيُصنع له كرسي أو سرير يجلس عليه .

ابتغاء الطريق إلى ذي العرش ، إما ليواجهوه ويوقفوه عند حده ويبطلوا دعوته ، فإن غلبوا فقد انتهت المسألة ، وإن غُلبوا فعلى الأقل يذهب كل إله بما خلق كما قال تعالى : { مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ } [المؤمنون : 91]

أو : يبتغون إليه سبيلاً ، ليكونوا من خَلْقه ومن عبيده؛ لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : { لَّن يَسْتَنكِفَ المسيح أَن يَكُونَ عَبْداً للَّهِ وَلاَ الملائكة المقربون . . } [النساء : 172]

ويقول : { أولئك الذين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الوسيلة أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ } [الإسراء : 57]

فهؤلاء الذين أشركتموهم مع الله فقُلْتم : المسيح ابن الله ، وعزيز ابن الله ، والملائكة بنات الله ، كُلُّ هؤلاء فقراء إلى الله يبتغون إليه الوسيلة ، حتى أقربهم إلى الله وهم الملائكة يبتغون إلى الله الوسيلة فغيرهم إذن أَوْلَى .

وينزّه الحق سبحانه نفسه ، فيقول : { سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً } .

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (43)

وقوله { سُبْحَانَهُ } يعني تنزيهاً مطلقاً له تعالى في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله ، فلله تعالى ذات ليست كذاتك ، وله صفات ليست كصفاتك ، وله أفعال ليست كأفعالك؛ لأن الأشياء تختلف في الوجود بحَسْب المُوجِد لها .

فمثلاً : لو بني كُلٌّ من العمدة ، ومأمور المركز ، والمحافظ بيتاً ، فسوف يتفاوت هذا البناء من واحد للآخر ، بحسب قدرته ومكانته . وكذلك لا بُدَّ من وجود هذا التفاوت بين إله ومألوه ، وبين رَبٍّ ومربوب ، وبين عابد ومعبود .

إذن : كُلُّ الأشياء في المتساوي تتفاوت بتفاوت الناس .

وقوله : { عُلُوّاً كَبِيراً } [الإسراء : 43] أي : تعالى الله وتنزَّه عَمَّا يقول هؤلاء علواً كبيراً؛ لأن الناس تتفاوت في العلو .

ونلاحظ أن الحق سبحانه اختار (كبيراً) ولم يَقُلْ : أكبر . وهذا من قبيل استعمال اللفظ في موضعه المناسب؛ لأن كبيراً تعني : أن كل ما سواه صغير ، لكن أكبر تعني أن ما دونه كبير أي : مُشَارِك له في الكِبَر .

لذلك نقول في نداء الصلاة : الله اكبر وهي صفة له سبحانه وليست من أسمائه؛ ذلك لأن من أعمال الحياة اليومية ما يمكن أن يُوصَف بأنه كبير ، كأعمال الخير والسعي على الأرزاق ، فهذه كبيرة ، ولكن : الله اكبر .

ثم يقول تعالى : { تُسَبِّحُ لَهُ السماوات السبع والأرض وَمَن فِيهِنَّ . . . } .

تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (44)

التسبيح : هو حيثية الإيمان بالله؛ لأنك لا تؤمن بشيء في شيء إلاَّ أنْ تثق أن مَنْ آمنت به فوقك في ذلك الشيء ، فأنت لا تُوكِّل أحداً بعمل إلا إذا أيقنتَ أنه أقدر منك وأحكم وأعلم .

فإذا كنت قد آمنت بإله واحد ، فحيثية ذلك الإيمان أن هذا الإله الواحد فوق كل المألوهين جميعاً ، وليس لأحد شبه به ، وإن اشترك معه في مُطْلَق الصفات ، فالله غنيّ وأنت غِنَي ، لكن غنى الله ذاتيّ وغِنَاك موهوب ، يمكن أنْ يُسلب منك في أي وقت .

وكذلك في صفة الوجود ، فالله تعالى موجود وأنت موجود ، لكن وجوده تعالى لا عن عدم ، بل هو وجود ذاتي ووجودك موهوب سينتهي في أي وقت .

إذن : فتسبيح الله هو حيثية الإيمان به كإله ، وإلا لو أشبهناه في شيء أو أشبهنا في شيء ما استحق أن يكون إلهاً .

والتسبيح : هو التنزيه ، وهذا ثابت لله تعالى قبل أن يوجد منْ خَلْقه مَنْ يُنزِّهه ، والحق سبحانه مُنزَّه بذاته والصفة كائنة له قبل أن يخلق الخلق؛ لأنه خالق قبل أن يخلق ، كما نقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة؟ أم شاعر بذاته قبل أن يقول شعراً؟

الواقع أن الشعر موهبة ، وملَكة عنده ، ولولاها ما قال شعراً ، إذن : هو شاعر قبل أن يقول .

كذلك فصفات الكمال في الله تعالى موجودة قبل أن يوجد الخَلْق .

لذلك فإن المتتبع لهذه المادة في القرآن الكريم مادة (سبح) يجدها بلفظ (سُبْحان) في أول الإسراء : { سُبْحَانَ الذي أسرى . . } [الإسراء : 1]

ومعناها أن التنزيه ثابت لله تعالى قبل أن يخلق من ينزهه .

ثم بلفظ : { سَبَّحَ للَّهِ مَا فِي السماوات والأرض . . } [الحديد : 1]

بصيغة الماضي ، والتسبيح لا يكون من الإنسان فقط ، بل من السماوات والأرض ، وهي خَلْق سابق للإنسان .

ثم يأتي بلفظ : { يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض . . } [الجمعة : 1]

بصيغة المضارع؛ ليدل على أن تسبيح الله ليس في الماضي ، بل ومستمر في المستقبل لا ينقطع .

إذن : ما دام التسبيح والتنزيه ثابتاً لله تعالى قبل أن يخلق مَنْ يُنزِّهه ، وثابتاً لله من جميع مخلوقاته في السماوات والأرض ، فلا تكُنْ أيها الإنسان نشازاً في منظومة الكون ، ولا تخرج عن هذا النشيد الكوني : { سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى } [الأعلى : 1]

وقوله تعالى : { وَإِن مِّن شَيْءٍ . . } [الإسراء : 44]

أي : ما من شيء ، كل ما يُقال له شيء . والشيء هو جنس الأجناس ، فالمعنى أن كل ما في الوجود يُسبّح بحمده تعالى .

وقد وقف العلماء أمام هذه الآية ، وقالوا : أي تسبيح دلالة على عظمة التكوين ، وهندسة البناء ، وحكمة الخلق ، وهذا يلفتنا إلى أن الله تعالى مُنزَّه ومُتعَالٍ وقادر ، ولكنهم فهموا التسبيح على أنه تسبيح دلالة فقط؛ لأنهم لم يسمعوا هذا التسبيح ولم يفهموه .

وقد أخرجنا الحق سبحانه وتعالى من هذه المسألة بقوله : { ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . } [الإسراء : 44]

إذن : يوجد تسبيح دلالة فعلاً ، لكنه ليس هو المقصود ، المقصود هنا التسبيح الحقيقي كُلّ بِلُغتِه .

فقوله تعالى : { ولكن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ . . } [الإسراء : 44]

يدل على أنه تسبيح فوق تسبيح الدلالة الذين آمن بمقتضاه المؤمنون ، إنه تسبيح حقيقيّ ذاتيّ ينشأ بلغة كل جنس من الأجناس ، وإذا كنا لا نفقه هذا التسبيح ، فقد قال تعالى : { كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ . . } [النور : 41]

إذن : كل شيء في الوجود عَلِم كيف يُصلّي لله ، وكيف يُسبّح لله ، وفي القرآن آياتٌ تدل بمقالها ورمزيتها على أن كل عَالَمٍ في الوجود له لغة يتفاهم بها في ذاته ، وقد يتسامى الجنس الأعلى ليفهم عن الجنس الأدنى لُغته ، فكيف نستبعد وجود هذه اللغة لمجرد أننا لا نفهمها؟

وها هم الناس أنفسهم ولهم في الأداء القوليّ لغة يتفاهمون بها ، ومع ذلك تختلف بينهم اللغات ،

ولا يفهم بعضهم بعضاً ، فإذا ما تكلم الإنجليزي مع أنه يتكلم بألفاظ العربي ومع ذلك لا يفهمه؛ لأنه ما تعلَّم هذه اللغة .

واللغة ظاهرة اجتماعية ، بمعنى أن الإنسان يحتاج للغة؛ لأنه في مجتمع يريد أن يتفاهم معه ليعطيه ما عنده من أفكار ، ويسمع ما عنده من أفكار فلا بُدَّ من اللغة لنقل هذه الأفكار ، ولو أن الإنسان وحده ما كان في حاجة إلى لغة؛ لأنه سيفعل ما يخطر بباله وتنتهي المسألة .

واللغة لا ترتبط بالدم أو الجنس أو البيئة؛ لأنك لو أتيتَ بطفل إنجليزي مثلاً ، ووضعتَه في بيئة عربية سيتكلم العربية؛ لأن اللغة ظاهرة اجتماعية تعتمد على السمع والمحاكاة؛ لذلك إذا لم تسمع الأذن لا تستطيع أن تتكلم ، ومن ذلك قوله تعالى : { صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ . . } [البقرة : 18]

فهم بُكْم لا يتكلمون؛ لأنهم صُمٌّ لم يسمعوا شيئاً ، فإذا لم يسمع الإنسان اللفظ لا يستطيع أن يتحدثَ به؛ لأن ما تسمعه الأذن يحكيه اللسان .

إذن : بالسماع انتقلتْ اللغة ، وكُلٌّ سمع من أبيه ، ومن البيئة التي يعيش فيها ، فإذا ما سلسلْتَ هذه المسألة ستصل إلى آدم عليه السلام وهنا يأتي السؤال : وممَّنْ سمع آدم اللغة التي تكلم بها؟ وقد حلَّ لنا القرآن الكريم هذه القضية في قوله تعالى : { وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأسمآء كُلَّهَا } [البقرة : 31]

وأكثر من ذلك ، فقد يتكلم العربي بنفس لغتك ولا تفهم عنه ما يقول ، واللغة هي اللغة ، كما حدث مع أبي علقمة النحوي ، وكان يتقعَّر في كلامه ويأتي بألفاظ شاذة غير مشتهرة ، وقد أتعب بذلك مَنْ حوله ، وخاصة غلامه الذي ضاق به ذَرْعاً لكثرة ما سمع منه من هذا التقعر .

ويُروَي أنه في ذات ليلة قال أبو علقمة لغلامه : (أَصَقَعَتِ العَتَارِيفُ) ؟ فردَّ عليه الغلام قائلاً : (زَقْفَيْلَم) .

وكانت المرة الأولى التي يستفهم فيها أبو علقمة عن كلمة ، فقال : يا بني وما (زَقْفَيْلَم) ؟ قال : وما (صقعت العتاريف) ؟ قال : أردتُ : أصاحت الديكة؟ فقال الغلام : وأنا أردتُ لم تَصِحْ .

إذن : فكيف نستبعد أننا لا نعلم لغة المخلوقات الأخرى من حيوان ونبات وجماد؟ ألم يكْفِنا ما أخبرنا الله به من وجود لغة لجميع المخلوقات ، وإنْ كنا لا نفهمها؛ لأننا نعتقد أن اللغة هي النطق باللسان فقط ، ولكن اللغة أوسع من ذلك .

فهناك مثلاً لغة الإشارة ، ولغة النظرات ، ولغة التلغراف .

إذن : اللغة ليست اللسان فقط ، بل هي استعداد لاصطلاح يُفْهم ويُتعارف عليه ، فالخادم مثلاً يكفي أن ينظرَ إليه سيّده نظرة يفهم منها ما يريد ، فهذه النظرة لَوْنٌ من ألوان الأداء .

والآن بدأنا نسمع عن قواميس يُسجّل بها لغات بعض الحيوانات لمعرفة ما تقول .
وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى إشارات تدل على أن لكل عَالَم لغة يتفاهم بها ، كما في قوله تعالى : { وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الجبال يُسَبِّحْنَ . . } [الأنبياء : 79]
فالجبال تُسبّح مع داود ، وتُسبِح مع غيره ، ولكن المراد هنا أنها تُسبّح معه ويوافق تسبيحها تسبيحه ، وكأنهما في أنشودة جماعية منسجمة . إذن : فلا بُدَّ أن داود عليه السلام قد فَهِم عنها وفهمتْ عنه .
وكذلك النملة التي تكلمتْ أمام سليمان عليه السلام ففهم كلامها ، وتبسَّم ضاحكاً من قولها .
وقد علَّمه الله منطقَ الطير . إذن : لكل جنس من الأجناس منطق يُسبّح الله به ، ولكن لا نفقه هذا التسبيح؛ لأنه تسبيح بلغة مُؤدِّية مُعبّرة يتفاهم بها مَنْ عرف التواضع عليها .
وقد جعل الحق سبحانه وتعالى تنزيهه مطلقاً ينقاد له الجميع ، حتى الكافر ينقاد لتنزيه الله قَهْراً عنه ، مع أن لديه ملكةَ الاختيار بين الكفر أو الإيمان ، لكن أراد الحق سبحانه أن يكون تنزيهه مُطْلقاً من الجماد والنبات والحيوان ، ومن المؤمن والكافر . كيف ذلك؟
أطلق الحق سبحانه على ذاته لفظ الجلالة (الله) فهو عَلَم على واجب الوجود ، ثم تحدّى الكافرين أنْ يُسمُّوا أحداً بهذا الاسم ، فقال : { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً } [مريم : 65]
ومع ما عندهم من إلْفٍ بالمخالفة وعناد بالإلحاد ، مع ذلك لم يجرؤ أحد منهم أنْ يُسمِّي ابناً له بهذا الاسم ، ومعلوم أن التسمية أمر اختياريّ يطرأ على الجميع .
إذن : فهذا تنزيه لله تعالى ، حتى من الكافر رَغْماً عنه ، وهو دليل على عظمته سبحانه وجلاله ، هذه العظمة وهذا الجلال الذي لم يجرؤ حتى الكافر على التشبُّه به؛ ذلك لأنهم في كفرهم غير مقتنعين بالكفر ، ويخافون بطش الله وانتقامه إنْ أقدموا على هذا العمل ، لذلك لا يجرؤ أحد منهم أنْ يُجرِّب في نفسه مثل هذه التسمية .
وفي مجال العبادات ، فقد اختار الحق سبحانه لنفسه عبادة لا يشاركه فيها أحد ، ولا يقدمها أحد لغيره تعالى؛ لأن الناس كثيرا ما يتقربون لأمثالهم من البشر بأعمال أشبه ما تكون بعبادة الله تعالى ، فمنهم مَنْ ينحني خضوعاً لغيره؛ كأنه راكع أو ساجد ، ومنهم مَنْ يمدح جباراً بأنه لا مثيلَ له ، وتصل به المبالغة إلى جَعْله إلهاً في الأرض ، ومنهم مَنْ يسجدُ للشمس كما فعل أهل سبأ وأخبر الهدهد عنهم بقوله :

{ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ الله } [النمل : 24]
ألسْنَا نرى إنساناً يتقرّب لأحد الحكام ، بأن ينفق فيما يحبه هذا الحاكم ، وكأنه يُخرِج زكاة ماله؟
ألسْنا نرى أحدهم يذهب كل يوم إلى قصر سيده ، ويُوقّع في سجل التشريفات باسمه ليقدم بذلك فروض الولاء والطاعة؟

إذن : فالإيمان بالوحدانية في شيء متميز وارد عند الناس ، والخضوع الزائد بالسجود أو بالركوع أو بالكلام وارد عند الناس .

لذلك تفرّد الحق سبحانه بفريضة الصوم ، وجعلها خالصة له سبحانه ، لا يتقرب بها أحد لأحد ، وهل رأيت إنساناً يتقرّب لآخر بصوم؟ فانظر إلى هذه السُّبْحانية وهذا التنزيه في ذاته سبحانه ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتسمى باسمه .

وفي العبادة لا يُصَام لأحد غيره تعالى ، فلو تصوَّرنا أن يقول واحد للآخر : أنا سأتقرّب إليك بصوم هذا اليوم أو هذا الشهر ، إذن : أنت تريد منه أن يجلس بجوارك يحرسك ويراعي صومك ، فكأنك تريد له العنت والمشقة من حيث تريد أنت أنْ تتقرّب إليه .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » .

يعني من الممكن أن يتقرب بأيِّ ركن من أركان الإسلام لغيري ، إلا الصوم ، فلا يجرؤ أحد أنْ يتطوّع به أو يتقرب به لأحد .

إذن : فالسُّبحانية هي الدليل السائد الشامل الجامع لكل الخَلْق؛ لذلك نقول للكافر : أيها الكافر لقد تأبَّيْتَ على الإيمان بالله ، وللعاصي : لقد تأبيتَ على أوامر الله ، وما دُمْتُم قد تأبيتم على الله ، وألفتم هذا التأبِّي وهذا التمرد ، فلماذا لا تتأبون على المرض إنْ أصابكم ، وعلى الموت إنْ طرق بابكم؟

لماذا لا تتمرد على ملك الموت وتقول له : لن أموت اليوم؟! إنها قاهرية الحق سبحانه وتعالى حتى على الكافر ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عليها أو يتمرد .

وكذلك العاصي حينما ينحرف عن الجادّة ، وتمتد يده إلى مال غيره بالسرقة أو الاختلاس أو التعدِّي على المال العام ، فإن الحق سبحانه يفتح عليه أبواباً للإنفاق تبتلع ما جمع من الحرام ، وربما أخذت في طريقها الحلال أيضاً ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : « من جمع مالاً من مهاوش أذهبه الله في نهابر » .

فالتسبيح إذن لغة الكون كله ، منه ما نفهمه ، ومنه ما لا نفهمه ، إلا مَنْ أطلعه الله عليه ، فإذا مَنَّ الله على أحد وعلّمه لغة الطير أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، فهمها وفقه عنها ، كما أنعم بهذه النعم على داود وسليمان عليهما السلام .

ويقول سليمان عليه السلام شاكراً هذه النعمة : { رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ } [النمل : 19]

فقول الحق سبحانه : { وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . . } [الإسراء : 44]

يجب على العلماء أنْ ينقلوها من خاطر الدلالة إلى خاطر المقالة أيضاً ، ولكنها مقالة ، ولكنها

مقالة بلغة يفهمها أصحابها إذا شاء الله لهم ذلك .

ثم يُذيّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله : { إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً . . } [الإسراء : 44]

لأن الإنسانَ كثيراً ما يغفل الاستدلال بظواهر الكون وآياته دلالة الحال ، فيقف على قدرة الله وبديع صُنْعه ، وكذلك كثيراً ما يغفل عن تسبيح الله تسبيح المقالة؛ لذلك أخبر سبحانه أنه حليمٌ لا يعاجل الغافلين بالعقوبة ، وغفور لمن تاب وأناب .

وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فلولا أنْ يتداركَ الله العباد بهذه الرحمة لكان الإنسان سيد الكون أقلّ حظاً من الحيوان ، ويكفي أن تتدبر قوله تعالى عن تسبيح المخلوقات له سبحانه : { أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدوآب وَكَثِيرٌ مِّنَ الناس وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العذاب . . } [الحج : 18]

فها هي جميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شيء ، فهي تسجد وتُسبّح بالإجماع ، ولم ينقسم الأمر إلا في الإنسان السيّد المكرّم ، ولكن لماذا الإنسان بالذات هو الذي يشذُّ عن منظومة التسبيح في الكون؟

نقول : لأنه المخلوق الوحيد الذي مَيَّزَهُ الله بالاختيار ، وجعل له الحرية في أنْ يفعل أو لا يفعل ، أما باقي المخلوقات فهي مُسخّرة مقهورة ، فإن قال قائل : لماذا لم يجعل الحق سبحانه وتعالى الإنسان أيضاً مقهوراً كباقي المخلوقات؟

لقد جعل الله تعالى في الإنسان الاختيار لحكمة عالية ، فالقهر يُثبتُ للحق سبحانه صفة القدرة على مخلوقه ، فإذا قهره على شيء لا يشذ ولا يتخَلف ، ولكنه لا يثبت صفة المحبوبية لله تعالى .

أما الاختيار فيثبت المحبوبية لله؛ لأنه خلقك مختاراً تؤمن أو تكفر ، ومع ذلك اخترْتَ الإيمان حُباً في الله تعالى ، وطاعة وخضوعاً ، فأثبتَّ بذلك صفة المحبوبية .

وإياك أن تظن أن مَنْ يَعْصي الله يعصيه قهراً عن الله ، بل بما ركَّب فيه من الاختيار ، وقد يقول قائل : وما ذنب الإنسان أن يكون مختاراً من بين جميع المخلوقات؟

لو حققتَ هذه القضية منطقياً وفلسفياً لوجدتَ الكون كله كان مختاراً ، وليس الإنسان فقط ، لكن اختارت جميع المخلوقات أنْ تُسلِّم الأمر لله ، وفضَّلتْ أن تكون مقهورة مسخرة من البداية ، أما الإنسان ففضَّل الاختيار ، وقال : سأعمل بحرص ، وسأحمل الأمانة بإخلاص ، وهذا واضح في قول الحق تبارك وتعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً }

[الأحزاب : 72]

وفي رَفْض هذه المخلوقات لتحمُّل الأمانة والاختيار دليل على العلم الواسع؛ لأنه يوجد فَرْق كبير بين قبول الأمانة وقت التحمُّل ووقت الأداء . فقد تتحمل الأمانة وأنت واثق من أدائها ،

لكن يطرأ عليك وقت الأداء مَا يحول بينك وبين أداء الأمانة .
والأمانة كما هو معروف لا تُوثَّق ولا تُكتب ، وكثيراً ما يقع فيها التلاعب؛ لأنها لا تثبتُ إلا بذمّة الآخذ الذي قد يضعف عن الأداء وتُلجِئه الأحداث إلى هذا التلاعب أو الإنكار ، والأحداث قد تكون أقوى من الرجال .
فالإنسان إذن لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإنْ كان يضمنها وقت التحمُّل ، ولهذا اختارت جميع المخلوقات أن تكون مقهورة مُسيَّرة ، أما الإنسان فقال : لي عقل وأستطيع التصرُّف والترجيح بين البدائل ، فكان بذلك ظالماً لنفسه؛ لأنه لا يضمنها وقت الأداء ، وجهولاً بما يكون من تغيُّر أحواله .
فالكون إذن ليس مقهوراً رَغْماً عنه ، بل بإرادته واختياره ، وكذلك الإنسان ليس مختاراً رَغْماً عنه ، بل بإرادته واختياره .
ثم يقول الحق سبحانه : { وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً } .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (45)

الحق سبحانه وتعالى يعدل الأشياء تنفيذاً لأشياء أخرى ، ويصنع أحداثاً أوّلية لتكون بمثابة المقدمة والتمهيد لأحداث أخرى أهم منها . وكفار مكة ما ادَّخروا وُسْعاً ، وما تركوا وسيلة من وسائل الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم والتنكيل به إلا فعلوها .
ومع ذلك لم يُفَاجأ بها رسول الله ، ولم تُثبِّط من عزيمته ، لماذا؟ لأنه كان مُتوقِّعاً لكل هذا الإيذاء ، ولديه من سوابق الأحداث ما يعطيه الحصانة الكافية لمقابلة كل الشدائد .
فالمسألة لم تُفاجئ رسول الله؛ لأنه عرفها حتى قبل أن يُبعث ، فحينما جاءه جبريل للمرة الأولى في الغار ، وعاد إلى السيدة خديجة فَزِعاً ذهبتْ به إلى ابن عمها ورقة بن نوف ، فطمأنه بأن هذا هو الناموس الإلهي ، وأنه صلى الله عليه وسلم سيكون مبعوث السماء إلى الأرض ، وأنه نبيُّ هذه الأمة ، وقال فيما قال : ليتني أكون حياً حين يُخرِجك قومك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَمُخرجيّ هم؟ » .
قال : نعم ، لم يأتِ رجل بمثل ما جئتَ به إلا عودِي ، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً .
إذن : فالحق سبحانه وتعالى حَصَّن رسوله صلى الله عليه وسلم ضد ما سيأتي من أحداث؛ لكي يكون على توقُّع لها ، ولا تحدث له المفاجأة التي ربما ولدتْ الانهيار ، وأعطاه الطُّعْم المناسب للداء قبل حدوثه؛ لتكون لديه المناعة الكافية عند وقوع الأحداث ، واليقين الثابت في نصر الله له مهما ادْلَهَمتْ الخطوب ، وضاق الخناق عليه صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه .
والحديث عن الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وما داموا كذلك فليس لهم إلا الدنيا ، هي فرصتهم

الوحيدة ، لذلك يحرصون على استنفاد كل شهواتهم فيها ، ولا يؤخرون منها شيئاً ، فإنْ أجَّل المؤمن بعض مُتَعِه وشهواته انتظاراً لما في الآخرة فإلامَ يؤجل الكفار مُتعهم؟

إذن : الذي يجعل هؤلاء يتهافتون على شهواتهم في الدنيا أنهم غير مؤمنين بالآخرة .

فإذا جاء رسول بمنهج ليعدل حركة الناس لتنسجم مع الكون ، فلا بُدّ أن يثور هؤلاء الكفار الحريصون على شهواتهم ومكانتهم ، لا بُدَّ أنْ يصادموا هذه الدعوة ، ويقاوموها في ذات الرسول وفي منهجه ، في ذاته بالإيذاء ، وفي دعوته ومنهجه بصَرْف الناس عنه ، ألم يقل الكفار لمن يَرَوْن عنده مَيْلاً للإسلام : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ } [فصلت : 26]

وقولهم : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن . . } [فصلت : 26]

شهادة منهم بصدق القرآن الكريم ، وأنه ينفذ إلى القلوب ويؤثر فيها ، وإلا لما قالوا هذا القول .

وقولهم : { والغوا فِيهِ . . } [فصلت : 26]

أي : هرِّجوا وشَوِّشوا عليه حتى لا يصل إلى آذان الناس ، إذن : هم واثقون من صدق رسول الله وصدق دعوته ، وقد دَلَّتْ تصرفاتهم على ذلك ، فحينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذهب إلى الكعبة ، ويجلس بجوارها يُدندِن بآيات القرآن كان صناديد الكفر في مكة يتعمدون سماع القرآن ، والتلذُّذ بروعته وبلاغته .

فقوله تعالى : { وَإِذَا قَرَأْتَ القرآن جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَاباً مَّسْتُوراً } [الإسراء : 45]

يُرْوَى أن أبا جهل ، وأبا سفيان ، وأبا لهب ، وأم جميل كانوا يتابعون رسول الله ، ويتنصتون عليه وهو يقرأ القرآن ليروْا ما يقول ، وليجدوا فرصة لإيذائه صلى الله عليه وسلم ، فكان الحق سبحانه يصمُّ آذانهم عن سماع القرآن ، فالرسول يقرأ وهم لا يسمعون شيئاً ، فينصرفون عنه بغيظهم .

وكأن الحق سبحانه يريد من هذه الواقعة أن تكون تمهيداً لحدث أهم ، وهو ما كان من رسول الله ليلة الهجرة ، ليلة أنْ بيَّتوا له القتل بضربة رجل واحد ، فتحرسه عناية الله وتقوم له : اخرج عليهم ولا تخف ، فإن الذي جعلك تقرأ وجعل بينك وبينهم حجاباً فلا يستمعون إليك ، هو الذي سينزل على أعينهم غشاوة فلا يرونك .

ومع إحكام خيوط هذه المؤامرة لم يخرج الرسول من بينهم صامتاً يحبس أنفاسه خَوْفاً ، بل خرج وهو يقول « شاهت الوجوه » وهو لا يخشى انتباههم إليه ، وأكثر من ذلك : يأخذ حفنة من التراب ويذروها على وجوههم ، إنها الثقة واليقين في نصره وتأييده .

وقوله : { حِجَاباً مَّسْتُوراً } [الإسراء : 45]

الحجاب : هو المانع من الإدراك ، فإنْ كان للعين فهو مانع للرؤية ، وإنْ كان للأذن فهو مانع

للسمع .

وكلمة { مَّسْتُوراً } اسم مفعول من الستر ، فلم يقل الحق سبحانه وتعالى (ساتراً) ، وهذا من قبيل المبالغة في الستر والإخفاء ، فالمعنى أن الحجاب الذي يمنعهم من سماعك أو رؤيتك هو نفسه مستور ، فإن كان الحجاب نفسه مستوراً ، فما بالُكَ بما خلفه؟

ولاشكَّ أن الذِّهْن سينشغل هنا بالحجاب المادي ، لكن هذا الحجاب الذي يتحدث عنه الحق سبحانه حجاب معنويّ ولا يراه أحد ، كما في قوله تعالى : { رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا } [الرعد : 2]

فلو قال : بغير عَمَد وسكت فقد نفى وجود عمد للسماء وانتهت المسألة ، وأدخلناها تحت قوله تعالى : { إِنَّ الله يُمْسِكُ السماوات والأرض أَن تَزُولاَ } [فاطر : 41] فالأمر قائم على قدرة الله دون وجود عَمَدٍ تحمل السماء .

لكن قوله سبحانه : { تَرَوْنَهَا } تجعل المعنى صالحاً لأنْ نقول بغير عَمَد ، وأنتم ترونها كذلك ، فننظر هنا وهناك فلا نجد للسماء عمداً تحملها ، أو نقول : إن لها عمداً لكِنَّا لا نراها ، فهي عَمَد معنوية ، فلا ينصرف ذهنك إلى ما نقيمه نحن من عَمد المسلح أو الرخام أو الحديد .

وفي هذا ما يدُكُّ الغرور في الإنسان ، ليعلم أنه لا يدرك إلا ما أذن الله له في إدراكه ، وأن حواسَّ الإدراك لديه قد تتوقف عن هذا الإدراك ، فليس معنى أنها مدركة أن تظل مدركة دائماً ، فليس لها طلاقة لتفعل ما تشاء ، بل الحق سبحانه وتعالى يعطيها هذه القدرة ، أو يسلبها إياها .

فالقدرة الإلهية هي التي تُسيِّر هذا الكون ، وتأمر كل شيء بأن تُؤدِّي مهمته في الحياة ، وإنْ شاء عطّلها عن أداء هذه المهمة؛ لذلك نرفض قول الفلاسفة أن الحق سبحانه وتعالى زاول سلطانه في مُلْكه مرة واحدة ، بأن جعل فيه النواميس والقوانين ، وهي التي تحكم العالم وتُسيِّره .

ففي قصة موسى عليه السلام أنه سار بجيشه ، يطارده فرعون وجنوده حتى وصل إلى شاطئ البحر فأصبح البحر من أمامه ، وفرعون من خلفه حتى قال أصحاب موسى : { إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . } [الشعراء : 61]

فأين المفر ، وهاهو البحر من أمامنا ، والعدو من خلفنا؟ وهذا كلام منطقي مع واقع الحديث البشري ، لكن الأمر يختلف عند موسى عليه السلام فقال بملء فيه : { قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ } [الشعراء : 62]

فهل قالها موسى برصيد بشري؟ لا ، بل بما عنده من ثقة في ربه ، وهكذا انتقلت المسألة إلى ساحة الخالق سبحانه ، فقال لنبيه موسى : { فَأَوْحَيْنَآ إلى موسى أَنِ اضرب بِّعَصَاكَ البحر فانفلق فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كالطود العظيم } [الشعراء : 63]

فخرق الله لموسى قانون سيولة الماء واستطراقه ، ويتجمد الماء ، ويصير كالجبل ويتحول البحر إلى

يابسة ، ويعبر موسى وقومه إلى الناحية الأخرى ، وتنشرح صدورهم بفرحة النجاة ، ويأخذ موسى عليه السلام عصاه ليضرب البحر ليعود إلى طبيعته ، وحتى لا يعبره فرعون ويلحق به ، لكن الحق سبحانه يأمره ، أن يتركه على حاله : { واترك البحر رَهْواً إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ } [الدخان : 24]

فعندما نزل فرعون وجنوده البحر واكتمل عددهم في قاعه أطلق الخالق سبحانه للماء قانون سيولته ، فأطبق على فرعون وجنوده ، وكانت آيةً من آيات الله ، شاهدة على قدرته سبحانه ، وأنه إنْ شاء أنجى وأهلك بالشيء الواحد ، وشاهدة على قيوميته تعالى على خَلْقه ، فليس الأمر كما يقولون أمر قانون أو ناموس يعمل ، ويدير حركة الكون ، فكل المعجزات التي مرَّتْ في تاريخ البشرية جاءت من باب خرق النواميس .

ثم يقول الحق سبحانه : { وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وفي آذَانِهِمْ وَقْراً . . . } .

وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (46)

ومعنى { أَكِنَّةً } جمع كِنَان ، وهو الغطاء ، وقد حكى القرآن اعترافهم بهذه الأكنة وهذه الحجب التي غلَّفَتْ قلوبهم في قوله تعالى : { وَقَالُواْ قُلُوبُنَا في أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ . . } [فصلت : 5]

الكون كله خَلْق الله ، والإنسان سيد هذا الكون ، وخليفة الله فيه وهو مربوب للخالق سبحانه لا يخرج عن مربوبيته لربه ، حتى وإنْ كان كافراً لا يزال يتقلّب في عطاء الربوبية ، فلا يُحرم منها الكافر بكفره ولا عاص بمعصيته ، بل كما قال تعالى : { كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ . . } [الإسراء : 20]

وسبق أنْ فرَّقنا بين عطاء الربوبية المتمثّل في كل نِعَم الحياة وبين عطاء الألوهية ، وهو التكليف الذي يقتضي عبداً ومعبوداً ، وافعل ولا تفعل .

إذن : عطاء الربوبية عام للجميع ودائم للجميع ، فكان على الإنسان أن يقف مع نفسه وقفة تأمُّل في هذه النعم التي تُسَاق إليه دون سَعْي منه أو مجهود ، هذه الشمس وهذه الأرض وهذا الهواء ، هل له قدرة عليها؟ هل تعمل له بأمره ، إنها أوليات النعم التي أجراها الله تعالى من أجله ، وسخّرها بقدرته من أجله ، ألا تدعوه هذه النعم إلى الإيمان بالمنعم سبحانه وتعالى؟

وسبق أنْ ضربنا مثلاً للاستدلال على الخالق سبحانه بما أودعه في الكون من ظواهر وآيات بالرجل الذي انقطعت به السُّبُل في صحراء ، حتى أوشك على الهلاك ، وفجأة رأى مائدة عليها ما يشتهي من الطعام والشراب ، ألاَ تثير في نفسه تساؤلاً عن مصدرها قبل أن تمتدَّ إليها يده؟ وكذلك الكافر الذي يتقلَّب في نِعَم لا تُعَدُّ ولا تُحصَى ، وقد طرأ على الكون فوجده مُعدّاً

لاستقباله مُهَيئاً لمعيشته ، فكان عليه أنْ يُجري عملية الاستدلال هذه ، ويأخذ من النعمة دليلاً على المنعِم .

والحق تبارك وتعالى لا يمنع عطاء ربوبيته عَمَّنْ كفر ، بل إن الكافر حين يتمكَّن الكفر منه ويُغلق عليه قلبه يساعده الله على ما يريد ، ويزيده مما يحب ، كما قال تعالى : { فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً . . } [البقرة : 10]

إذن : فقوله تعالى : { وَجَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً . . } [الإسراء : 46] لم تَأْتِ من الله ابتداءً ، بل لما أحبُّوا هم الكفر ، وقالوا عن أنفسهم : قلوبنا في أكنة ، فأجابهم الله إلى ما أرادوا وختم على قلوبهم ليزدادوا كفراً ، وطالما أنهم يحبونه فَلْنُزدهم منه .

ثم يقول تعالى : { أَن يَفْقَهُوهُ . . } [الإسراء : 46]

أي : كراهية أنْ يفقهوه؛ لأن الله تعالى لا يريد منهم أن يفهموا القرآن رَغْماً عنهم ، بل برضاهم وعن طيب خاطر منهم بالإقناع وبالحجة ، فالله لا يريد منا قوالبَ تخضع ، بل يريد قلوباً تخشع ، وإلا لو أرادنا قوالبَ لما استطاع أحد منا أنْ يشذَّ عن أمره ، أو يمنع نفسه من الله تعالى ، فالجميع خاضع لأمره وتحت مشيئته .

وفي سورة الشعراء يقول الحق تبارك وتعالى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : 3-4]

فالأعناق هي الخاضعة وليست القلوب؛ لأنك تستطيع أن تقهر قالب خصمك فتجبره على فعل أو قول ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تجبر قلبه وتكرهه على حبك ، إذن : فالله تعالى يريد القلوب ، يريدها طائعة محبة مختارة ، أما هؤلاء فقد اختاروا الأَكِنّة على قلوبهم ، وأحبُّوها وانشرحت صدورهم بالكفر ، فزادهم الله منه .

ثم يقول تعالى : { وفي آذَانِهِمْ وَقْراً . . } [الإسراء : 46]

{ وَقْراً } أي : صَمم ، والمراد أنهم لا يستمعون سماعاً مفيداً؛ لأنه ما فائدة السمع؟ واللغة وسيلة بين متكلم ومخاطب ، ومن خلالها تنتقل الأفكار والخواطر لتحقيق غاية ، فإذا كان يستمع بدون فائدة فلا جدوى من سمعه وكأنه به صَمماً .

وقوله تعالى : { وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي القرآن وَحْدَهُ وَلَّوْاْ على أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً . . } [الإسراء : 46]

لماذا ولو على أدبارهم نفوراً؟ لأنك أتيتَ لهم بما يُخوّفهم ويُزعجهم ، وبالله لو أن قضيةَ الإيمان ليست فطرية موجودة في الذات وفي ذرّات التكوين ، أكان هؤلاء يخافون من ذكر الله؟ فَمِمّا يخافون وهم لا يؤمنون بالله ، ولا يعترفون بوجوده تعالى؟

إذن : ما هذا الخوف منهم إلا لانقهار الطبع ، وانقهار الفطرة التي يعتريها غفلة ، فإذا بهم يُولُّون

مدبرين في خَوْفٍ ونُفور .
ثم يقول الحق سبحانه : { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نجوى . . . } .

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (47)

الحق سبحانه وتعالى لا يَخْفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهذه حقيقة كان على الكفار أنْ ينتبهوا إليها ويُراعوها ، ويأخذوها سبيلاً إلى الإيمان بالله ، فقد أخبر سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : { وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المصير } [المجادلة : 8]
فكان عليهم أن يتدبروا هذا القول : فهم قالوا في أنفسهم ، ولم يقولوا لأحد ، فمَنْ أخبر محمداً بهذا القول الذي لم يخرج إلى عالم الواقع ، ومَنْ أطلعه عليه؟ أَلاَ يدعوهم هذا الإعلام بما يدور في نفوسهم إلى الإيمان بالله؟
وما دام الحق سبحانه يعلم كل الأحوال ، ولا يَخْفَى عليه شيء ، فهو أعلم بأحوالهم هذه : الأول : يستمعون إليك . والثاني : وإذ هم نجوى . والثالث : إذ يقول الظالمون . إذن : هم يستمعون ثم يتناجون ، ثم يقول بعضهم لبعض .
قالوا : إن سبب نزول هذه الآية ما كان عند العرب من حُبٍّ للغة وشغف بأساليب البيان؛ لذلك كانت معجزة النبي صلى الله عليه وسلم من جنس ما نبغ فيه قومه ، لتكون أوضح في التحدي ، هكذا شأن الحق سبحانه مع كل الرسل .
وكان للعرب أسواق للبيان والبلاغة يجتمع فيها أهل الشعر والبلاغة والفصاحة ، وفي مكة تصب كل الألسنة في مواسم الحج ، فعرفوا صفوة لغات الجزيرة وأساليبها ، ومن هنا انجذبوا لسماع القرآن ، وشغفوا ببيانه بما لديهم من أذن مُرْهفة للأسلوب وملَكة عربية أصيلة ، إلا أن القرآن له مطلوبات وتكاليف لا يقدرون عليها ، ولديه منهج سيُقوِّض مملكة السيادة التي يعيشون فيها .
ومن هنا كابروا وعاندوا ، ووقفوا في وجه هذه الدعوة ، وإنْ كانوا مُعْجبين بالقرآن إعجاباً بيانياً بلاغياً بما في طباعهم من مَلَكات عربية .
فيُرْوَى أن كباراً مثل : النضر بن الحارث ، وأبي سفيان ، وأبي لهب كانوا يتسللون بعد أن ينام الناس ممن كانوا يقولون لهم : { لاَ تَسْمَعُواْ لهذا القرآن والغوا فِيهِ } [فصلت : 26] كانوا يذهبون إلى البيت يتسمَّعون لقراءة القرآن ، ولماذا يحرمون أنفسهم من سماع هذا الضرب البديع من القول ، وقد حرموا مواجيدهم وقلوبهم منه ، فكانوا عند انصرافهم يرى بعضهم بعضاً مُتسلّلاً مُتخفّياً ، فكانوا مرة يكذبون على بعضهم بحجج واهية ، ومرة يعترفون بما وقعوا فيه من حُبٍّ لسماع القرآن .

فقال تعالى : { نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ . . } [الإسراء : 47]
أي : بالحال الذي يستمعون عليه ، إذ يستمعون إليك بحال إعجاب . ثم : { وَإِذْ هُمْ نجوى . . } [الإسراء : 47] من التناجي وهو الكلام سِرّاً ، أو : أن نَجْوى جمع نجى ، كقتيل وقَتْلى ، وجريح وجَرْحى .
فالمعنى : نحن أعلم بما يستمعون إليه ، وإذ هم متناجون أو نجوى ، فكأن كل حالهم تناجٍ .
وقوله : { وَإِذْ هُمْ نجوى . . } [الإسراء : 47]
فيه مبالغة ، كما تقول : رجل عادل ، ورجل عَدْل .

ومِنْ تناجيهم مَا قاله أحدهم بعد سماعه لآيات القرآن : « والله ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسلفه لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه » .
ثم تأتي الحالة الثالثة من أحوالهم : { إِذْ يَقُولُ الظالمون إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً } [الإسراء : 47]
وهذا هو القول المعْلَن عندهم ، أن يتهموا رسول الله بالسحر مرة ، وبالجنون أخرى ، ومرة قالوا : شاعر . وأخرى قالوا : كاهن . وهذا كله إفلاس في الحجة ، ودليل على غبائهم العقديّ .
وكلمة { مَّسْحُوراً } اسم مفعول من السحر ، وهي تخييل الفِعْل . وليس فعلاً ، وتخييل القَوْل وليس قولاً ، فهي صَرْف للنظر عن إدراك الحقائق ، أما الحقائق فهي ثابتة لا تتغير .
لذلك نقول : إن معجزة موسى عليه السلام من جنس السحر وليست سِحْراً؛ لأن ما جرى فيها كان حقيقة لا سِحْراً ، فقد انقلبتْ العصا حَيَّة تبتلع حبال السحرة وعِصيّهم على وَجْه الحقيقة ، لكن لما كانت المعجزة في مجال السحر ظنها الناسُ سِحْراً؛ لأن القرآن قال في سحرة فرعون : { سحروا أَعْيُنَ الناس } [الأعراف : 116] وقال في آية أخرى : { يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى } [طه : 66]
إذن : فحقيقة الأشياء ثابتة لا تتغير ، فالساحر يرى العصا عصا ، أما المسحور فيراها حية ، وليست كذلك مسألة موسى عليه السلام وليؤكد لنا الحق سبحانه هذا المعنى ، وأن ما حدث من موسى ليس من سحرهم وتغفيلهم أنه حينما قال له : { وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ياموسى } [طه : 17]
فأطال موسى عليه السلام الكلام؛ لأنه أحب الأُنْس بالكلام مع ربه تعالى فأجاب : { قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي . . . } [طه : 18] ثم أحس موسى أنه أطال فقال موجزاً : { وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى } [طه : 18]
فهذا هو مدى عِلْمه عن العصا التي في يده ، لكن الله تعالى سيجعلها غير ذلك ، فقال له : { قَالَ أَلْقِهَا ياموسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى } [طه : 19-20]

فهل خُيِّل لموسى أنها حيَّة وهي عصا؟ أم أنها انقلبت حيّة فعلاً؟ إنها حية فعلاً على وجه الحقيقة ، بدليل قوله تعالى : { فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً موسى } [طه : 67]
وموسى لم يَخَفْ إلا لأنه وجد العصا حيّة حقيقية ، ثم طمأنه ربه : { قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأعلى } [طه : 68]
لذلك لما رأى السحرة ما تفعله عصا موسى علموا أنها ليست سحراً ، بل هي شيء خارج عن نطاق السحر والسحرة ، وفوق قدرة موسى عليه السلام ، فآمنوا بربِّ موسى القادر وحده على إجراء مثل هذه المعجزة .
وقوله تعالى : { إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً } [الإسراء : 47]
أي : سحره غيره . وهذا قوْل الظالمين الذين يُلفِّقون لرسول الله التهمة بعد الأخرى ، وقد قالوا أيضاً : ساحر . قال تعالى : { قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ } [يونس : 2]
فمرّة قُلْتم : ساحر . ومرة قلتم : مسحور . وهذا دليل التخبُّط واللَّجج ، فإن كان ساحراً فعندكم من السحرة كثيرون ، فلماذا لا يُواجِهونه بسحر مثل سِحْره؟ ولماذا لم يسحركم أنتم كما سحر غيركم وتنتهي المسألة؟ وهل يمكن أن يُسْحر الساحر؟
وإنْ كان مسحوراً سحره غيره ، فهل جرَّبْتُم عليه في سحره كلاماً مخالفاً لواقع؟ هل سمعتموه يهذي كما يهذي المسحور؟ إذن : فهذا اتهام بطل وقول كاذب لا أصل له ، بدليل أنكم تأبَّيتم عليه ، ولم يُصِبْكم منه أذى .

فلما أخفقوا في هذه التهمة ذهبوا إلى ناحية أخرى فقالوا : شاعر ، وبالله أَمِثْلُكم أيها العرب ، يا أربابَ اللغة والفصاحة والبيان يَخْفي عليه أن يُفرّق بين الشعر والنثر؟ والقرآن وأسلوب متفرد بذاته ، لا هو شعر ، ولا هو نثر ، ولا هو مسجوع ، ولا هو مُرْسل ، إنه نسيج وحده .
لذلك نجد أهل الأدب يُقسِّمون الكلام إلى قسمين : كلام الله وكلام البشر ، فكلام البشر قسمان : شعر ونثر ويخرج كلام الله تعالى من دائرة التقسيم؛ لأنه متفرد بذاته عن كل كلام .
فلو قرأت مثلاً في كتب الأدب تجد الكاتب يقول : هذا العدل محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوة غُمّة ثم تنجلي ، ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سيبه ، أو تأخر غير ضنين غناؤه ، فأبطأُ الدِّلاَء فَيْضاً أحفلُها ، وأثقل السحائب مَشْياً أحفلها ، ومع اليوم غد ، ولكلِّ أجل كتاب ، له الحمد على احتباله ، ولا عتب عليه في احتفاله .
فإنْ يَكن الفِعْلُ الذي سَاءَ وَاحِداً ... فأَفْعالُه اللَّائِي سُرِرْنَ أُلُوفُ
فلا شكَّ أنك ستعرف انتقالك من النثر إلى الشعر ، وسوف تُمَيِّز أذنك بين الأسلوبين ، لكن أسلوب القرآن غير ذلك ، فأنت تقرأ آياته فتجدها تناسب انسياباً لا تلحظ فيه أنكَ انتقلتَ من نثر إلى شعر ، أو من شعر إلى نثر ، واقرأ قول الله تعالى : { نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّيۤ أَنَا الغفور

الرحيم } [الحجر : 49]

أَجْرِ عليه ما يُجريه أهل الشعر من الوزن ، فسوف تجد بها وزناً شعرياً : مستفعل فاعلات . .

وكذلك : { وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العذاب الأليم } [الحجر : 50] تعطيك الشطر الثاني من البيت ، لكن هل لاحظتَ ذلك في سياق الآيات؟ وهل لاحظتَ أنك انتقلت من شعر إلى نثر ، أو من نثر إلى شعر؟

إذن : فالقرآن نسيج فريد لا يُقال له : شعر ولا نثر ، وهذا الأمر لا يَخْفى على العربي الذي تمرَّس في اللغة شعرها ونثرها ، ويستطيع تمييز الجيِّد من الرديء .

ثم يقول الحق سبحانه : { انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } .

انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (48)

أي : تعجَّبْ مما هم فيه من تخبُّط ولَجَج ، فمرَّة يقولون عن القرآن : سحر ومرة يقولون : شعر ، ويصفونك بأنك : شاعر ، وكاهن ، وساحر .

ومعلوم أن الرسالة لها عناصر ثلاثة : مُرسِل ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُرسَل وهو النبي صلى الله عليه وسلم ومُرْسَلٌ به وهو القرآن الكريم ، وقد تخبّط الكفار في هذه الثلاثة ودعاهم الظلم إلى أن يقول فيها قولاً كاذباً افتراءً على الله تعالى وعلى رسوله وعلى كتابه .

وقد سبق أن تحدثنا عن افتراءاتهم في الألوهية وعن موقفهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك قولهم : { لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

وقولهم عن القضية الإيمانية العامة : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32]

أهذه دعوة يدعو بها عاقل؟! فبدل أنْ يقولوا : فاهدنا إليه تراهم يُفضّلون الموت على سماع القرآن ، وهذا دليل على كِبْرهم وعنادهم وحماقتهم أمام كتاب الله .

لذلك ، فالحق سبحانه وتعالى من حبه لرسوله صلى الله عليه وسلم ورِفْعة منزلته حتى عند الكافرين به ، يردُّ على الكافرين افتراءهم ، ويُطمئِن قلب رسوله ، ويتحمل عنه الإيذاء في قوله تعالى : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الذي يَقُولُونَ . . } [الأنعام : 33]

أي : قولهم لك : ساحر ، وكاهن ، وشاعر ، ومجنون { فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ ولكن الظالمين بِآيَاتِ الله يَجْحَدُونَ } [الأنعام : 33]

فليست المسألة عندك يا محمد ، فهُمْ مع كفرهم لا يكذبونك ولا يجرؤن على ذلك ولا يتهمونك ، إنما المسألة أنهم يجحدون بآياتي ، وكُلٌّ تصرفاتهم في مقام الألوهية ، وفي مقام النبوة ، وفي مقام الكتاب ناشئة عن الظلم .

وقولهم عن رسول الله : مجنون قوْلٌ كاذب بعيد عن الواقع؛ لأن ما هو الجنون؟ الجنون أن تُفسِد

في الإنسان آلة التفكير والاختيار بين البدائل ، والجنون قد يكون بسبب خَلْقي أي : خلقه الله تعالى هكذا ، أو بسبب طارئ كأنْ يُضربَ الإنسان على رأسه مثلاً ، فيختلّ عنده مجال التفكير .

ومن رحمة الله تعالى بالعبد أن أخَّرَ له التكليف إلى سِنَّ البلوغ واكتمال العقل ، وحتى يكون قادراً على إنجاب مثله؛ لأنه لو كلّفه قبل البلوغ فسوف تطرأ عليه تغييرات غريزية قد يحتج بها ، ومع ذلك طلب من الأب أن يأمر ابنه بالصلاة قبل سِنِّ التكليف لِيُعَوِّده الصلاة من الصغير ليكون على إِلْفٍ بها حين يبلغ سِنّ التكليف ، وليألف صيغة الأمر من الآمر .

والإنسان لا يشك في حُبّ أبيه وحِرْصه على مصلحته ، فهو الذي يُربّيه ويُوفّر له كل ما يحتاج ، فله ثقة بالأب المحس ، فالحق سبحانه يريد أنْ يُرِبّبَ فينا الطاعة لمن نعلم خيره علينا ، فإذا ما جاء وقت التكليف يسهل علينا ولا يشق؛ لأنها أصبحتْ عادة .

والذي أعطى للأب حَقَّ الأمر أعطاه حَقّ العقاب على تركه ليكون التكليف من الرب الصغير ، والعقوبة من الرب الصغير لِتُعوِّده بالأُبُوة المحسَّة والرحمة الظاهرة على طاعة الحق سبحانه الذي أنعم عليَّ وعليك .

فالعقل إذن شرْط أساسي في التكليف ، وهو العقل الناضج الحرّ غير المكْره ، فإنْ حدث إكراه فلا تكليف .

فقوله : { انظر كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأمثال . . } [الإسراء : 48]

أي : قالوا مجنون ، والمجنون ليس عنده اختيار بين البدائل ، وقد رَدَّ الحق سبحانه عليهم بقوله : { ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } [القلم : 1-4]

فنفى الحق سبحانه عن رسوله هذه الصفة ، وأثبت له صفة الخُلق العظيم ، والمجنون لا خُلقَ له ، ولا يُحاسَب على تصرفاته ، فهو يشتم هذا ويضرب هذا ويبصق في وجه هذا ، ولا نملك إلا أنْ نبتسم في وجهه ونُشفِق عليه .

ولقائل أنْ يقول : كيف يسلبه الخالق سبحانه وتعالى نعمة العقل ، وهو الإنسان الذي كرّمه الله؟ وكيف يعيش هكذا مجرد نسخة لإنسان؟

ولنعلم الحكمة من هذه القضية علينا أنْ نُقارن بين حال العقلاء وحال المجنون ، لنعرف عدالة السماء وحكمة الخالق سبحانه ، فالعاقل نحاسبه على كل كبيرة وصغيرة ومقتضى ما تطلبه من عظمة في الكون ، ومن جاه وسلطان ألاَ يُعقّب على كلامك أحد ، وأنْ تفعلَ ما تريد .

أَلاَ ترى أن المجنون كذلك يقول ويفعل ما يريد ، ثم يمتاز عنك أن لا يسأل في الدنيا ولا في الآخرة؟ أليست هذه كافية لتُعوِّضه عن فقد العقل؟ فلا تنظر إلى ما سلب منه ، ولكن إلى ما

أعطاه من مَيْزات في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : { فَضَلُّواْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً } [الإسراء : 48]

أي : لم يستطيعوا أنْ يأتُوا بمثَلٍ يكون صَاداً وصارفاً لمن يؤمن بك أنْ يؤمن ، فقالوا : مجنون وكذبوا . وقالوا : ساحر وكذبوا وقالوا : شاعر وكذبوا . وقالوا : كاهن وكذبوا . فَسُدّتْ الطرق في وجوههم ، ولم يجدوا مَنْفَذاً لِصَدِّ الناس عن رسول الله .

فلما عجزوا عن إيجاد وَصْف يصدُّ مَنْ يريد الإيمان برسول الله ، قالوا : { اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [الأنفال : 32]

ومنهم من قال : { وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ } [الزخرف : 31]

فلم يستطيعوا إيجاد سبيل يُعَوقون به دعوتك ، بدليل أنه رغم ضَعْف الدعوة في بدايتها ، ورغم اضطهادهم لها تراها تزداد يوماً بعد يوم ، وتتسع رُقْعة الإيمان ، أما كَيْدهم وتدبيرهم فيتجمّد أو يقلّ .

كما في قوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأرض نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا . . } [الرعد : 41]

فكل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتقلُّ أرض الكفر .

والحق سبحانه وتعالى في قضية استماع القرآن وقولهم : قلوبنا في أكنة ، وقلوبنا غلف يريد أن يُلفِتَ أنظارنا إلى قضية هامة في الوجود ومنتظمة في كل الكائنات ، وهي أن الأفعال تقتضي فاعلاً للحدث وقابلاً لفعل الحدث ، ومثال ذلك : الفلاح الذي يُقلِّب التربة بفأسه ، فتقبل التربة منه هذا الفعل ، وتنفعل هي معه ، فتعطيه ما ينتظره من محصول .

. أما لو فعل هذا الفعل في صخرة فلن تقبل منه هذا الفعل . إذن : فثمرة الحدث تتوقف على طرفين : فاعل ، وقابل للفعل .

لذلك أتعجب من هؤلاء الذين يقولون : إن الغرب يفتن المسلمين عن دينهم ، ويأتي إلينا بالمغْريات وأسباب الانحراف ، ويُصدّر إلينا المبادئ الهدامة ويُشككنا في ديننا . . الخ .

ونقول لهؤلاء : مَا يضركم أنتم إنْ فعل هو ولم تقبلوا أنتم منه هذا الفعل؟! دَعُوه يفعل ما يريد ، المهم ألاَّ نقبلَ وألاَّ نتفاعلَ مع مقولاته ومبادئه . فالخيبة ليست في فعل الغرب بنا ، ولكن في تقبُّلنا نحن ولَهْثنا وراء كُلِّ ما يأتينا من ناحيته ، وما ذلك إلا لِقلّة الخميرة الإيمانية في نفوسنا ، فالغرب يريد أنْ يُثبِّت نفوذه ، ويثبت مبادئه ، وما عليك إلاّ أنْ تتأبّى على قبول مثل هذه الضلالات .

وعلى نظرية الفاعل والقابل هذه تُبنَى الحضارات في العالم كله؛ لأن الخالق سبحانه حينما استدعانا إلى الوجود جعل لنا فيه مُقوّمات الحياة الأساسية من : شمس ، وقمر ، ونجوم ، وأرض

، وسماء ، وماء ، وهواء . ومن هذه المقوّمات ما يعطيك ويخدمك دون أنْ تتفاعَل معه أو تطلبَ منه ، كالشمس والماء والهواء ، ومنها ما لا يعطيك إلاَّإذا تفاعلتَ معه مثل الأرض لا تعطيك إلا إذا تعهدتها بالحرث والسَّقْي والبَذْر .

والمتأمل في الكون يجد أن جميع ارتقاءات البشر من هذا النوع الثاني الذي لا يعطيك إلا إذا تفاعلتَ معه ، وقد ترتقي الطموحات البشرية إلى أن تجعلَ من النوع الأول الذي يعطيك دون أن تتفاعلَ معه ومن غير سلطان لك عليه ، تجعل منه مُنْفَعِلاً بعملك فيه ، كما يحدث الآن في استعمال الطاقة الشمسية في مجالات جديدة لم تكُنْ من قبل . إذن : فهذه ارتقاءاتٌ لا يُحْرَم منها مَنْ أخذ بالأسباب وسَعَى إلى الرُّقيّ والتقدم .

إذن : إنْ جاء يُشكِّك في دينك نَدَعْهُ ، وما يقول فليس بملوم ، إنما الملوم أنت إنْ قبلْتَ منه؛ ولذلك يجب علينا وعلى كُلّ قائم على تربية النشء أنْ نُحصِّن أولادنا ضد هجمات الإلحاد والتنصير والتغريب ، ونُعلِّمهم من أساسيات الدين ما يُمكِّنهم من الدفاع والردِّ بالحجة والإقناع حتى لا يقعوا فريسة سَهْلة في أيدي هؤلاء .

وهذه هي المناعة المطلوبة وما أشبهها بما نستخدمه في الماديات من التطعيم ضد المرض ، حتى إذا طرأ على الجسم لا يؤثر فيه . ألاَ ترى الحق سبحانه في قرآنه الكريم يَعْرِض لِشُبَه الكافرين والملاحدة ويُفصِّلها ويُناقشها ، ثم يبين زَيْفها ، فيقول : { كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً } [الكهف : 5]

فلماذا يعرضها القرآن ، هل لنأخذ بها ونتعلمها؟ لا بل لكي لا نُفَاجأ بها ، فإذا أَتَتْ يكون لدينا المناعة الكافية ضِدّها ، ولكي تتربّى فينا الحصانة المانعة من الانزلاق أو الانحراف .

إذن : فأصول الحياة فاعل وقابل ، وسبق أنْ ضربنا مثلاً فقلنا : في الشتاء ينفخ الإنسان في يده ليدفئها ، وكذلك ينفخ في كوب الشاي ليبرده ، فالفعل واحد ولكن القابل مختلف . وكذلك حال الناس في سماع القرآن واستقبال كلمات الله ، فقد استقبله أحد الكفار في حال هدوء وانسجام ، فقال :

« والله إنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغْدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه » لقد استمعه بملكَة العربي الشَّغُوف بكل ما هو جميل من القَوْل ، لا بملَكِة العناد والكِبْر والغطرسة .

وكذلك سيدنا عمر رضي الله عنه له حالان في سماع القرآن : حال كفر وشدة وغلظة عند سماع القرآن ، وحال إيمان ورقَّة قلب حينما بلغه نبأ إسلام أخته ، فأسرع إليها وهي تقرأ القرآن فصفَعها بقسْوة حتى أَدْمَى وجهها ، فأخذتْه عاطفة الرحم ، وتغلبت على عاطفة الكفر عنده ، فلما سمع القرآنَ بهذه العاطفة الحانية تأثَّر به ، فآمن مِنْ فَوْره؛ لأن القرآن صادف منه قَلْباً

صافياً ، فلا بد أَنْ يُؤثِّر فيه .
فالمسألة إذن تحتاج أن يكون لدى القابل استعداد لِتقبُّل الشيء والانفعال به .
وقد خَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية في قوله تعالى : { وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . } [محمد : 16]
فيأتي الرد عليهم : { أولئك الذين طَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ واتبعوا أَهْوَآءَهُمْ } [محمد : 16]
وفي آية أخرى يقول سبحانه : { وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُواْ لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . } [فصلت : 44]
فالقرآن واحد ، ولكن المستقبل مختلف ، إذن : فإياك أنْ تلوم مَنْ يريد أن يلويَ الناس إلى طريق الضلال ، بل دَعْه في ضلاله ، ورَبِّ في الآخرين مناعة حتى لا يتأثروا ولا يستجيبوا له .
بعد أن تكلمنا عن موقف الكفار من الألوهية ومن النبوة نتكلم من موقفهم من المنهج الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المنهج يتضمن قضايا كثيرة وأموراً متعددة ، لكن أم هذا المنهج وأساسه أن نؤمن بالآخرة ، وما دُمْنَا نؤمن بالآخرة فسوف تنسجم حركتنا في الحياة . فالإيمان بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب هو الحافز لنا على العمل والاستقامة في الدنيا ، وما أشبه ذلك بالتلميذ الذي يجتهد ويجدّ؛ لأنه يؤمن بالامتحان آخر العام ، وما ينتج عنه من توفيق أو إخفاق .
غبيّ مَنْ يظن أن الدنيا هي نهاية المطاف ، وأنها الغاية التي ليس بعدها غاية؛ لأن الجميع عبيدٌ لله تعالى متساوون . . ومع ذلك نرى مَنْ يموت في بطن أمه ، ومَنْ يموت بعد عدة شهور ، وآخر بعد عدة أعوام ، فلو أن الدنيا هي الغاية لاستوى الجميع في المكْث فيها ، فاختلاف الأعمار في الدنيا دليل على أنها ليست غاية .

وعجيب في أمر الموت أن نرى الناس يحزنون كثيراً على مَنْ مات صغيراً ويقولون : أُخِذ في شبابه ويُكثِرون عليه العويل ، لماذا؟ يقولون : لأنه لم يتمتع بالدنيا ، سبحان الله أي دنيا هذه التي تتحدثون عنها ، وقد اختاره الله قبل أنْ تُلوّثه آثامها وتُلطّخه ذنوبها ، لماذا تحزنون كل هذا الحزن ولو رأيتم ما هو فيه لحسدتموه عليه؟
والناس كثيراً ما يُخطِئون في تقدير الغايات؛ لأن كل حَدَث يُحدِثه الإنسان له غاية من هذا الحدث ، هذه الغاية مرحلية وليست نهائية ، فالغاية النهائية والحقيقية ما ليس بعدها غاية أخرى ، فالتلميذ يذاكر بالمرحلة الابتدائية لينتقل إلى المرحلة الإعدادية ، ويذاكر الإعدادية لينتقلَ إلى الثانوية .
وهكذا تتوالى الغايات في الدنيا إلى أنْ يصل إلى غاية الدنيا الأخيرة ، وهي أن يبني بيتاً ويتزوج

ويعيش حياة سعيدة يرتاح فيها بما تحت يديه من خدم ، يقضون له ما يريد ، هذا على فرض أنه سيعيش حتى يكمل هذه المراحل ، ولكن ربما مات قبل أنْ يصلَ إلى هذه الغاية .

إذن : فلا بد للإنسان أنْ يتعبَ أولاً ، ويبذل المجهود ليصبح مخدوماً ، وهذه المخدومية تتناسب مع مجهودك الأول ، فَمن اكتفى بالإعدادية مثلاً ليس كمن تخرّج من الجامعة ، فلكُلٍّ مرتبته ومكانته؛ لأنك تعيش في الدنيا بالأسباب وعلى قَدْر ما تعطي تأخذ .

إذن : فغايتك في الدنيا أن تكون مخدوماً ، مع أن خادمك قد يتمرَّد عليك وقد يتركك ، أما غاية الآخرة فسوف تُوفّر عليك هذا كله ، وليس لأحد علاقة بك إلا ذاتك أنت ، فبمجرد أنْ يخطر الشيء على بالك تجده أمامك؛ ذلك لأنك في الدنيا تعيش بالأسباب ، وفي الآخرة تعيش بمُسبِّب الأسباب سبحانه وتعالى .

وكذلك لو أجريتَ مقارنة اقتصادية بين متعة الدنيا ومتعة الآخرة لرجحَتْ كِفّة الآخرة؛ لأن الدنيا بالنسبة لك هي عمرك فيها فقط ، وليس عمر الدنيا كله ، كما يحلو للبعض أنْ يُحدِّد عمر الدنيا بعدة ملايين من السنين ، فما دَخْلك أنت بكل هذه الملايين؟!

فالدنيا إذن هي عمري فيها ، وهذا العمر مظنون غير مُتيقّن ، وعلى فرض أنه مُتيقّن فهو خاضع لمتوسط الأعمار ، وسوف ينتهي حتماً بالموت . أَضِفْ إلى ذلك أن نعيمك في الدنيا على قَدْر سَعْيك وأَخْذِك بأسبابها .

أما الآخرة فهي باقية لا نهاية لها ، فلا يعتريها زوال ولا يُنهيها الموت ، كما أن مُدتها مُتيقّنة وليس مظنونة ، ونعيمك فيها ليس على قَدْر إمكانياتك ، ولكن على قدر إمكانيات خالقك سبحانه وتعالى .

فأيّهما أحسن؟ وأيُّهما أَوْلَى بالسَّعْي والعمل؟ ويكفي أنك في الدنيا مهماً توفَّر لك من النعيم ، وإنْ كنت في قمة النعيم بين أهلها فإنه يُنغّص عليك هذا النعيمَ أمران : فأنت تخاف أنْ تفوتَ هذا النعيم بالموت ، وتخاف أن يفوتك هو بالفقر ، فهي نعمة مُكدّرة ، أما في الآخرة فلا تخاف أن تفوتها ، ولا أن تفوتك ، فأيُّ الصفقتين أربح إذن؟

ثم يقول الحق سبحانه عن إنكارهم للبعث بعد الموت : { وقالوا أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً } .

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (49)

الاستفهام في الآية استفهام للتعجّب والإنكار لموضع البعث يوم القيامة بعد أنْ صاروا رُفَاتاً وعظاماً .

والرفات : هو الفتات ومسحوق الشيء ، وهو التراب أو الحُطَام ، وكذلك كل ما جاء على وزن (فُعال) .

لقد استبعد هؤلاء البعث عن الموت؛ لأنهم غفلوا في بداية الوجود وبداية خَلْق الإنسان ، ولو استعملنا علم الإحصاء الذي استحدثه العلماء لوجدناه يخدم هذه القضية الإيمانية ، فلو أحصينا تعداد العالم الآن لوجدناه يتزايد في الاستقبال ويقلّ في الماضي ، وهكذا إلى أنْ نصل بأصل الإنسان إلى الأصل الأصيل ، وهو آدم وحواء ، فمن أين أتَيَا إلى الوجود؟ فهذه قضية غيبية كان لا بُدَّ أن يُفكّروا فيها .

ولأنها قضية غيبية فقد تولَّى الحق سبحانه وتعالى بيانها؛ لأن الناس سوف يتخبّطون فيها ، فينبهنا الخالق سبحانه بمناعة إيمانية عقدية في كتابه العزيز ، حتى لا ننساق وراء الذين سيتهورون ويَهْرفون بما لا يعلمون ، ويقولون بأن أصل الإنسان كان قرداً ، وهذه مقولة باطلة يسهُل رَدُّها بأن نقول : ولماذا لم تتحول القرود الباقية إلى إنسان؟ وعلى فرض أن أصل الإنسان قرد ، فمن أين أتى؟ إنها نفس القضية تعود بنا من حيث بدأتْ ، إنها مجرد شوشرة وتشويه لوجه الحقيقة بدون مبرر .

وكذلك من القضايا التي تخبَّط فيها علماء الجيولوجيا ما ذهبوا إليه من أن السماء والأرض والشمس كانت جميعاً جزءاً واحداً ، ثم انفصلت عن بعضها ، وهذه أقوال لا يقوم عليها دليل . لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يعطينا طرفاً من هذه القضية ، حتى لا نُصغِي إلى أقوال المضلِّلين الذين يخوضون في هذه الأمور على غير هدى ، ولتكون لدينا الحصانة من الزَّلَل؛ لأن مثل هذه القضايا لا تخضع للتجارب المعملية ، ولا تُؤخَذ إلا عن الخالق سبحانه فهو أعلم بما خلق .

يقول تعالى : { مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السماوات والأرض وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ . . } [الكهف : 51] أي : لم يكن معي أحد حين خلقتُ السماء والأرض ، وخلقتُ الإنسان ، ما شهدني أحد لِيَصِفَ لكم ما حدث { وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ المضلين عَضُداً } [الكهف : 51] أي : ما اتخذت من هؤلاء المضللين مُساعِداً أو مُعاوِناً ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : احكموا على كل مَنْ يخوض في قضية الخَلْق هذه بأنه مُضلّل فلا تستمعوا إليه .

ولكي تُريحوا أنفسكم من مثل هذه القضايا لا تُحمِّلوا العقل أكثر مما يحتمل ، ولا تعطوه فوق مقومات وظائفه ، وجَدْوى العقل حينما ينضبط في الماديات المعملية ، أما إنْ جنح بنا فلا نجني من ورائه إلا الحُمْق والتخاريف التي لا تُجدي .

وكلمة « العقل » نفسها من العقال الذي يمنع شرود البعير ، وكذلك العقل جعله الله ليضبط تفكيرك ، ويمنعك من الجموح أو الانحراف في التفكير .

وأيضاً ، فالعقل وسيلة الإدراك ، مثله مثل العين التي هي وسيلة الرؤية ، والأذن التي هي وسيلة السمع .